روايات الهلال

سر قصر المجوهرات

بيير بوالو • توماس نارسيجاك

REWAYAT AL-HILAL
No. 405 — September 1982





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٤٠٥ – سبتمبر ١٩٨٢ – ذو القعدة ١٤٠٢
No. 405 — September 1982

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمى

سكرتير التحرير: موسى عيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى ، وفى بلاد اتحاد البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او ما يعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج ٠ م ٠ ع ٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من روايات الهلال ٠

ثمن النسخة فى البلاد العربية للاعداد العادية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٨٢ فئة ٣٠٠ مليم للقارئ فى مصر ٠

سوريا ٤٠٠ ق٠س ، لبنان ٤٠٠ ق٠ل ، الاردن ٤٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠ فلس ، السعودية ٦ ريال ، السودان ٣٥٠ مليما ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك، الجزائر ٦٥٠ سنتيما ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة ٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنى ، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ٥٠ دراخمة ، فيينا ٢٥ شلن ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنت، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورين ٠

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركى

سرّ قصر المجوهرات

بقلم
بيير بوالو
و
توماس نارسيجاك

ترجمة
محمد عبد المنعم جلال

●

دار الهلال

مؤلفا هذه الرواية

ولد **بيير بوالو** فى باريس سنة ١٩٠٦ ، وتلقى دروسه فى مدرسة التجارة ، والتحق بأعمال شتى لكى يكسب قوت يومه . وحصل على جائزة المغامرة فى سنة ١٩٣٦ بروايته « لوحة باخوس » وهى جائزة تمنح عن احسن رواية من روايات المغامرة تظهر خلال كل سنة . وكرس بيير بوالو حياته بعد ذلك فى كتابه القصص البوليسية ونال فيها شهرة كبيرة . وفى سنة ١٩٥٠ انضم الى توماس نارسيجال .

ولد **توماس نارسيجاك** فى مدينة روسفور على ساحل البحر سنة ١٩٠٨ ، وبعد ان حصل على شهادته الجامعية عمل استاذا للآداب والفلسفة ثم كتب قصصا بوليسية مقلدا اجاثا كريستى وآرثر كونان دويل وموريس لبلان . ونشر عدة روايات وحصل فى سنة ١٩٤٨ على نفس الجائزة التى حصل عليها بيير بوالو بروايته المشهورة « الموت فى السلم » وانضم الى بوالو فى سنة ١٩٥٠ .

ونشر بوالو ونارسيجال نحو عشرين رواية قدمت كلها فى السينما ومن بينها رواية « العرق البارد » وقد اخرجها هيتشكوك فى السينما بعنوان « دوار » وترجمتها الى اللغة العربية باسم « الكابوس » ونفدت فور صدورها . وهما يشتركان الآن فى الكتابة للسينما والاذاعة والتليفزيون .

وهما شديدا الاعجاب بأرسين لوبين منذ حداثتهما ، ولهذا عقدا النية على اصدار مجموعة جديدة لبطل موريس لبلان الشهير ، وسر قصر يونرفيل التى نقدمها اليوم اولى هذه الروايات ، وقد نالت جائزة النقد كأحسن رواية بوليسية ظهرت فى سنة ١٩٧٤ .

المترجم

- ١ -

قصر الأميرة النائمة

عرف راوول دابنيال وهو على قمة المرتفع الممتد الاسطح الداكنة لبيوت بونرفيل فكفت يده عن توترها فوق عجلة القيادة . كان الريف يترامى امامه فى هدوء . وراى على يمينه ، خلال بعض الانفراجات نهر السين ، وعلى يساره شاطىء صخرى مرتفع راح يردد صوت محرك سيارته ذات الاربعين حصانا ... اربع ساعات وهو يطوى الارض منذ ان غادر باريس ، انفجرت اثناءها احدى عجلاته . وما هى الا لحظة حتى امتلأت شوارع البلدة الهادئة بالضجيج ، وانعطفت السيارة الى ممر جانبى وراحت تتارجح فوق ارض صلبة . واطفا راوول مصابيحه وقطع اداة الاشتعال وانطلق بضعة امتار فى طريق تحفه الاشجار ثم اوقف سيارته .

وتخلص فى حركات سريعة من نظارته وقلنسوته ووشاحه ثم هبط الى الارض وهو يقول :

— آه ... لا ريب اننى فى حالة يرثى لها .

ومس ياقته وشد جاكتته وتثاءب . وكان القمر هلالا يلقى بنوره الباهت على النباتات والاعشاب . وعاد راوول يقول :

— والآن ، الى الفصل الاول .

وانطلق فى درب يمتد عبر رابية طباشيرية يقوم على قمتها هيكل برج متهدم تحت سماء تنتشر فيها النجوم ، وكلما تقدم فى طريقه كلما امتد نهر السين امامه ، براقا يكاد الضباب يكسوه . وفى اعلى الطريق ، فى الساحل المواجه ، بضعة انوار متراقصة تشير الى مدينة تانكارفيل ، وكانت ميناء هونفلور تقع هناك ، خلف البرج المتهدم .

وراح راوول يرتقى الطريق فى غير جهد او مشقة ، وبلغ سور القصر الذى يكاد ينهار وتسلل الى فناء داخلى واشعل قداحته مرتين . وظهر

فى جوف الظلام الذى يكسو اسفل البرج نور خافت اضاء مرتين . وانتظر راوول ولم يلبث ان ظهر بجواره شبح يقول :

— اهذا انت ايها الزعيم ؟

— بلحمه وشحمه .

— كان يجب ان تاتى مساء امس .

— اخرتنى بعض المشاغل ... مبارزة وافطار فى سفارة انجلترا .. وتنظيف السيارة وتشحيمها ... ضرورات النبالة يا عزيزى .

امسك راوول بذراع صاحبه وقال فى صوت صارم :

— وتملكك الخوف اثناء ذلك ايها الاحمق ! .. قلت لنفسك ان الزعيم يتردد وانه يجد المسألة اشد خطورة مما يظن وانه تراجع .. اعترف ان ذلك ما كان ليضيرك .. يا لك من شجاع !

— اؤكد لك ايها الزعيم ...

— طبعا ، طبعا يا صفيرى برونو .. انت لم ترتعد قط لحظة واحدة .. لم يخطر لك ابدا ان تقول لنفسك ان الزعيم يتمادى ، وان البوليس سوف يلقى القبض عليه ذات يوم وعندئذ تنتهى ايامنا فى زنزانة ضيقة رطبة .

وضحك ضحكة فتية رنانة سرت عدواها الى برونو فابتسم بدوره وقد اخجلته تلك الطاقة العجيبة التى تنبعث من راوول دابنياك وتمتم يقول :

— هذا صحيح .. احيانا يتسرب الشك الى قلبى .

اطبقت يد راوول على ذراعه كفخ من الصلب وقال :

— اننى امنعك من الشك .. حتى اذا اختفيت .. يوما او شهرا او سنة .. فمهما يحدث فسوف اكون هنا بعد ذلك .. هل تسمع ؟ .. سوف اكون بجوارك .. لا يمكن ان يقع لك شىء .. هيا ، تقدم يا صفيرى وقم بواجبات صاحب البيت .. تقدمنى يا مولاى .

امتثل برونو وقد غلبته لهجة راوول الساخرة ومضى نحو آخر الفناء وهو يقول :

— احترس من الباب ايها الزعيم .. يجب ان تخفض راسك . والآن ، امامنا احدى وتسعون درجة .

واضاء مصباحا كهربيا وارسل شعاعه نحو الدرجات الحجرية القديمة . وقال راوول :

— آه .. ان المكان جميل .. وان كان بسيطا بعض الشيء .

وارتقى الدرجات فى خفة ورشاقة امام برونو الذى تسارعت انفاسه .

— تقريرك الآن يا صغيرى . كم رجلا بالقصر ؟

— ثلاثة .. واحدهم يبدو مسنا جدا .. لعله الحارس او كبير الخدم .

— والآخران .

— فى عنفوان الشباب .. صاحب القصر وسائقه .

— ومن غيرهم ؟

— لا تعجلنى هكذا ايها الزعيم . لا ادرى مم صنعت ساقاك ، فاننى لم اعد استطيع ان اتبعك .. هناك الطاهية ، وهى بين الاربعين والخمسين من العمر ، وطفلتان .. اعنى فتاة وصبية .. الاولى فى السابعة عشرة من عمرها ، والثانية فى الثانية عشرة تقريبا .

— اهما اختان ؟ .. ابنتا صاحب القصر ؟

— اوه ، كلا ، كلا طبعا .. الفتاة ، نعم .. اما الصبية فاعتقد انها قريبة للعجوز لانها تقضى كل وقتها معه .

— وزوجة صاحب القصر ؟

— ليست هناك زوجة .. اظن انه ارمل .

— واين يرقد الجميع ؟

— فى الطابق الاول . صاحب القصر والفتاة فى الجناح الاوسط . والسائق والطاهية ، وهما زوجان على ما اعتقد ، فى الجناح الايسر .. اما العجوز والصبية ففى كوخ صغير منعزل .

قال راوول وهو يضع قدمه فى غرفة واسعة ذات سقف يكاد ينهار :

— حسنا ، سوف افعل منك شيئا .

وقال برونو مازحا : وهذا هو مقر قيادتى العامة .

واضاء الاغطية الملقاة فوق الارض وبقايا وجبة من الطعام ، وقال وهو يفخم فى صوته كما يفعل المرشد :

— والآن الى الاستكشاف .

اخذ راوول المصباح الكهربى من يده واطفاه وهو يقول :

— مهلا يا صغيرى .. لا انوار فى غير مناسباتها .. هل معك المنظار الصغير ؟

— ها هو .

وبدا راوول دابنياك الاستكشاف ، وكان قصر يونرفيل يقع على يمينه ، وتبين على الفور هيئته الضخمة واسطحه المعقدة التى ينعكس عليها ضوء القمر ويجعلها تبدو بلون الفضة . والقى نظرة طويلة عبر المنظار ثم قال يسأل :

— وما الذى يلمع هناك ، على يسار الباب الحديدى ؟

اجاب برونو : انها البئر .. هناك بئر فى ثخانة الجدار ، ولا ريب انك ترى الدلو فوق الحلقة .

— وهل هناك كلاب ؟

— بولدوج واحد يرافق الفتاة دائما .

— ايطلقونه اثناء الليل ؟

— كلا .

— هل انت واثق ؟

— ما كنت الا لأراه . اؤكد لك انه يبيت فى البيت .

ولان صوته بطريقة تكاد لا تلحظ فقال راوول :

— آه .. ارى انك ما زلت خائفا .. ما الذى تخشاه ؟

— لا شيء . غاية ما فى الامر اننى اوثر ان نفرغ الليلة .. عندما يدور بذهنى اننا قد نضطر لاعادة الكرة .

— يا لك من جبان . لو اننى تركتك تفعل فانك لتستولى على اى شيء كيفما اتفق ، ودون ان تفكر فى الاختيار .. تجمع الفضيات والمجوهرات ثم تبادر بالفرار كاى لص عادى . عجبا ! .. ولكن من تظننى ؟ .. اننى من هواة جمع التحف والنفائس .. ومنذ ثلاثة اسابيع وانا ادرس هذه العملية وارسم الخطط واضع النقاط الاخيرة .. بل اننى ذهبت الى وزارة الفنون وتحريت كل شيء . وقد علمت فى الوزارة ان هناك بعض الشبهات حول صحة بعض اللوحات .. فلوحة ناتييه مزيفة ، ولا ريب فى ذلك . والمكتب البديع الممهور

بتوقيع برسييه فونتيه ما هو الا تقليد متقن ، فقد وقع فى يدى تقرير الخبير ، وهو تقرير دقيق مرفق به رسم مفصل لان الدولة اوشكت ان تشترى القصر .. هل تريد ان اخبرك اين توجد فترينة النياشين والميداليات ؟ .. فى آخر المعرض .. ومجموعة الاختام ؟ .. فى وسط القاعة ، امام لوحتى فراجونار ولاتور . هكذا يجب ان يعمل كل من يتذوق الفن ويهوى جمع التحف والنفائس .

وعبر وجه راوول المائل نحو وجه برونو عن جراة هادئة تشوبها السخرية ، واحاط راوول كتفى الشاب بذراعه وقال يخاطبه :

— اعلم يا صفيرى ان ارسين لوبين يختار وينتقى وانه لا يرضى ببضاعة لا تباع كما يفعل اصحاب الملايين الامريكيون .. اننى اتفقد المكان اولا ثم آخذ ما يروق لى فيما بعد .

وكان يبتسم فى هدوء وهو شديد الثقة من نفسه بحيث ان برونو هتف يقول :

— حسنا ... هيا بنا ايها الزعيم .

— ما زال امامنا متسع من الوقت يا صفيرى .. اذا آثرت الحياة الاخرى ، واذا اردت ان تكون الشاب الوسيم الذى يدفع عربة الارملة الثرية ويجمع التبرعات فى قداس الكنيسة سان هوبير فانت وشانك .

— كلا ايها الزعيم .. انما كنت اعنى ...

— عندما تواتى الفرصة شابا مثلك لكى يكون جنتلمانا حقيقيا فله الحق فى ان يتردد .

— أؤكد لك اننى لا اتردد .

وعندئذ تمتم راوول فى قوة مكبوتة غمرت برونو كفيض من السعادة فقال :

— اذا كان الامر كذلك فهلم بنا .

وهبطا درجات السلم مسرعين واجتازا ضربا من الارض نبت فيها نوع من العشب النادر جففته الشمس . وكانت السحب تمر من وقت لآخر وتغطيها بظلالها .

— اظن ان العجوز هو الذى يغلق الباب الحديدى ويضع المزاليج ؟

— اجل .

— واظنه يقوم بعمله هذا بكل دقة ؟

— هو ؟ .. انه لكفيل بأن يغلق الباب مرتين اذا استطاع ، وصدقنى اننى قضيت وقتا طويلا فى مراقبته .

— وهل يفد الى القصر اناس كثيرون ؟

— لا احد فيما عدا بعض الموردين .

— واهل القصر ؟ .. هل يخرجون ؟

— سيد القصر ، نعم . فهو يخرج بانتظام فى سيارته مع سائقه . اما الآخرون فلا يتحركون تقريبا .

تابع الرجلان طريقهما فى صمت . وكان برونو يفحص راوول خلسة . وكان هذا الاخير يرتدى ثياب المدينة ويضع زهرة فى عروة جاكتته ويبدو انه خرج فى التو من احد فنادق حى سان جرمان . وكانت هذه النزهة الليلية برفقة ذلك الشاب المتأنق شيئا غريبا ومذهلا وعجيبا بحيث أن برونو مر بيديه أمام عينيه . كلا . كان المنظر حقيقيا وكان قصر بونرفيل هناك ، امامهما ، وقد تناثرت فوق اسطحة المداخن ودوارات الهواء وواقيات الصواعق . وقال راوول :

— انه يرجع الى عصر النهضة ، وهو قصر جميل ، ولكنى لا احب كثيرا هذا الجناح الذى تدل هيئته على انه بنى فى عصر لويس الثالث عشر .

وتقدما بمحاذاة الجدار الذى يفضى الى الباب الحديدى العمومى واكتشفا البئر ، وهى بئر قديمة نحتت فى ثخانة السور بحيث كان يمكن استخدامها من الخارج ومن الداخل على السواء . وكان هناك سياج حديدى يفصلها الى جزئين ، ولم يتردد راوول ووثب فوق حلقة البئر ولمس قمة السياج باصبعه ، ثم وبخفة عجيبة ارتفع فى صمت واختفى فى الناحية الاخرى ، وصفير خافت نبه برونو ان الطريق خال ، وما هى الا لحظات حتى كان الشاب قد اجتاز العقبة بدوره .

وهمس راوول : الم تجد مشقة ما ؟

ـ كلا ايها الزعيم .

واستطاعا عندئذ ان يتبينا بصورة افضل موضع المبانى ، ففى آخر فناء فسيح يقوم القصر نفسه وعلى جانبيه جناحان يمتدان حتى الباب الحديدى كضلعى مثلث . اما ساحة الشرف ببلاطها الكبير اللامع فكانت اشبه بمستنقع هادىء . وترك راوول كنف الحائط وخرج الى النور فهمس برونو :

ـ سوف يروننا .

ـ وبعد ؟ .. ليس لدينا نوايا سيئة .. اننا قدمنا لمشاهدة مجموعة التحف كما يفعل السياح .

ومضى راوول نحو باب القصر ولكن برونو اسرع يقول : من الاوفق ان ندخل عن طريق المطبخ .

ـ عن طريق المطبخ ؟ .. كالبدال أو صبى الجزار ؟ .. تأدب يابنى ... ارفع راسك يا برونو . لا تنس مركزك ولا مركزى ، فانت مع دابنياك .

وضحك تلك الضحكة الفتية التى طالما اثارت حيرة سامعيه . وفرقع اصابعه فى غير اكتراث وارتقى الدرجات الامامية للقصر . ولمست يداه القفل لحظة عابرة ثم قال :

ـ ليس هناك مانع .

وفى اللحظة التالية كانا فى الردهة ، واعاد راوول طفاشته الى جيبه وهمس قائلا :

ـ امسك بكتفى .

وفى بطء تقدما الواحد بعد الآخر فى الظلام فى وسط صمت مطبق . بل انهما لم يسمعا عمل الديدان الغامض فى خشب الجدران القديم . كان كل شىء فى البيت ينام نوما عميقا ورطبا بعض الشىء . وتوقف راوول ومال فوق اذن برونو وقال :

ـ احترس ... هذا هو السلم .

ووضع قدمه على اول درجة واحس بانها تلين قليلا ، وفجأة ،

ومن مسافة بدت له بعيدا جدا ارتفع رنين جرس راح يدوى فى اصرار . وقال راوول :

ـ اللعنة ! .. جرس انذار !

وراحا يصغيان وقد تجمدا فى مكانهما . واستمر الجرس ، فوق ، يدوى دويه المكتوم ، اشبه برنين جرس منبه صغير .

وتمتم برونو متلعثما : فلننصرف !

ـ اسكت ايها الغبى .

راح ذهن راوول يعمل فى سرعة مدهشة . واخذ يفكر وقد توترت اعصابه وضم قبضته فى حين استمر الجرس فى دويه الصارخ عبر غرف القصر الصامتة .

وعاد برونو يقول : فلننصرف .

قال راوول فى لهجة جافة : اتريد ان تهرب كالارنب ؟

ـ ولكن .. انهم سوف يأتون .

ـ لن يأتوا فورا فهم اكثر منك خوفا وذعرا .. وقبل ان يستقر منهم العزم ...

واضاء راوول مصباحه الكهربى وسلط شعاعه نحو باب الردهة ، وقال :

ـ انتظر على عتبة الباب .. عتبة الباب ، مفهوم ؟ لا احد يستطيع ان يراك من فوق . وعند اول سحابة ، عليك ان تتسلل بطول الحائط حتى البئر حيث تقوم بالمراقبة . واذا رايت اى شىء غير عادى فقلد ما تريد من الاصوات ثم بادر بالفرار .

ـ صوت البومة ؟

ـ اذا شئت . وسالحق بك عند البرج .

ـ وانت ايها الزعيم ؟ .. والكلب ؟

ـ سأتكفل به .. امض واسرع .

وفى بضع خطوات سريعة بلغ برونو آخر الردهة . واطفأ راوول مصباحه . وكان جرس الانذار لا يزال يصلصل فى اصرار وبدون توقف ، ولكن لم يتحرك شىء ولم ينبح الكلب . ولو أن احدا ما سار فى الطابق الاول لطقطقت الارضية الخشبية القديمة دون ريب .

وعلى كل حال لو ان سيد القصر صحا من نومه فجأة لاضاء النور . كان يجب منطقيا ان يحدث شيء ما .. او اى صوت .. وان لايستمر هذا! الصمت المخيف الذى يزيد فى رهبته صليل الجرس المستمر .

ارتقى راوول السلم وهو يتوخى الحذر الشديد . اين الكلب ؟ الن يهجم عليـه فجأة وينشب اظافره فى عنقه ؟ واى فخ منصوب فى غرف الطابق الاول التى يملأها الجرس برنينه المتتابع الذى لا ينقطع ؟ .. وجفف راوول وجهه . كان من الجنون ان يستمر فى صعوده ، ومع ذلك فقد استمر ، محدودب الكتفين شيئا ما متوقعا فى كل لحظة ان يتلقى رصاصة تنفجر فى وجهه . والتقت يداه بباب ثم بآخر . كانت البسطة كبيرة ممتدة والاستكشاف الاعمى لا ينتهى .

وتمتم راوول يحدث نفسـه : هيا يا ماركيز ، واجه العدو والابتسامة على شفتيك .

واضاء مصباحه الكهربى الاصم من جديد ، وردد نوره فى كل الارجاء . كانت البسطة مقفرة . وشيئا فشيئا استولى عليه غضب بارد . كان الجرس لا يزال يرن فى راسه وفى اعصابه . وسار وهو يضرب الارض بكعبيه نحو باب الفرفة التى ينبعث منها رنين الجرس وفتحه وكشف نور المصباح فراشا ضخما وامتد حتى الوسادة وتوقف على وجه جامد شاحب . وتمتم راوول :

ــ يا للشيطان ! .. ان العميل ليس وسيما .

كان الرجل اصلع ، له حاجبان كثيفان شقراوان يكادان يخفيـان عينيه المطبقتين ويكسبانه سمة غريبة قاسية . وتقدم راوول منه وقال :

ــ هل تسمح ايها الامير ؟

ورفع الفطاء ، كاشفا عن صدر شعر ، وفجأة انفجر ضاحكا حتى كاد أن يختنق ، وتحرر من توتر اعصابه مرة واحدة وتمتم يقول وهو يضغط على مفتاح الاباجورة التى بجوار الفراش :

ــ التمس معذرتك ، واسمح لى ان اقدم نفسى : راوول دابنياك، من نبلاء جسكونيا ... الا تعرفه ؟ .. وارسين لوبين ، هل تعرفه ؟ .. جرس الانذار هذا مزعج ، اليس كذلك ؟ .. لعلنـــا نستطيع

اسكاته .. كلا ، كلا . لا تزعج نفسك ايها الصديق العزيز .. ان اجراس الانذار ليست بغريبة على .. ارايت ؟ .. هذا افضل . اذن فانت ترفض ان تستيقظ لكى لا تضايق هذا العزيز لوبين .

واذ توقف رنين الجرس دوى صوته هو فى ارجاء الفرفة بطريقة غريبة . واسرع فخافت من صوته وهو يقول :

ــ ولكن اذا كنا لا نصحو فلماذا هذا الجرس ؟ .. هذا امر لا يقره المنطق .

ورفع جفن النائم باصبعه ثم قال :

ــ مخدر .. فهمت الآن . انت اذن تعانى من اشجان خاصة وتريد أن تنسى كل شيء .

كان يهزل ولكن عينيه كانتا تتفحصان الفرفة وتلاحظان كل نقطة : جلود الدب المفروشة على الارض وقطع الاثاث الثمينة ومقياس الوقت المصنوع من الذهب الخالص فوق الطاولة ، وبجواره محفظة ضخمة من الجلد الروسى . وفتح المحفظة ثم قال :

ــ كلا .. كلا .. لن استغل ضيافتك لى . ثم ان النقود لم تعد تهمنى .

ووجد بطاقات زيارة ورسائل واوراق باسم هوبير فيرانج . وقال وهو ينظر الى الرجل الضخم ذى الحاجبين الشرسين :

ــ هذا جميل يا هوبير .. ان آل هوبير هم فى العادة قوم سلسوا القيادة معتدلوا المزاج .

واعاد المحفظة مكانها وفتح درج الطاولة واستطرد يقول وهو يخرج مسدسا ضخما من طراز سميث وويسون له ماسورة قصيرة :

ــ وهم يرحبون بالضيوف ومرحون . ولكنهم متكتمون فى بعض الاحيان ، ومن الاوفق أن تصادقهم بدلا من ان تعاديهم .... ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه اللعبة بحق الشيطان يا صاحبى العزيز ؟ ان ان موسم الصيد قد انتهى ، وغليوم (١) لم يعلن علينا الحرب بعد .

---

(١) غليوم الثانى .. تدور احداث هذه الرواية فى يونية سنة ١٩١٤ كما سوف يتبين القارىء .

وأعاد المسدس فى الدرج وتحـول الى الباب المفتوح واصغى لحظة .

ـ الم تسمع شيئا يا هوبير ؟ .. خيل لى ...

واطفأ الاباجورة .. اكان برونو هو الذى اطلق هذه الصرخة ؟

وداخله احساس شرس قاس ساطع بانه ليس وحده فى القصر وان زائرا آخر يتنقل فى مكان ما فى ظلمات الطرقات والغرف .. شخص حرص قبل ان يستكشف القصر على ان يخدر الجميع ، ابتداء من سيد القصر حتى الخدم . وهمس يقول محدثا نفسه :

ـ لا تتحرك .

واسرع الى البسطة وهو صامت كالشبح ، وانحنى فوق الدرابزون الحجرى ، ولكنه لم يسمع غير الدم الذى يدوى فى عروقه . واضاء مصباحه الكهربى من جديد وفتح باب غرفة اخرى وما كان يفعل حتى ارتد الى الوراء على الفور .. الكلب ! .. البولدوج ! ..

ولكن الحيوان كان ممددا على صدره وخطمه بين قائمتيه ، ولم يبد اية حركة . وانحنى راوول وحك راسه ، بين الاذنين .

ـ كلب ذكى .. لقد عرف السيد ..

كانت الحدقة ثابتة ومتسعة تحت الجفن المحتقن شيئا ما .. غلب المخدر الكلب وبقى فى وضع المترصد ، كاشفا عن اسنانه . واعتدل راوول وسلط اشعة مصباحه على الجدران والسجادة والطـاولة والفراش ، وللمرة الثانية وقف مشدوها ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كأنه لا يصدق ما يراه . وتقدم ثلاث خطـوات ثم توقف مفتونا ، فان شعاع المصباح المائل الى الزرقة اضاء وجها جميلا يجثم فى جوف عش من الشعر الاشقر .. ما عمرها ؟ .. سبعة عشر عاما ، استنادا الى قول برونو ؟ .. ولكن من يراها لا يعطيها اكثر من خمسة عشر عاما على الاكثر . الاهداب السمراء مسـدلة بطريقة ساحرة وخيل لراوول انها سترتفع فجأة وان عينين واسعتين بنفسجيتين ستتفتحان تنظران اليه فى مودة ورفق . ذراع من ذراعيها البيضاوين افلت وتدلى بطول الغطـاء . وبقى راوول منحنيا فوق الفراش ، مسحورا ومفتونا . وتمتم يقول اخيرا :

ـ ماذا دهاك يا لوبين .. افى سنك هذا ؟

كان يحاول ان يمزح . بيد ان صوته كان يرتجف لفرط ما يعانيه من انفعال . هل يمكن بعد كل تلك المغامرات وكل تلك اللقاءات ؟ ..

ـ ما هذا يا لوبين ؟ .. انت ترى تماما انها فتاة صغيرة .

وانبعث من الوسادة عطر جميل . لم يتأمل راوول ابدا مثل هذا الجمال ومثل هذا الشباب الساحر الغض . ومد يده فى حياء وهو يقول :

ـ ايتها الفتاة المجهولة .. انت جميلة .. لكم اود فى هـذه اللحظة ان اطوف فى احلامك .

واردف يقول على الفور : انك لخبيث يا ماركيز .. ايمكنك ان تتصابى بشعرك الذى وخطه المشيب والغضون التى بدأت تظهر فى ركنى عينيك ؟ ..

واستولى عليه الاضطراب ولم يستطع ان يحول بصره عن الوجه النضر . ولم يتمالك نفسه اخيرا فانحنى قائلا :

ـ على ركبتيك يا لوبين ، امام البراءة والفضيلة .. الحسـناء والوحش .

واخذ يد الفتاة ورفعها الى شفتيه ثم اطفأ مصباحه وارتد فى هدوء وخرج من الفرفة .

ـ لو التقى بالوحش الذى سمح لنفسه ...

لانه لم يكن هناك اى مجال للشك ، فهناك رجل آخر فى القصر .. رجل يهوى جمع التحف هو ايضا . ولكن كيف تمكن من خداع يقظة برونو ؟ .. آه ، البئر طبعا ! ان فى مقدور اى شخص ان يلقى اثناء مروره مخدرا فى الدلو .. ولا ريب ان اللص فى المعرض الآن يختار وينتقى فى هدوء .

اجتاز راوول الطرقة التى تمتد حتى البسطة وتؤدى الى الجناح الايمن ، وكان الضوء الباهت الذى يتسرب من خلال النوافذ المرتفعة يكفى لكى يوجه خطواته . من اين دخل الرجل الغريب ؟ لا ريب

عن طريق قبو او عن طريق المطبخ وسلم آخر ما دام جرس الانذار لم يرسل صليله ، ولا ريب انه يعرف كل مسالك القصر .

وكان المعرض يقع بعد الطرقة مباشرة ، واضاء راوول الباب ذا المصراعين وادار الاكرة فجأة ، واصدر الباب صريرا بغيضا . ودار نور المصباح فى ارجاء المعرض ، لكن لم يكن هناك احد .

طاف راوول بالقاعة الفسيحة ، ونسى على الفور قلقه واضطرابه ، فقد كان المعرض حافلا بالروائع والنفائس . وتمتم يقول :

ـ ولكن لابد من ساعات لتقييم كل هذا .. فهذه اللوحة لمانتينا ، وهذه للارجيلير .. ولكن هذه اللوحة التى تمثل القديس جان بابتيست والمهورة . بتوقيع دى فنسى تبدو لى مزيفة .. وانى لأفهم الآن شكوك وزارة الفنون .

وسلط ضوء مصباحه على منضدة صغيرة وانعكس الضوء على تحف ثمينة :

ـ آه .. ها هى حقة القربان المشهورة .. وصندوق المخلفات الذى يرجع عهده الى القرن الخامس عشر .

وفاض به احساسه بعظمته ، فقد دبر كل شىء وهو فى مسكنه بباريس ، دون ان يرى شيئا ، وانما مكتفيا بمعاينة الكتالوجات والبطاقات ، بيد انه اصبح الآن سيد هذه النفائس . مجرد حركة واحدة منه وتنتقل الى مصائر جديدة جديرة بها .

واجفل فجأة .. لا يمكن ان يكون هناك اى خطأ هذه المرة .. كانت صرخة البومة حقا . وأرهف اذنيه وسمع للمرة الثانية الصرخة فى وضوح . لا ريب ان برونو ، وهو فى مكمنه ، قد راى الزائر الخفى .

الصق راوول وجهه بأقرب نافذة ، واجفل وهو يرى المنظر المذهل الذى يطالعه من خلال الشرائح الخشبية لمصراعى النافذة . راى ثلاثة اشباح تجتاز الفناء فى طريقها الى الباب الحديدى ، وكان يبدو انهم قادمون من الجناح الايسر للقصر ويتحركون بسرعة . وكان احدهم يمشى فى المقدمة ، اما الآخران فكانا يحملا حملا ثقيلا له هيئة رجل ملفوف فى غطاء . واحس راوول بالعرق يتصبب من كل كيانه

.. اللعنة .. اللعنة ! .. بينما كان واقفا يتامل مجموعة النفائس كان الاخرون يختطفون ...

واسرع الى الطرقة ودفع باب غرفة هوبير فيرانج . كان سيد القصر يرقد فى هدوء . الفتاة اذن ؟ .. كلا . كانت راقدة هى الاخرى وذراعها لا يزال على حالته .. من اذن ؟ .. خادم ؟

وهبط السلم مسرعا واجتاز الردهة . كان الرجال الثلاثة يتسللون محتمين بظل الجدار بجوار الباب الحديدى . واغلق راوول الباب خلفه .. ومرت سحابة لفت الفناء بظلمة مواتية ، فاندفع يجرى .

اما الرجال الثلاثة فبدلا من ان يخرجوا الى الطريق راحوا يسيرون بمحاذاة الباب الحديدى ، وتجاوزوا الجناح الايمن ودلفوا الى البستان ، وغابوا عن بصر راوول بعد ذلك مباشرة ، ولكن كان من السهل عليه الاهتداء الى مكانهم من وقع خطواتهم . وتجاوز زاوية القصر بدوره وتوجه نحو الاجراس والاشجار . وراى المجهولين الغامضين وهم يغادرون القصر من باب صغير . واجتاز خلفهم دربا وتغلغل فى دغل صغير يمتد حتى نهر السين . ولم تكن هناك طرقات ممهدة فى تلك الناحية .. لم يكن هناك غير النهر .

ـ عسى الا يهربوا فى قارب .

ازدادت الارض انحدارا ، وفجأة انتهى الوغل ، وبدأت بعدها بقعة منحدرة من المستحيل عبورها دون ان ينكشف امره .

وفكر راوول : انهم سيعبرون البحر .

وسمع صوت ارتطام مجداف بأرضية قارب ثم صرير سلسلة ، وراى على سطح الماء البراق تموجات دوامة ، ولم يلبث القارب ان ابتعد عن الشاطىء . ورأى رجلا يجدف بمحاذاة الشاطىء ، ضخم الجسم ، له رأس مربعة متداخلة بين كتفيه وآخر جالسا فى المقدمة ، وكان قصيرا ومشوها ، أما الثالث فكان منحنيا فى آخر القارب .

تنهد راوول فى ارتياح ، فان القارب لم يدخل عرض البحر وانما كان يتقدم بطول الساحل . وما كانت رؤيته لتثير دهشة احد فى تلك الساعة فان الصيادين الشرفاء يخرجون فى وقت مبكر فى شهر يونية ويمضون لاماكنهم المفضلة قبل الفجر .

وتقدم راوول فى طريق ضيق يتعرج خلال صخور الشاطىء. وكان القارب يختفى من وقت لآخر خلف باقة من الخضرة أو مرتفع من الارض ، ولكنه كان لا يلبث ان يظهر من جديد ، كتلة داكنة تظهر فى وضوح فوق حصيرة النهر الفضية . وكان الطريق يزداد ارتفاعا ما بين لحظة واخرى ، وكانت المسافة تزداد بين راوول والقارب .. وقال :

ـ لعلى اخطأت .. ربما كان يجب أن اتدخل دون انتظار .

وهناك ، كان القارب يقترب من ثلاث شجرات من اشجار الصفصاف الضخمة ، اختفى خلفها شيئا فشيئا . وجرى راوول ثم وقف .

ـ آه .. ولكن ماذا يفعلون ؟ ..

ذلك ان القارب اختفى نهائيا ولم يظهر .

وتقدم بضع خطوات وهو بادى الحيرة ثم توقف من جديد . وفجأة كتم سبة ، فقد برز القارب من خلف الاشجار فى بطء . ولكنه كان شاغرا .. شاغرا تماما ، ولم يلبث ان توقف وقد شده حبل المرساة .

والرجال ؟ .. اين ذهبوا ؟ لم يكن فى مقدورهم الهبوط لان الشاطىء كان عبارة عن صخور ملساء ، وجذور الاشجار نفسها تكمن فى قلب التل الذى يهيمن على السين من عل . وترك راوول الدرب وتقدم حتى الهضبة التى تنحدر فيها الارض حتى النهر . ومن مكانه تبين فى وضوح من خلال الاغصان بريق الماء الشاحب ، وتمتم يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ .. انه لاشبه بعمل من أعمال الشيطان !

وحتى على افتراض ان اصحابنا الثلاثة الغامضين افلحوا فى الهبوط الى الارض فأين ذهبوا بعد ذلك ؟ ان الجرف المنحدر يمتد نحو مائة متر ، وهو عار وأملس كاليد يكاد يلمع تحت نور القمر . ولكن ماذا حدث للجسد ؟ .. لو انهم القوه فى النهر فما كان راوول الا ليسمع صوت ارتطامه بالماء . اذن ؟ .. لا يمكن ان يكون الرجال الثلاثة وضحيتهم الا تحت الاشجار الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان راوول واثقا ان اغصانها لا تخفى احدا . وسار فى بطء بجوار الهضبة مترددا لا يدرى ماذا يفعل ،فانه اذا حاول ان يهبط حتى النهر فانه

يغامر بان يعرض نفسه لهدف اكيد ، ثم ، ما الجدوى فى ان يتأمل عن كثب هذا القارب الفارغ .

وجلس على صخرة كبيرة ملساء ، على حافة الهضبة . لم يكن القارب ليبعد باكثر من خمسون مترا ، وكان يرى فى وضوح انعكاس سلسلته وبركة صغيرة من الماء بين الالواح .

وتجمد دمه فجأة ، فقد ارتفع انين بجواره .. صرخة مكتومة .. فادار راسه ولكنه لم ير احدا . كانت الهضبة خاوية ، على بعد امتداد البصر ... لعلها الرياح ؟ .. كلا . لم تكن هناك نسمة واحدة .

ـ ماذا دهاك يا ماركيز ؟ .. انك اصبحت تتخيل اشياء .

ولكن الصرخة عادت من جديد ، وكانت هذه المرة طويلة تدل على ان صاحبها يتألم كل الالم وحافلة بالقلق ،ووثب راوول على قدميه .. هل هذا ممكن ؟ لم يكن بالهضبة احد على امتداد البصر . لم تصدر الصرخة من الاشجار ، بل كانت اقرب بكثير . بدا انها تصدر من جوف الارض .. صرخة رجل يتعذب ، تبعتها تمتمة اصوات . وكان الانطباع قويا بحيث ان راوول دار حول نفسه مرة واحدة ، واحس بخوف مستتر لم يستطع التغلب عليه . وثارت أعصابه . كان قد واجه خلال حياته الحافلة بالمغامرات اخطارا جمة ، ولكن لعله لم يجد نفسه ابدا فى مثل هذا الموقف الشديد الغرابة .

وسمع صاحب الصوت يقول متضرعا : كفى .. كفى .. النجدة .

كان الصوت يبدو بعيدا ، فى جوف مسافة بعيدة عن الواقع ، كصوت فى آخر خط تليفونى ويبدو قريبا فى نفس الوقت . كان يتولد فى الهواء بطريقة غامضة .

وصاح الصوت : النجدة .. كفى .. كفى .

امتقع لون راوول وضم قبضتيه ودار حول نفسه والعرق يتصبب من جبينه ، وارتفعت من جوف الارض حشرجة رهيبة اعقبها على الفور صوت خشن قاس يقول :

ـ تكلم .. عجل والا ..

وعندئذ ومض الضوء فى ذهن راوول وقال : آه .. كيف لم افطن الى هذا ؟

وانحنى فوق المنحدر وراح يمشى على اربع تقريبا ، وبدا يهبط فى بطء ؟

ـ هل حزمت امرك ؟ .. الا تريد ان تتكلم ؟

ـ كلا .

ـ هيا يا جريجوار .

صرخة حيوان خرجت من مجموعة من الصخور المنخفضة ، وقال راوول :

ـ حسن ... ها نحن قد وصلنا .

وابعد بعض الاشواك بقدمه وجلس القرفصاء . كانت هناك فتحة اضاءها بمصباحه الكهربى .. طبعا . آه .. هذا هو الامر اذن .. بئر التهوية .. لا ريب ان هناك محجرا .

صاح الصوت متوسلا : النجدة .

ـ يمكنك ان تصرخ كما تشاء .. كلا . لا تريد ان تتكلم ؟ .. استمر يا جريجوار .

التصق راوول بالصخور ولم يعد يفقد كلمة واحدة من الاستجواب الرهيب الذى يدور تحته . وراحت الاحداث تتكون فى ذهنه فى منطق ودقة اثارا جزعه وملآه رعبا : اهل البيت مخدرون ... والعدو الخفى ينجز خطة موضوعة بكل عناية فاختطف الخادم .. وبلغ القارب مدخل سرداب مهجور .. الآن العذاب ، وغدا جثة تتعفن وتتكفل بها الجرذان .

وتأوه الصوت من جديد : كفى .. كفى .. سأتكلم .

ادخل راوول رأسه فى الفتحة والتصق بالتل ، وراح يتنفس هواء يشوبه العفن ، ولــكن كانت هنــاك رائحة اخرى لم يلبث ان عرفها وهو يقشعر ... رائحة لحم يحترق .

ـ عجل والا انتهى امرك .

ـ جرعة من الماء .

ـ انى احذرك .. سوف نبدا من جديد .. هيا يا جريجوار .

ومن جديد الصرخة المدوية المريعة . وراح راوول يسب ويلعن وانغرزت اظافره فى كفيه . وساد صمت ، تحت ، ثم عاد الصوت الخشن يقول :

ـ اظن انه اغمى عليه .. جريجوار .. الزمزمية .

ارتد راوول الى الخلف . لم يفت الاوان بعد ، فبقليل من الحظ واستنادا الى عنصر المفاجأة .. رجل ضد ثلاثة .. كان ذلك يكاد يكون امرا يسيرا .. وراح يثب فوق المنحدر ، ولم يكن دافعه الى ذلك انتزاع السجين من عذابه فحسب ولكنه ادرك ان قصر بونرفيل لا شك يضم سرا غير تحفه ونفائسه .. سرا عظيما .. وقد صمم ان يعرف هذا السر .. وراح يجرى الآن فوق ارض صخرية تشرف على نهر السين ويكرر فى صوت خافت كما لو ان لارادته ما يكفى من القوة لكى يشق طريقه فى جوف الارض حتى يصل الى مخ المحتضر : قاوم يا صديقى .. قاوم خمس دقائق فحسب وسوف انقذك .. تجلد فانا لوبين .. قادم اليك .

كانت الاشجار الثلاثة الآن تحت قدميه تقريبا فتعلق بحـافة الجرف واحس بساقيه تلمسان أعلى الاغصان وفتح أصابعه وهوى خلال الاوراق ثم ارتفع على قدميه وتعلق لحظة وجيزة ابصر فيها جرفا ضيقا موصلا وسلسلة القارب ، وعاد فهوى من جديد وفى رفق فوق ارض لينة . ولم يشعر بأية دهشة وهو يرى فتحة سرداب يمتد داخل الصخور . وعلى ضوء مصباحه راى قضبانا صدئه لعربة صغيرة من تلك العربات التى تستخدم فى المناجم ، ولا ريب ان الزوارق كانت ترسو فى هذه الناحية فيما سبق وتوسق حمولتها مباشرة . ولم يكن امامه الآن الا ان يستكشف المكان .

كانت اول مبادىء الحرص تنصحه بالا يســـتخدم مصباحه الكهربى فراح يتعثر فوق القضبان ،تلح عليه نفس الفكرة وتؤرقه « عساه الا يتكلم » . وتوقف لــكى يصغى . لا شىء غير صــمت بغيض لا يطاق .. وخطر له عندئذ ان الاصوات فى جوف الارض تنتشر بطريقة غريبة . ولعله لا يزال بعيدا عن الاشقياء الثلاثة . مهما يكن فقد قضى الامر وسيصل بعد فــوات الاوان . وتعثر

فى عمود معدنى واوشك ان يقع فأضاء مصباحه لمجرد لحظة خاطفة .. يا للكارثة .. يا للكارثة ! .. كان امامه طريق متفرع ، وكان من المستحيل أن يعرف . وانعطف الى اليمين ، وعلى الفور ، وفى جوف الليل ظهر ضوء صغير احمر اخذ يكبر . وتقدم راوول فى بطء اكثر وضمن تفريعة ثانية . ولم يلبث ان انضم الطريق الايسر بعد دورة الى الطريق الذى سبق أن اتخذه . واخترقت القضبان قاعة كبيرة دائرية تشع منها انعكاسات صادرة من كومة من الحجر تنير ارجاءها فى غموض . اختفى الجلادون ، ولا ريب انهم غادروا السرداب عبر الطريق الايسر ، ومروا براوول على غير علم منهم ، ولكنهم لم يحملوا ضحيتهم معهم . كان الرجل راقدا بجوار النار وقدماه العاريتان نحو الجمر . وسلط راوول نور مصباحه عليه . كان رجلا مسنا ، ابيض اللحية ، خشنا ، قوى الجسم ، له وجه نبيل وكان لا يزال يتقلص من جراء التعذيب . ورفعه راوول وابعده عن النار .

— انت لم تمت يا صاحبى ؟ .. لن تموت الآن بعد ان لقيت من اجلك كل هذه المشقة .. سوف تعود الى الحياة برفق وتتحدث معى .

والقى وهو يتكلم باشعة مصباحه على قدمى الرجل المسكين ، وارتسمت على وجهه تكشيرة ، ولمس باصبعه اللحم المتورم وقال :

— آه ، ليس الامر بالسوء كما ظننت .

وتلوى الرجل وسرت قشعريرة فى بدنه وتأوه قائلا :

— الرحمة ... اننى قلت كل شىء .

وراح ينطق بكلمات غير مفهومة ، واضطر راوول ان يجثوا بجواره وان يدنى اذنه من الشفتين الشاحبتين وقال :

— تكلم ماذا تقول ؟ .. القديس جان ؟ .. ماذا فعل هذا القديس ؟ .. ايه .. القديس جان يخلف يعقوب ؟ .. حسن .. هذا واضح تماما .. وبعد ؟ .. دارتنيان ؟ .. نعم ، اننى اسمع جيدا .. دارتنيان .. هدئى من روعك يا جدى .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. اهذا ما تريد أن تقول ؟ .. انتظر ..

ساكرر .. القديس جان يخلف يعقوب .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف ... هذا له معناه طبعا . هل انت متأكد انه ليس هناك اى شىء آخر ؟ .. شىء آخر يلقى قليلا من الضوء على كل شىء .

وامسك الشيخ من كتفيه وعيناه تلمعان بالانفعال وهزه فى رفق وقال :

— جهد آخر يا جدى .. افرغ ما فى جعبتك فتنجو من الموت .

رفع الشيخ نفسه فى جهد اخير وتوترت شفتاه وصاح راوول ؟ .. ماذا ؟ .. الدم .. هل قلت الدم ؟

خفض الشيخ حاجبيه وعاد فهوى على الارض ، وتشبث راوول به وقد امتقع وجهه لفرط ما يشعر به من غضب مكبوت ، وقال :

— تكلم .. عجل وتكلم .. ولتمت بعد ذلك . دم من ؟ .. هيا يا صاحبى ، تشبث بالحياة .. ما هذا الدم الذى تتكلم عنه ؟

ولكن الشيخ كف عن الحركة .. لن يبوح بالكلمة .. تلك الكلمة التى لا ريب انها مفتاح كل الباقى .. فقد رشده ووجه الناصع البياض كالشمع اصبح بشعا وبغيضا . وزمجر راوول :

— يا للمسكين .. ومع ذلك فقد بدا يتكلم .. لو انه لم يفقد الرشد لاعترف بكل شىء فى ثلاث ثوان .

وجفف جبين الرجل المجهول وكان يتفصد بالعرق .

ووقف بجوار الحجر الذى يتصاعد منه الدخان فى آخر السرداب المظلم على اتم راحته كما لو كان فى النادى الذى يختلف اليه عادة وراح يفحص الموقف بتلك الجراة العجيبة وبتلك الدقة المدهشة التى تتيح له السيطرة على اشد المواقف صعوبة . وابتسم فجاة كالطفل وقال :

— حسنا يا جدى . سوف تنصرف الآن . سأحملك معى الى عيادتى .. واعدك انك سوف تعدو كالارنب قبل خمسة عشر يوما .

ورفع الشيخ فوق ظهره وتمتم يقول : انت ثقيل يا جدى .. ثقيل جدا .

وعاد من حيث أتى وهو يرزح تحت الحمل الثقيل الذى يحمله . ووقف لحظة عند مدخل السرداب ليسترد نفسه . لم يكن القارب

مكانه تحت الاشجار ولا ريب ان الرجال الثلاثة حسبوا ان ضحيتهم ماتت .. وزمجر راوول وجمع قواه وعاد فحمل حمله من جديد .

ـ ما زال حيا .. انه مبنى بالجير والرمل .. يا له من جيل .

واخذ يمشى من جديد ، وبدأ النهار يطلع . ولكن الريف كان لا يزال مقفرا ولا ريب ان برونو فوق البرج يفحص بمنظاره كل ثنايا الطريق ، وسوف يسارع الى النجدة بمجرد أن يراهما . وبدات ساقا راوول تترنحان لفرط التعب وفكر :

ـ اننى اخطىء اذ ارهق نفسى هكذا ، فاننى لم اعد فى العشرين كما كنت .

وكانت المسافة بين المحجر والسيارة اكثر من كيلو مترين ، وقطع راوول ساعة فى عبورها ؛ ولحسن الحظ كان برونو .. برونو الامين المخلص هناك . وترك راوول يتهاوى فوق العشب فى حين بادره برونو يقول :

ـ لقد استبد بى القلق ورحت اتساءل ...

ـ حسنا .. اهتم به .. هل تعرفه ؟

قال برونو مضطربا : انه الشيخ الذى فى القصر ... اعنى الحارس .

ـ قل لى اظنك درست الطب قبل أن يسوء بك الحال ؟

ـ نعم ، ولكننى فشلت .. بل ان فشلى هذا كان السبب فى ..

ـ اعرف .. احمل الشيخ الى العربة .

ـ هل ستمضى به الى المستشفى ؟

ـ ماذا تقول ؟ .. اننى سأحتفظ به . ان الرجل ثمين جدا ... هل رأيت قدميه . اتظن انهم يختطفون رجلا ويعذبونه هكذا لاسباب تافهة .

ـ وماذا ستفعل به ؟

ـ انا ؟ .. لا شىء .. انت الذى ستفعل منه شيئا . ستعنى به وتشفيه فى اسرع وقت .. وسوف نرى بعد ذلك . مفهوم يا دكتور ؟

ـ ولكن ، اين تريد ان ...

ـ لا تشغل بالك بهذا ، فان لى علاقاتى فى الحى ... ثم انك تثير ضجرى بأسئلتك هذه ... هل فهمت ؟ الى الامام اذن .

ونهض ، نشيطا ، مستجما ، يزخر بالقوة والحياة ، وبوثبة واحدة اخذ مكانه امام عجلة القيادة وهو يقول :

ـ اجلس فى المؤخرة واحرص على صاحبنا جيدا فاننى على عجل من امرى .

وبعد لحظات كانا يخترقان هونفلير ، وكانت لا تزال هاجعة . وكان راوول يدندن ويدق بأصابعه على عجلة القيادة منغما لحنا ... القديس جان .. يعقوب .. دارتنيان .. القديس جان .

وانعطفت السيارة فى طريق تروفيل وهى تنتزع الحصى لفرط سرعتها .. القديس جان .. يعقوب .. القديس جان الذى يخلف يعقوب .. ودارتنيان الذى يفوز .. وفكر « لعمرى ان هذا العجوز ان هو الا نوسترادا موسى .. من اذن ذلك المغفل الذى قال ان الحياة لا تساوى ان يعيشها المرء .. ولكن الدم ... الدم .. يا الهى ! .. دم من ؟ » وكانت السياج التى تحف بجانبى الطريق تبدو كأنها تبتعد فجأة اثناء مرور السيارة بينها ثم تعود فتضيق من جديد « سوف يتكلم .. لابد ان يتكلم .. سيخبرنى انا .. وعندما اعرف السر ... »

وتوقف راوول امام بيت صغير فى قلب الريف ، وكان هناك سور ابيض امام حديقة جميلة . كانت نوافذ البيت مغلقة ، فهبط ودفع باب السور وطرق الباب .. مرة . ثم مرتين .. وبدا الانفعال يتملكه .

ـ حسنا .. الا تفتحين ؟

وانفتحت نافذة فى الطابق الاول وارتفع صوت نسائى مهزوز يقول :

ـ من هناك ؟

ـ انا البابا .

ـ يا الهى ! .. اهذا انت ؟ .. انت يا صغيرى !

وما هى الا لحظة حتى فتحت المرأة الباب . وقال راوول :

— هذا انا يافيكتوار .. اتيت لاحييك وانا فى طريقى .

نظرت فيكتوار اليه وجلة . واشار راوول الى برونو فتقدم هذا الاخير وهو يحمل الشيخ الذى كان لا يزال سادرا فى اغمائه وقال راوول :

— اتيتك بضيف .

احتجت فيكتوار قائلة : آه ، كلا .. كلا .. لا اريد . كفانى ما لقيت من الاعيبك ودسائسك . انتهى كل ذلك . هل تسمع ؟ لقد تقدم العمر الآن .

— تقدم بك العمر ؟ .. انت ؟ .. هراء . ان من يراك لا يعطيك اكثر من سبعين سنة . لن ترفضى اسداء خدمة صغيرة لى يا عزيزتى فيكتوار .. للمرة الاخيرة .

ودفع برونو الى الردهة ثم تقدمه الى غرفة صغيرة تؤدى الى الحقول من الناحية الاخرى للبيت .

— قضبان بالنوافذ وقفل بالباب .. حسن . لا يدرى المرء ما قد يحدث . ضعه فوق الفراش . ستبقى هنا يا برونو وستعنى به . وستمضى فيكتوار الى البلدة لشراء الادوية . انتما مسئولان عنه امامى ، ولا كلمة واحدة لاى كائن كان والا انتزعت لسانكما . هناك غرفة اخــــرى فى الطابق الاول ، اذا كانت ذاكرتى لا تخوننى . ستمضى فيكتوار بك اليها ، فانت بحاجة الى النوم .

قالت فيكتوار : ولكنك مرهق انت ايضا يا صغيرى . ان سحنتك تثير الخوف .. يجب ان تنام انت ايضا .

امسك راوول مقعدا وجلس مفرشحا بجوار الباب وقال :

— انام .. هل تمزحين ؟ الا تفهمين يا عزيزتى ؟ .. سر يونرفيل !

— ٢ —

صفحة من التاريخ

رغم علاقاتى الطيبة الودية مع أرسين لوبين والثقة الكبيرة التى اولانى بها فى شتى المناسبات ، فلا تزال فى حياته بعض الاسرار التى لم افلح بعد فى ان أجلو غوامضها ، وعلى الخصوص قدرته العجيبة ليس فى التنكر فحسب وانما فى تقمص اية شخصية الى حد انه لا يمكن ان يخطر لاى احد انه هو لوبين نفسه . فهل تراه عمل ، كما يزعم ، مع فريجولى أم انه تلقى دروسه ، كما يؤكد ، فى الكونسرفاتوار ، وهل صحيح ان ميليس لقنه اسرار السحرة والحواة ؟ .. عندما ألقى على مغامرنا القومى أسئلة محددة فى هذا الصدد يكتفى بأن يبتسم أو بأن يرد كما فعل ذات يوم مع القاضى فورميرى اذ قال : اننى اشخاص كثيرون يا سيدى القاضى ، ولست على علم كاف بسيرة أشخاصى العديدين .

ولكن الشىء المؤكد هو ان ارنستين ، خادمة الاستاذ فرينيزو ، موثق العقود بمدينة هونفلير ، ادخلت فى ذلك الصباح فى غرفة الصالون رجلا قصير القامة يرتدى ثيابا بالية ، حلو الشمائل ، طلب منها ان تنبىء سيدها بأن الكونت هونوريه دى بريساك يريد أن يقابله ، وقرصها فى خدها فى رفق بحيث كان من المستحيل أن تغضب . واحس الاستاذ فرينيزو بدوره من نحــو الـكونت دى بريساك ، حالما رآه ، بميل كبير ، ميل تحول الى ود اكبر عندما عرف أن زائره يشاركه حبه الشديد للتاريخ .

بدا الكونت يقول بعد ان اخذ مجلسه فى افضل مقاعد المكتب :

— علمت من ابن عم لى ان قصر يونرفيل معروض للبيع ولا اخفى عليك انه يسعدنى ان اشتريه .

وضحك ضحكة قصيرة ظريفة كما لو انه اول من يسخر من نزواته واستطرد :

ـ وليس ذلك لبنائه المدهش او لمعرضه الرائع فحسب وانما ، واقول على الخصوص ، لاسباب عاطفية بحتة .. آه ، نعم . اننى رجل محافظ واعرف ان كثيرا من الذكريات ، واغلبها ذكريات مجيدة ، ترتبط باسم يونرفيل .

اسرع موثق العقود يقول وقد اسعده ان يجد مستمعا يستطيع امامه ان يرضى العنان لهوسه البرىء دون ان يتعرض لان يقاطعه ويقول فى فتور « وبهذه المناسبة ارجوك أن ... » .

ـ وهى ذكريات بعضها غير بعيد جدا عنا .. هل تعلم ان ملكنا المسكين لويس فيليب اقام بضـــعة ايام فى القصر عند هربه الى انجلترا فى ذلك الشتاء المحزن من عام ١٨٤٨ ؟

قال الكونت : اظن اننى قرات فى الواقع شيئا فى هذا الصدد ، ولكن هناك قصصا متناقضة تدور حول هذا الحادث المؤسف ... والحق يا استاذ انك انما تؤجج رغبتى فى الحصول ...

ـ ولكن معـلوماتك خاطئة ، فان قصر يونرفيل ليس معـروضا للبيع .

ـ حقـــا ؟ هذا خبر سيىء فى الواقع ... ويؤسفنى سماعه بالتأكيد .

ـ وانا حزين جدا من اجلك ، فانا الذى قمت باجراءات البيع منذ ثلاث سنوات . وقد كان عميلى مهندسا يدعى جاك فيرانج .. رجل شهم وذكى جـدا ونشيط جدا .. بل اقول انه كان جم النشاط . الم يعقد العزم على ادخال تجديدات فى ارجاء القصر ؟

رفع الكونت ذراعيه كمن أضناه الامر ، وعقب المحامى يقول :

ـ نعم . ان رأيى كرايك تماما فى هذا الصدد يا سيدى الكونت ، فان الجيل الجديد لا يهتم فى بعض الحالات بالحفاظ على الآثار ولا يحجم عن تدميرها . وقد بدا جاك فيرانج بادخال الكهرباء .. وهذا

امر طبيعى فيجب ان يساير الانسان وقته . ولكنه اراد هدم الجناح الايمن وتوسيع فناء الشرف وادخال الماء كمـا لو ان البئر لم يكن فيهـا الكفاية . واراد ايضا استبدال الاسطبلات بجاراج ... وفى هذه النقطة بالذات لم اكن لاوافقه .

صاح هونوريه دى بريساك فى عنف : آه ، كلا . ولكن الا يمكن ان اقوم بزيارة هذا السيد فيرانج ؟

ـ كلا للاسف .. فقد مات ، وبطريقة مأساوية .

وضغط الاســتاذ فرينيزو على جرس فاقبلت ارنستين ، وقـال المحامى :

ـ هل لك ان تشرفنى وتتذوق شراب التوت الذى اعده بنفسى يا سيدى الكونت ؟ انه شراب ممتاز .. وسوف ترى ذلك بنفسك . احضرى لنا قدحين يا ارنستين ، اذا سمحت .

وادنى مقعده من مقعد زائره واستطرد :

ـ لقى جاك فيرانج وزوجتـه حتفهما بعـد شهرين تقريبا من اقامتهما فى القصر فى حادث سخيف . كانا يقومان بنزهة بحرية على مقربة من هنا وغرق الزورق . ان القصر يجلب النحس ، فان صاحبيه السابقين ماتا همـــا الآخران بطريقة محزنة . لقى الاول حتفه فى حادث صيد . اطلق رجل مجهول لم يعرفه احد حتى اليوم رصاصة اصابت منه مقتلا ووقع الثانى من فوق الصخور ... وكل هذا يثير الحزن .

ـ لنعد الى آل فيرانج .

ـ حسنا ، انهما تركا فتاة قاصرة تدعى لوسيل .

قال الكونت : واذن ؟

ـ انتظر . كان لجاك فيرانج اخوان ، هوبير ، الاخ الاكبر وقد اصبح القيم على اليتيمة ، وهو الذى يسكن القصر الآن .

ورفع المحامى قدحه وراحا يشربان فى بطء وهمايتذوقان الشراب. وعاد الكونت يقول :

ـ هذا امر مؤسف ، ولكننى مضطر الآن الى العدول عن مشروعى .. لك ان تصدقنى على كل حال اننى لست آسفا على هـذا الاجراء الذى قمت به لاننى اظن انك لن ترفض ان تطلعنى طبعا على الظروف التى لجأ فيها الملك الى ...

قال الاستاذ فرينيزو : طبعا ، خصوصا وانها نقطة تاريخية اهتم بها كثيرا ، ولن اعيد الى ذاكرتك يا سيدى الكونت اسباب ثورة سنة ١٨٤٨ .

تنهد هونوريه دى بريساك وقال : لا داعى لذلك طبعا .

واردف يقول فى تفكير : لقد حدثنى المرحوم ابى كثيرا عن الثورة وعن تنازل الملك عن الحكم ، وعن هربه هو وزوجته الى تريانون ثم ثم الى درو ...

ـ وهل قال لك المرحوم ابوك ان الملك نزع شعره المستعار وارتدى سترة عادية من الصوف واخفى عينيه خلف نظـارة سميكة حتى لا يعرفه أحد ، وانه على الرغم من تنكره هذا عرفه احد الحراس الوطنيين فى مدينة افرو وكاد ان يبلغ عنه ؟

قال الكونت ولم يكن يفكر فى اخفاء فضوله الشديد : هذه نقاط لم اكن اعرفها .

قال موثق العقود فى ارتياح : وانت لست وحـدك . بعد ليلة طويلة من القلق وصل الملك فيليب الى قصر يونرفيل حيث انضمت الملكة اليه بعد بضع ساعات . وكان المكان مثاليا للمراقبـة ، فمن ناحية ، الريف حيث يمكن للجيش ان يظهر فى اية لحظة ، ومن الناحية الاخرى ، البحر ، وهو الوسيلة الوحيدة الباقية للنجاة . والكونت يونرفيل ، وهـو الشـخص الوحيـد الباقى من آل يونرفيل ، كان رجلا متقدما فى العمر ولكن رئيس خدمه ، ويدعى ايفاريست كان شابا ، وكان شديد الاخلاص مثله للملكية . وكانت الحكومة المؤقتة قد اصدرت اوامر مشددة لمراقبة الساحل . وكان ايفاريست هو الذى فكر فى أن يكترى سفينة صغيرة فى تورفيل ،

وقد تقاضى صاحب السفينة ، ويدعى هولو ، ثلاثة آلاف فرنك لكى ينقل الملك الى الساحل الانجليزى . وكان ايفاريست هو أيضا الذى مضى بالملك فى احدى العربات الى تروفيل .

تمتم الكونت ، وكان قد انحنى الى الامام رغما عنه وراح يلتهم موثق العقود بعينيه :

ـ هذا امر مثير .

استطرد الاستاذ فرينيزو : والبقية اكثر اثارة ، فها هو الملك فى تروفيل ، وكل شىء جاهز ، ومع ذلك فلم يرحل ، بل على العكس ، عاد فى ليلة ٢ مارس الى قصر يونرفيل . فلماذا ؟ .. زعم البعض ان البحر كان هائجا وزعم الآخرون ان صاحب السفينة خشى ان يبلغ عنه احد وفر فى آخر لحظة ، وهـذه الاسباب تبدو لى غير مقنعة ، فهناك شىء غامض لا تفسير له فى تصرف الملك العجوز المطارد الذى لم يكن هناك من هم يشغله غير نجاته هو شخصيا . وانت تعرف ، لان هذا الامر أصبح معروفا من الجميع ، ان لويس فيليب ابحر اخيرا فى تلك الليلة ، واعنى بها ليلة ٢ مارس الى هونفلير على السفينة « ليكوربيه » التى وضعها قنصل انجلترا فى فرنسا تحت تصرفه فى ميناء الهافر . ومع ذلك فقد كان البحر هائجا ، ومن ناحية اخرى ، كان المدعى العام فى بون أوريمير وجنوده يراقبون الموانى والطرق مراقبة دقيقة ، فلماذا أصر الملك ، وكان موجودا بطريقة ما فى تروفيل ، على العودة فجأة متحديا بهـذه الصورة خطرا جسيما لم يكن هناك اى مبرر له . من رايى ان قرار الهارب ليس له غير تفسير واحد وهى ضرورة ماسة ومفاجئة لكى يتواجد فى القصر ، اما لكى يأخذون شيئا كان قد أودعه فى عهدة اصدقائه المخلصين واما على العكس لانه اراد ان يكلفهم بمهمة سرية يتردد فى ان يعهد بها اليهم حتى آخر لحظة .

واردف الاستاذ فرينيزو يقول : ولكن ليس فى مقدورى انا ان اجلو هذا السر التاريخى الصغير .

قال الكونت : ولكنك توصلت الى نتائج رائعة . اسمح لى ان اهنئك على هذا التبحر .

احتج المحامى فى تواضع : اوه .. لا داعى للمبالغة فى مقدرتى وجدارتى ، فاننى وجدت اغلب هذه المعلومات فى المذكرات التى تركها الكونت يونرفيل الشهم . ان الرجل المسكين لم يعش كثيرا بعد مليكه فمات فى سنة ١٨٥١ ، ويمكنك ان ترى قبره فى مقبرة يونرفيل الصغيرة بجوار قبور أجداده .

وبدا كأن الكونت بريساك قد صفر فجاة ، وكان جالسا فى مقعده مستقيما جدا وينقر بأصابعه فى عصبية على مستوى مقعده وهو فريسة انفعال غريب ، وتمتم يقول :

ــ رجل عاصر الثورة والامبراطورية والملكية .. لا ريب ان هذه المذكرات ذات فائدة كبرى .

ــ كلا . اذا اردت الحقيقة .. فان اسلوبها قبل كل شىء ممل جدا ، وهى عبارة عن كراسات لا تقل عن ستمائة صفحة ، مكتوبة بخط دقيق يتعذر قراءته فى اغلب الاحيان ، ولكى تفرغ من قراءتها فلابد لك من صبر لا املك انا منه شيئا . لابد أن يكون لديك متسع من الوقت لذلك ، فانها تضم اشـــياء لا يمكن هضمها وتفاصيل تافهة . ثم ان كل مافيها عرضة للطعن ، فان الكونت كان رجـلا متعصبا ، ومن ناحية اخرى فان الاحداث التى ذكرتها لك لا ريب اخلت بعقله شيئا ما لان الجزء الاخير من المذكرات يضم فقرات مبهمة تماما .

ساله الكونت فى اهتمام : هل يمكن ان تضرب لى مثلا ؟

ــ لا استطيع ان اتذكر . ولكن لا شىء يمنعك من ان تطالع هذه المذكرات بنفســك ، لان جاك فيرانج اهداها الى شركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

ــ وهل تظن انه قد يوجد فى القصر أوراق اخرى او مستندات اخرى تتكلم عن الحقبة التى تكلمنا عنها الآن ؟

ــ كلا . لا اظن ذلك . ولكن ليكن معلوما اننى لم افحص كل الكتب الموجودة فى المكتبة . لعلها تضم خمسة عشر او عشرين الف

كتاب ولم تدرج فى فهرس ابدا . كان جاك فيرانج ينوى ان يبوبها وان يعد لهـــا فهرسا .. وكل ما استطيع ان أؤكده لك هو ان المذكرات ما زالت ، رغم التحفظات التى تقال عنها ، المصدر الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بأحداث فبراير ومارس سنة ١٨٤٨ .

وكان الكونت قد استعاد هيئته التافهة الســابقة فنهض وهو يقول :

ــ سوف اتحسر على قصر يونرفيل ماحييت . ولكننى سأحتفظ بأحسن ذكرى عن زيارتى لهونفلير .

وشيعه المحامى حتى باب الشـــارع . وعلى العتبة تبادلا بعض المجاملات مرة اخرى ثم انصرف الكونت وهو محنى الظهر قليلا ويكاد يجر قدميه ، ولكنه ما ان انعطف الى الشارع الجانبى حتى نصب قامته واسرع فى خطاه . وكان فى انتظاره سيارة بجوار الطوار فاستقلها وهو يتنهد قائلا :

ــ عجوز أحمق .. ولكن شرابه لذيذ وممتاز .. لو استطيع على الاقل أن أعرف دم من .

***

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب فى ذلك اليوم عندما هبط راوول دابنياك من سيارته امام مسكنه ببوليفار بيرير ، وكان قــد تخلص اثناء الطريق من تنكره فى هيئة الكونت دى بريساك واستعاد هيئته كشاب رياضى أنيق . لم يكن قد كف عن التفكير فى اعترافات الاستاذ فرينيزو ، واحس بقلق شديد . لقد كانت هذه الزيارة لمكتب موثق العقود ضربة من العبقرية ، وكان ملهما اذ امتدح شفف الرجل العجوز بالتاريخ .

لم يكن هناك طبعا ما يثبت ان هناك علاقة بين مختطف الامس الخفى وبين الاحداث التاريخية التى كان القصر مسرحا لها قبل ذلك بستة وستين عاما ، ولم يكن فى الكلمات الغامضة التى نطق بها الشيخ العجوز الذى عذبوه شيئا يبدو انه يمت الى اقامة الملك لويس فيليب الوجيزة فى قصر يونرفيل ، ومع ذلك فان غريزة لوبين العجيبة انذرته بانه يجب أن يوجه ابحاثه الى هذه الناحية . ثم انه لم يكن يملك فى تلك اللحظة اية تفاصيل اخرى من شأنها ان توجهه

الى طريق آخر ، وكان لابد له لكى يبدا ابحاثه من الحصول بأية طريقة على المذكرات المشهورة التى قراها الموثق بتلك العجالة ، وراح يغلى من اللهفة . ولكنه كان يعلم جيدا انه لا يجب ان يتعجل ابدا فى سبيل الحصول على ما يريد ، ولهذا جلس فى هدوء امام مكتبه واخذ كل وقته لكى يشعل سيجارا ثم ضغط على زر مستتر فى درج بالمكتب انفتح على اثره درج صغير خفى اخرج منه اضبارة ضخمة تحتوى على نماذج لخطوط جميع المعاصرين المشهورين . كان فى هذه الاضبارة آلاف منها ، ابتداء من خط ليلى أمور ، الممثلة المشهورة الى خط فالنجلاى ، الرئيس السابق للوزارة وعضو مجلس النواب ، مرورا بخطوط المفتش العام جانيمار وبرجسون والنائب دوبريك وقداسة البابا بول العاشر ، وطالما امتدح الناس طريقة لوبين العجيبة فى التصرف ، غير ان احسن انتصاراته واكثرها غرابة انما يدين بها الى طريقته التى لا تخيب .. كان لوبين يعرف كيف يعمل قبل أى شىء آخر .

اخرج بطاقة باسم جابرييل تابارو ، عضو المجمع ، وفحصها لحظة فى تركيز عميق . وبنظرة واحدة عرف ادق الخصائص المميزة لخط الرجل .. الحروف المتباعدة بعضها عن بعض والاخرى المتشابكة ، ثم اخذ ورقة بيضاء وراح يتمرن بضع دقائق فى تقليد الخط الرفيع الذى يدل على عصبية صاحبه ، ثم فتح دليل التليفون وبحث عن عنوان شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ثم بدا يكتب مرة واحدة وفى سهولة تثير جزع اى خبير فى الخطوط .

الى السيد جاستون سيروس
سكرتير شركة نورمانديا ...
زميلى العزيز ،

اجيز لنفسى بان اوصيك خيرا بصديقى راوول دابنياك ، وهو شاب جغرافى ينتظره مستقبل زاهر . وقد تخصص فى تاريخ موطنك الصغير ويعد بحثا عن الفن النورماندى . وانا على يقين من انك تهتم اهتماما كبيرا بهذا الفن وارجو ان تسهل له ابحاثه وان تتقبل أيها الزميل العزيز ...

وفرغ راوول من خطابه وهو يبتسم ووقعه . سوف يحصل على المذكرات اذن ، وسوف يفحصها على مهل ويتحقق منها صفحة

صفحة ، ولعله يخرج منها بلا طائل ولكن لعله يكتشف شيئا . وبالذات ما غاب عن بحث الاستاذ فرنيزو .

وكانت شركة نورمانديا للتاريخ والآثار تقع فى مبنى قديم وهادىء بشارع بونابرت . وقال راوول يخاطب البواب :

ـ مستر سيرول ؟

اجابه البواب دون ان يرفع عينيه : الطابق الاول .

وقال راوول يحدث نفسه وهو يصعد درجات السلم : ارجو الا يلقى على أسئلة كثيرة عن الفن النورماندى والا فان صديقى تابارو المشهور يخاطر بأن يفقده اعتباره .

كان بالباب بطاقة زيارة عادية مثبتة بأربعة دبابيس . وضغط راوول على الجرس . ما شكل هذا السيرول ؟ .. تخيله راوول رجلا قصيرا شحيما يغطى رأسه بقلنسوة سوداء ويضع قطنا فى اذنيه . ومرت فترة طويلة ولم يظهر سكرتير شركة نورمانديا .. ولكن هل سمع اولا ؟ .. وضغط راوول الجرس مرة اخرى بدون نتيجة . فقال :

ـ هذا امر مؤسف .. خطاب تقديم محرر بهذا الاسلوب الجميل .. لا بأس . سأخدم نفسى بنفسى ، ومهما يكن فقد اعتدت على ذلك .

وما كان يدفع الباب حتى انفتح ، ودخل ورأى غرفة المكتب على يمين الردهة ، وتقدم بضع خطوات والفى نفسه فى غرفة واسعة بجدرانها رفوف حتى السقف مملوءة بالكتب . وفى وسط الغرفة تمتد منضدة كبيرة مكسوة بسجادة طويلة تتدلى حتى الارض ، وفوقها صناديق بطاقات وسجلات . وقال :

ـ المكان متواضع ... من المؤكد ان الثقافة لا تغنى اصحابها . ما علينا .

وصعد فوق سلم موضوع بالذات امام القسم الذى يحمل حرف الباء . وما كاد يلقى نظرة حتى رأى الفراغ . كانت مذكرات الكونت بونرفيل غير موجودة .

لم يتمالك راوول من ان يكتم صيحة غضب ... ماذا ؟ .. هل

جرؤ احد ؟ .. ومع ذلك فان موثق العقود اكد ان المذكرات لا تضم شيئا ذا فائدة تذكر ... لو ان امين المكتبة لم يقع اختياره على هذه اللحظة بالذات لكى يتغيب ... وهبط راوول من السلم واجفل بشدة ، ثم اقترب من المنضدة فى بطء ورفع طرف السجادة ... ظهرت امامه قدمان ينتعلان خفا ... لم يذهب امين المكتبة بعيدا .

لم يضع راوول لحظة واحدة ، فان بعضهم قد يأتى فى اية لحظة ، فجثا وازاح السجادة . كان الرجل تحت المنضدة ، تماما كما تخيله . وكل ما هناك ان قلنسوته وقعت بجـــواره ، وكان قميصه ملوثا بالدم . كانت الرصاصة قد احدثت ثقبا رفيعا عند مستوى القلب . وكانت الجثة باردة .

عاد راوول فأسدل السجادة . لم يكن هناك اى شك فى ان القاتل قتل سيرول لكى يسرق المذكرات . كان ذلك واضحا وضوح الشمس . وكان سجل الاستعارات مفتوحا فوق المنضـــدة . وجرى راوول بعينيه على عامود الكتب التى خرجت .

مذكرات الكونت يونرفيل : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

والقى نظرة على عامود الكتب المعادة :

مذكرات الكونت يونرفيل ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

كان يجب ان تكون المذكرات موجودة اذن .

كان راوول يعرف الخطر الشديد الذى يتعرض له ببقائه فى المكان ، ومع ذلك فقد كان عاجزا عن الحركة . اثارت هذه الجريمة حيرته ، واحس فى غموض بأنه يواجه خصما قويا ضاريا شـديد العزم . ومر بيده على جبينه وتمتم :

— هذا عجيب . ولكن لعلها مجرد مصادفة . وقد اكون واهما .

وانحنى فوق السجل : ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

وجرى اصبعه على العامود الآخر : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

وفجاة اطلق صيحة دهشة .. فان الحروف لم تكن متشابهة على الاطلاق فى حين ان المفـروض ان التسجيلين قـد دونتهما يد واحدة ، وهى يد امين المكتبة . لم يكن هناك اى شك فى انه هو الذى حرر التسجيل الاول ولكن التسجيل الثانى ، وهو تسجيل

١٤ يونية كان تقليدا ، فقد كانت الحروف فى المرة الثانية تدل على ان كاتبها قد كتبهـــا وهو مضطرب ، فجاء التقليـــد واضـــحا كل الوضوح .

وعندئذ دار المشهد الذى حدث امام ذهن راوول بدقة ووضوح كاملين : الرجل . يطلق الرصاص على السكرتير ثم يخفى الجثة على عجل ويدون فى السجل ما يثبت ان المذكرات قد اعيدت حتى يخفى السبب الحقيقى لارتكاب الجريمة .

وهتف يقول : واوشكت اللعبة ان تجوز على ـ آه ... ذلك ان صاحبنا عرف كيف يدبر اموره ، ولكن من عادتى انا الآخر ان اقلد الخطوط ، فهل فهمت يا بارون ؟ انا ايضا افهم ما يدور حولى ... تريد اذن الاحتفاظ بالمذكرات وحدك .. تخشى أن تقع بين ايد غير جديرة به . يا لك من رجل شهم . لعلك تهوى جمع التحف انت الآخر ؟ .. ان السيد البارون يهتم بالتاريخ .. السيد البارون رجل مثقف .

امتزج الغضب والحقد والفرح فى قلب راوول ، وتقلص وجهه وضم قبضتيه . وتنفس طويلا ثم اخذ صندوق البطـاقات الذى يحتوى على عناوين المشتركين .

ج .. جادوا .. جافنر .. جالابير .. آه ، ها هو جالسيران ..

البارون جالسيران .. ١٤ مكرر شارع كامباساريس ، باريس .

وخرج من المكتب على طرفى قدميه واجتاز الردهة واغلق الباب خلفه فى عنـــاية ... « الامر بيننا وحدنا الآن ايهـــا السيد الارستقراطى » .

***

لم يخطىء راوول ، فان بيت البارون ، فى آخر حديقة صغيرة ، كان ينطق بالثراء . كانت الطـرقة التى تفضى الى البســطة مكسوة بالرمل الناعم . وعلى جانبيها احواض من الورد ، وعلى اليمين ، خلف ستار من الشجيرات زجاج حديقة شتوية . ودق راوول جرس الباب ، وفتح له خادم له جسم ملاكم يرتدى ثياب الخـدم الرسمية ويلبس فى يديه زوجا من القفازات البيضاء ، واحس بصدمة ، فان هذا الجسد الضخم وهذه الراس المربعة سبق له ان رآها هناك ، على حافة الماء ، فى القارب ، وهكذا لم يخطىء فى

افتراضاته واهتدى الى الاثر الصحيح ، وقال :

– ارجو ان تعطى بطاقتى للسيد البارون . اود ان احادثه فى امر هام .

– هل السيد على موعد ؟

– كلا .

– فى هذه الحالة اخشى الا يستطيع سيدى استقبالك ، ثم انه يتناول عشاءه الآن .

امسك راوول الخادم من طرف جاكتته وقال : وفر كلامك ايها الوغد ، وامض ببطاقتى الى سيدك . حسبك ان تقول له اننى قادم من شارع بونابرت .

– ولكن يا سيدى ...

– امض .

غلب الرجل على امره ، ونطق ببضع كلمات متذمرا ، ومضى نحو البيت . وتبعه راوول فى غير مبالاة ، واقتطف فى طريقه زهرة ثبتها فى عروة جاكتته ، وما هى الا دقيقة حتى عاد الخادم وقال : ارجو ان يتفضل سيدى ويتبعنى .

وتقدم امام راوول عبر صالون فاخر الرياش الى غرفة طعام ينبعث منها صوت اصطفاق اطباق ثم افسح له الطريق . وانحنى راوول انحناءة كبيرة ... ونظر اليه البارون وشوكته فى يده . كان رجلا فى الثلاثين من عمره ، ضخم الجسم ، دموى الوجه ، حليق كالممثلين ، حاول ان يبدو هادئا ولكن وجهه نم عن شىء من الانفعال وقال :

– اعترف يا سيدى ان اصرارك يثير دهشتى خصوصا واننى لا ادرى حقا ...

وهز كتفيه وتناول صدر دجاجة واخذ راوول مقعدا وجلس امامه وقال :

– بل انك تثير دهشتى يا عزيزى البارون .. الم تخمن سبب مجيئى .. لماذا استقبلتنى اذن بحق الشيطان ؟

قاطعه الآخر قائلا : ارجوك .. فلنفرغ .. انك تقتحم بابى وتدخل هنا كما .. كما ..

وبحث عن تشبيه وعلت وجهه تكشيرة وقال محنقا : تكلم .. ماذا تريد ؟

والتقت عيناه بعينى راوول ، ومرت بهما لحظة وكل منهما يحدق فى الآخر ، وكان البارون اول من خفض حاجبيه ، وحفاظا على هدوئه عاود الاكل . واخذ راوول فخذ دجاجة من الطبق وهو يقول :

– هل تسمح ؟ .. اننى لم اتناول شيئا طوال اليوم . ساشاركك الطعام من غير تكليف .

ولاول مرة ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه البارون وشاركه اللعبة فقال :

– البير ... هات طبقا للسيد .

اسرع الخادم ذو القفاز فأحضر طبقا وملحقاته وهو يبدى احتراما كبيرا ، وعاد راوول يقول :

– اخيرا .. ويزعمون ان واجبات الضيافة اصبحت معدومة .. كلا .. كلا يا البير .. لا اريد فجلا .. لا اتناول الفجل اطلاقا ، بسبب الكبد .. قليل من النبيذ .. شكرا .. اننى اهنئك يا بارون ، فان طاهيك فنان .. وهذه الدجاجة سمينة وشهية .

وكان البارون قد كف عن الاكل وراح ينظر رغما عنه وفى دهشة الى الرجل الجالس امامه والذى يبدو فى تلك اللحظة انه يفيض ظرفا وكياسة وعدم مبالاة :

– حسنا يا بارون .. اأكون قد تسببت فى فقدان شهيتك ؟ اظن انها ليست تلك العبارة البسيطة : « شارع بونابرت » التى ازعجتك الى هذا الحد ؟

وتأمل راوول كأسه وشمه ثم قال :

– يا لهذا الاريج ! .. نخب صحتك يا صديقى العزيز ... ونخب نجاح مشاريعك .

بدأ البارون يقول : هلا قلت لى ؟ ..

— طبعا .. اطمئن .. لقـــد ارسلنى مسيو سيرول ... هـل تعرفه .

وكان البارون يقطع كسرة من الخبز فى تلك اللحظة فهز راسه وقال :

— طبعا . انه سكرتيرنا الفاضل بشركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

— هو نفسه . حسنا . هذا السكرتير الفاضل ، مسيو سيرول ، قد كلفنى الآن بالذات بأن أطالبك بكتاب .. أو بالحرى بمخطوط يدوى .. مذكرات الكونت بونرفيل . ولكن يبدو ان هـذا يثير دهشتك يا بارون . الا تصدق ان مسيو سيرول قد كلفنى بهـذه المهمة ؟

عقد جالسيران ذراعيه وانتفخ عنقه وتمتم يقول :

— كلا . لا أصدق ذلك .

— لماذا ؟

— لسبب وجيه ، وهو اننى اعدت بنفسى هـذه المذكـرات لمسيو سيرول ، وهى مذكرات تافهة على كل حال ، ولم احتفظ بها الا بضعة ايام ... ثم ان الخط ردىء لم استطع ان افك منه الا القليل واسلوبها ممجوج ... وغريب ان مسيو سيرول لا يتذكر اننى اعدتها اليه .. صحيح ان السن تقدمت به ..

قال راوول موافقا : هـذا صحيح ... لقد تقـدمت به السن فعلا ، هذا بخلاف ما حدث له ...

— ماذا ؟ .. هل وقع له مكروه ؟

— حادث بسيط .

— حادث ؟ .. ارجو الا يكون الامر خطيرا .

— رصاصة فى صدره فحسب ، ولكنها اصابته فى مقتل ،بحيث انه ليس هو الذى ارسلنى حقا وانما شبحه ، وهو شبح ظريف جدا فى الواقع ... خفيف الروح وعلامة .. ولكنه ثرثار ... ثرثار جدا .. وقد قال لى شيئا مخيفا .

واخذ راوول جناح دجاجة ، وكان يبدو خفيف الحركة ، مرحا ،

على شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المعروفة عنه . واقصى البارون طبقه وهو يقول :

— ولكننى لا افهم يا سيدى ...

— قال لى الشيخ : عزيزى دابنياك . لن اعرف طعم الراحة فى الاخرة الا اذا علمت ان شئون الشركة منتظمة وان مكتبتى العزيزة كاملة لا ينقص منها شىء ، ولهذا ارجو أن تمضى الى هذا البارون الطائش جالسيران وتطالبه ...

قاطعه البارون قائلا : آه . اننى لا افهم اطلاقا ما الذى ترمى اليه ، وارجوك أن تكف عن هذرك ، أكرر لك اننى اعدت تلك المذكرات ثم ان تاريخ اعادته لابد ان يكون مسجلا فى سجل الاعارات فـان سيرول لم يكن يفوته أبدا ...

— ان التاريخ مسجل .

— اذن ؟

— انه امر مؤسف حقا لانه ليس مدونا بخط مسيو سيرول .

— بخط من اذن ؟

— بخط قاتله طبعا .

— وهل تعرفه ؟

— نعم .

— هل انت من رجال البوليس ؟

— انا ؟ .. ما هذا السؤال البغيض .. هل يبدو على ؟ ..

— هى مجرد فكرة خطرت لى .. ولكن لماذا تأتى وتذكر لى كل هذا بحق الشيطان ؟ يجب انتلجأ الى ادارة البوليس يا صديقى العزيز .

استعاد جالسيران رباطة جاشه وراح يحرج راوول فى وقاحة ، وكان هذا الاخير لا يزال يبتسم وهو يلتهم الفخذ الثانى فى شهية كبيرة ، وقال :

— حسبت ان هذه القصة ستحظى باهتمامك .

— هى تثير اهتمامى فى الواقع . كنت اكن نحو سيرول تقديرا عميقا ، واعترف ان موته ... وهو على الخصوص ميتة بشعة ... ولكننى اقول لك مرة اخرى اننى لا ارى لماذا اخترتنى انا بالذات ؟

ـ اذا كنت لا ترى ذلك حقا فانى أكون قد اخطأت ، والتمس معذرتك يا بارون ، قلت لى ان الجأ الى ادارة البوليس ... هذه فكرة لا بأس بها واراهنك انتهاية المغـــامرة ستثير اهتمام هؤلاء السادة ، فقد كان هذا الشبح ثرثارا .

ـ وما هى الغرابة فىنهاية المغامرة ؟

ـ لا .. لا .. لا داعى للاصرار .

اطبق البارون قبضتيه وقال : تكلم .

ـ حسنا .. تصور ان هذا الشبح .. شبح صـديقنا سيرول كشف لى عن وجود بصمة اصبع ... بصمة ابهام ملوث بالدم على حافة الوراقة . واعترف اننى ما كنت لاكتشف هذه البصمة بمفردى فان قاتلنا ، بعد ان دفع الجثة تحت المنضدة اعتمد بيده عليها بحركة آلية لـكى يقف ، ولكننى اتكلم ، واتكلم ... مرة اخرى التمس معذرتك يا بارون واشكرك .. هذه الدجاجة ...

ـ انتظر .. انك لم تتناول شيئا من الحلوى .. ثم اننى يجب ان أعترف انك اثرت فضولى . ان كل ما تذكره لى عجيب ولم اكن أتوقعه ابدا .. بل اننى اجرؤ فأقول انه يخرج عن المألوف .

ـ لك ان تجرؤ وتقول ما تريد يابارون ... ان الوصف صحيح ، فهو امر خارج عن المألوف .

ـ واننى اتساءل الى اى مدى سيخرج عن المألوف .

ـ الى حد ان اذكر لك اسم القاتل ، اذا اردت .

ـ فلتقل اننى اريد .

اضطجع راوول فى مقعده الى الخلف وانفجر ضاحكا ، وكلمـا ضحك كلما تقلص وجه البارون جالسيران من الغضب .

وتمتم راوول يقول : هذا غريب جدا . كلا . ان امرك مضحك . كما لو انك لا تعرف القاتل .. انه انت يا بارون .. من تريد ان يكون ؟

ـ عظيم ... انك تزعم اذن ...

ـ كلا .

ـ آه . حسنا . اذن فانت لا تتمادى الى حد الزعم ؟

امسك راوول عن الضحك فجأة ، وقال فى صوت قاطع وهو يحنى راسه شيئا ما :

ـ ليس منعادتى ان ازعم .. اننى أؤكد واقدم الدليل . ان اول خبير يأتى لمقارنة نموذج من خطك مع الخط المزيف الموجود فى سجل الاعارات سيقرر ان الخطين متطابقين .

ـ شريطة ان يقترح احد القيام بمثل هذه المقارنة .

ـ سوف يقدم بعضهم هذا الاقتراح .

ـ ومن هذا ؟

ـ انا .

ـ وهل تظن ان هذا يكفى ؟

ـ كلا .

ـ اذن ؟

ـ سوف يقوم خبير آخر بمقارنة بصمة ابهامك الايسر بالبصمة الدامية الموجودة على الوراقة .

ـ وانت ايضا الذى ستقترح القيام بهذه المقارنة ؟

ـ نعم ، انا .

ـ بمعنى آخر ان كل شىء يتوقف عليك ، وعليك انت وحدك . ان مسيو راوول يريد تصريف أمور الدنيا وفق هواه .

ـ لعمرى هو ذلك تقريبا .

وكان البارون قد انحنى بدوره ، وراح كل منهما ينظر الى الآخر من فوق المائدة متحديا . وفى بطء دعك البارون بأصابعه مفرش المائدة فى حين احتقن عنقه شيئا فشيئا ، وأخيرا صاح يقول فى صوت اجش :

ـ كم ؟

ـ كم ماذا ؟

ـ ثمنك ؟

ـ ثمنى ؟ .. اى ثمن ؟ آه . ولكن من حسبتنى ؟ ثمنى ؟ ... ولكن لا شىء على الاطلاق .. فأنا .. ما انا الا رسول ، ولو اننى كنت وحدى .. ولكن هناك شبح ذلك المتشكك مسيو سيرول ،

وهو فوق تشككه متشدد جدا ... ولكنه معقول ايضا ، وهو غير حاقد عليك ، ولا يطالب الا برد المذكرات حتى يمكنه ان يرقد فى سلام ، فقد قال لى : فليعد هذا الوغد المذكرات فالتزم الصمت. ومهما يكن فأنا لست مستاء ابدا فى الآخرة .

ـ هذا ابتزاز .

ـ لكل امرىء اسلحته .

ـ اننى اوثر اسلحتى .

وضغط البارون على جرس فظهر الخادم ، وباشارة من سيده مضى ففتح درجا ودس فيه يده المغطاة بالقفاز الابيض واخرج منه مسدسا أوتوماتيكيا صوبه نحو راوول ، وقال البارون :

ـ ولا حركة يا صاحبى العزيز .

وضغط الجرس للمرة الثانية ، وعرف راوول فى الوافد الجديد القزم الاعرج الذى سبق ان رآه هو الآخر فى القارب ، وقال :

ـ اننى اهنئك يا عزيزى البارون . لا ريب انك اخترتهما من حديقة الحيوانات .

واذ تقدم الشقيان منه بادرهما قائلا : اخفضا ايديكما ايها الخادمان ... البير ، سوف تقدم لنا القهوة فى الصالون .

ثم القى نظرة الى ساعته واردف يقول : العاشرة والنصف . ما اسرع ما يمر الوقت ... ذلك ان المرء لا يتملكه الضجر فى بيتك يا بارون . آه . استطيع القول انك تعرف كيف تسرى عن ضيوفك، ولكن مما يؤسف له اننى مضطر الى الانصراف فى خلال ربع ساعة .

ـ حقا ؟

ـ نعم ، فانى على موعد فى الساعة الحادية عشرة الا الربع بالتحديد .

ـ مع امرأة ؟

ـ كلا . موعدى هذه المرة مع صديق لا اريد ان ادعه ينتظر .

ـ بل سينتظر .

ـ اوه ، ابدا . فاذا لم اخرج من بيتك بعد ربع ساعة . فسيرسل طردا صغيرا الى عنوان بالذات ، فهل تخمن ماذا يوجد فى هذا الطرد ؟ .. كلا . انت ضيق الافق يا بارون . فيه بكل بساطة قطعة من الوراقة مع شرح واف بطريقة استخدامها .

وصب راوول لنفسه قليلا من النبيذ وعقد ساقيه والقى ذراعه فوق مسند مقعده فى غير اكتراث ، وجرع شرابه فى بطء وفى نهم فى حين انقلبت سحنة البارون ، وعاد راوول يقول :

ـ انت غبى . وكنت اظنك على جانب ولو يسير من الذكاء ! كيف خطر لك انه يمكن ان أعرض نفسى لخطر داهم دون ترو ... انصرفا يا هذان .

نظر الخادمان الى جالسيران فهز هذا راسه فوضع البير المسدس امامه ، وانصرف مع زميله وهما يتذمران . وقال راوول :

ـ هذا عين العقل ... والآن ؟ .. المذكرات ؟ .. لم يبق غير سبع دقائق وارجو ان تكون ساعة صديقى مضبوطة والا تقدم .

قال البارون : ايها الوغد .

ـ اننى لا اطالبك باعتراف ... المذكرات !

نظر البارون الى المسدس ، وبدا للحظة كانه يتردد ثم نهض ، وهو يلقى بمنشفته على الارض . ومد راوول يده فى هدوء وامسك بالمسدس وقال :

ـ تخطىء اذ تلهو بمثل هذه اللعبة ، فان المصائب تقع بسهولة .

وفتح الخزان وتحقق من ان رصاصة قد اطلقت منه ثم اعاد المسدس فوق الغطاء ، وكان جالسيران فى الغرفة المجاورة يبحث فى خوان وهو يسب ويلعن . وبدون ان ينطق بكلمة القى بالكتاب فوق المنضدة ، وهو كتاب ضخم مجلد بالجلد وعلى سطح غلافه تاج الكونتية . وتصفحه راوول على عجل . كانت الصفحات مغطاة بكتابة دقيقة ضيقة حتى الهوامش . وقال :

ـ هذا حسن . فلترقد روح سيرول فى سلام . اليك نصيحة صغيرة يا بارون .. تجنب نورمانديا .. فالجو فيها رطب وردىء .. والرطوبة ضارة بروماتيزمك .

ووضع الكتاب تحت ابطه وخرج وهو يصفق الابواب بالجدران تفاديا لأية مفاجأة .. ولكن الخادمين كانا قد اختفيا . وتوقف وصاح وهو على البسطة :

— اعلم يا عزيزى البارون أن البصمة الدامية ان هى الا مجرد مزحة .

ثم اسرع الى الحديقة وهو يضحك .

وبعد نصف ساعة كان ينضو عنه ثيابه فى مسكنه الذى يتخذه فى بوليفار بيرير ، وحدث نفسه قائلا :

— لا استطيع الاحتمال . ولكننى غلبتك على كل حال يا بارون وقهرتك . ولا شك الآن انك تتميز غضبا وتتلوى فوق النار ... آه ، اتحرق اقدام الشيوخ .. انا بدورى أشويك على نار هادئة .

وتثاءب طويلا ، واخذ يرقص وهو بالبيجامة فى مرح ويقول :

— اوليه ! .. رقصة الشبح ! .. فليسقط الارستقراطيون .

وفكر فجأة فى الفتاة الشقراء ، هناك ، فى قصر الجميلة النائمة وتمتم :

— آه أيتها الاميرة ! .. لو انك رأيت فارسك الجميل .

وتنهد واستلقى فوق الفراش وفتح الكتاب ، ولكن التعب حل عليه فجأة وغلبه على أمره فقال :

— غدا العمل يا عزيزى لوبين ... يكفى ما فعلته اليوم .

واطفأ النور ونام على الفور .

وكان النهار قد طلع منذ مدة عندما استيقظ . وكانت أول حركة منه أن مد يده نحو الطاولة ولكنه لم يتمالك من انيطلق صيحة ، فقد اختفت المذكرات .

— ٣ —

الفتاة اليائسة

دفع الغضب براوول خارج الفراش واسرع الى الباب . لم يفكر السارق حتى فى أن يغلقه خلفه ، وكذلك باب الردهة كان مفتوحا . وعاد الى غرفته وهو يرتجف من الغيظ . لقد غرر به ولم تكن السرقة هى التى اخرجته عن طوره وانما الجراة التى تمت بها .. انه خسر المعركة . ليكن ... فهذه أخطار المهنة ، ولكن ان يسترد البارون المذكرات تحت انفه فهذا ما لم يستطع ان يهضمه . وتملكه فى نفس الوقت خوف اصم ، فقد عرف جراة العدو على حقيقتها مرة اخرى وتأكد من تصميمه البارد . ستكون المعركة ضارية تحفها الاخطار ، لا رحمة فيها ولا هوادة . وارغم نفسه على الضحك ، ولم يلبث ، وهو يقوم بتمريناته الرياضية الصباحية ، ان ابتسم وهو يفكر فى الهجوم المضاد . صحيح ان المذكرات الآن بعيدة عن يديه ، ولكن يبقى الشيخ . آه .. اما هذا فسوف يحمله على الكلام ، وبأسرع ما يكون .

وصلصل جرس التليفون ، وكان يتوقعه ، فتناول السماعة :

— الو .. هل تعرف صوتى ؟ .. نعم ياصديقى العزيز .. هو انا. يجب أن أعتذر لك ، فأنا لم أحسن استقبالك امس .. فقد كان العشاء متواضعا ، وقد استولى على الخجل فلم يغمض لى جفن ، وقلت لنفسى ماذا لو أقوم بزيارة قصيرة لهذا العزيز راوول ؟ .. كانت بطاقتك معى وعليها عنوانك . وكان الوقت متأخرا بعض الشىء ، ولكن الحرب هى الحرب ، أليس كذلك ؟ وبهذه المناسبة ، اسديك نصيحة ، وهى انه يجب انتغير أقفالك ، فان دخول مسكنك من اسهل الامور ، وعليه ، فقد دخلت ، ولكن ماذا ارى ؟ .. هذا

العزيز دابنياك ينام كالملائكة . لم يطاوعنى قلبى على ايقاظك ، فأنا لست رجلا شريرا . واكتفيت بأن آخذ معى تذكارا .. تذكار تافه اشارة الى مرورى . واذا كانت المذكرات قد اثارت اهتمامك حقا لوجدتك عاكفا على قراءتها ، ومع ذلك فاننى أؤكد لك انها جديرة بأن تقرأ ... فهى تحتوى على أشياء ... وأشياء . وسوف احرص عليها بعد قراءتها . ولكن هل تعرف ما يجب عليك ان تفعل ؟

وتبدل صوت البارون فأصبح ضاريا وهو يستطرد قائلا :

ـ عليك ان تستقل اول قطار الى ايطاليا وان تمضى هناك بعض الوقت للاستجمام ، بعيدا عن باريس .. بحيرة كوم مثلا .. او البندقية اذا شئت .

قال راوول : واذا رفضت ؟

ـ سوف تندم على ذلك ، فانا رجل كريم ويحزننى ان يقع لك شىء . كلا . لا داعى لان تشكرنى ... **واذا اتيت مرة اخرى للعشاء** فأخطرنى قبل ذلك ، فاننى اعلم انك رجلا اكول حقا .

قال راوول : اوه ... اننى رجل بسيط ... لن اطلب منك اكثر من هذا الطبق الذى تجيد طهوه .

ـ آه ... وما هو ؟

ـ الاقدام المشوية .

واعاد راوول السماعة .. كانت له الكلمة الاخيرة . وكان هذا عزاء ضئيلا ، واذا اصر الشيخ على الصمت .. ولكن لا .. انه سيريد ان ينتقم من الذين اعتدوا عليه ، ولن يستطيع مقاومة استجواب يتم برفق ومراعاة . سيكشف لمنقذه عن سر قصر بونرفيل ، وسيضطر البارون الى الرضوخ للامر الواقع . وفى تلك اللحظة بالذات هزا راوول بالسر لانه لم ير فيه الا الوسيلة للانتصار على غريمه ولاعادة سخرياته وتهكماته الى حلقه .

وارتدى ثيابه على عجل . لم يطق البقاء مكانه . ودار المحرك عند أول دورة ، ووثب راوول وجلس أمام عجلة القيادة . وكانت السيارة فى حالة جيدة ، ولكنها فى ذلك اليوم بالذات كانت اكثر

من ممتازة . لم يقع لها اى عطل ولم تنفجر عجلة من عجلاتها ، ولم تلتق بغير بضع عربات يجـــرها اصحابها باليد فى الطريق النورماندى ، وكانت السيارة تتجاوزها كالعاصفة ، تخفيها على الفور موجة من الغبار . وفى آخر الضحى ابصر راوول قبة جرس كنيسة نوتردام دى جراس .

ـ حسنا يا عزيزتى فيكتوار .. والمصاب ؟

وكان قد اسرع فدخل الغرفة يدفعه الغضب الى التصرف والاسراع بالعمل والى ان يعرف كل شىء على الفور . وتمتم برونو :

ـ صه . انه ينام .

ـ هل تكلم ؟

ـ لم يتكلم بعد .

ـ والحروق ؟

ـ فى طريقها الى الالتئام .

ـ عجل بتقريرك ايها الطبيب .. هل ينبغى ان انتزع منك الكلام انتزاعا ... ماذا يقولون فى البلد ؟

ـ لا شىء . بضعة أسطر فى الايكو دى تروفيل فحسب . يعتقدون ان الشيخ ... الاب برناردان كما يدعونه .. يختفى مؤقتا ، وانه راح ضحية فقدان الذاكرة .

امسك راوول بمعصم برونو وقال : ولا كلمة .. احرص على الا يعلم احد بوجوده هنا ... وبعد ؟ .. ألم يتكلم احد عن القصر ؟ .. وعن نوم أصحابه ؟

هز برونو راسه فعاد راوول يقول : طبعا ، فلم يفطن احد لما حدث .

وعاد برونو يقول : وقد اقبلت الشرطة من اجل الشيخ . هــذا ما سمعته فى الحانة ، فقد تجولت فى البلد كما لو كنت سائحا عاديا ، ولكن الاهالى هنا يرتابون فى الاجانب .

همس راوول : استمر ... قل كل شىء .

كان يراقب الشيخ برناردان ، فقد لحظ ارتجافه الحاجبين وعرف ان الرجل لا ينام وانه يصغى ، وادرك لعبة المصاب وفهم ان برناردان لن يستسلم بسهولة ، فقد انتزع من القصر واصبح لا يرى فى كل مكان غير الاعداء ، وهو الآن ، اذ يسترد قواه ، يلوذ بالصمت ويحتمى به ويحصن نفسه به بكل العناد المعروف عن الفلاح النورماندى .

ـ حسنا يا برونو .. دعنا الآن .

وجلس راوول على حافة الفراش ، وفى رفق غير متوقع وضع يده على كتف الشيخ وقال :

ـ هيا يا جدى .. حان الوقت لـكى تفتح عينيك ... راوول دابنياك ، هل تعرفه ؟ .. القلب النبيل الذى انقـذك من الخطر مجازفا بحياته . ولكنه قد لا يستطيع انقاذك دائما .. اننى واجهت الاخطار العاجلة ووضـعتك فى مكان امين ، وقدمت لك طبيبا وممرضة ، ولكن يجب أن تساعدنى الآن .

راحت عينا الشيخ المسكين الرماديتان النصف مطبقتين تحت اهدابه المسدلة تفحصان الرجل المجهول المنحنى فوقه والذى يحس بسلطانه كانعكاس نار الموقد ، فى حين عاد راوول يقول :

ـ يجب ان تساعدنى ، وليس ذلك لصالحى وانما لصالحك أنت ، فأنت تعلم تماما ان اصدقاءك الثلاثة الذين عذبوك فى المحجر لن يتركوك فى أمان .

وامسك برناردان من كتفيه وانحنى فوقه ، كمصارع يلقى بغريمه على الارض ، واردف يقول فى لهجة خطيرة :

ـ فاننى اعرفهم .. واعرف قسوة زعيمهم ، ومهما انا فعلت فسوف يعثرون عليك . وسأصل عندئذ بعد فوات الاوان .. ولكن اذا تكلمت فقد أستطيع انقاذ كل شىء .. دم من اذن ؟

تسارعت انفاس العجوز وفتح فمه ، وادرك راوول أن عملا غامضا يدور فى هذا الذهن الذى لا زال متأثرا من العذاب الذى تعرض له ومن الارهاق .

ـ دم من ؟

خفض برناردان جفنيه فى بطء ، وبدا وجهه متجمدا تحت غضونه كوجه ميت ، واعتصم بصمته منطويا على سره . وانتظر راوول قليلا ثم اعتدل واقفا فى سكون ، وجفف بمنديله العرق الذى يتصبب من جبينه وتمتم يقول :

ـ انا رجل صبور ، ولا يمكن ان تتصور الى اى حد استطيع الصبر . سانتظر الوقت الذى لابد منه .. ومقامك هنـا لا بأس به ، وسأظل محتفظا بك . ولكنك لست اسيرا .. انما انت تحت المراقبة فحسب . عندما تريد ان تتكلم تكفى اشارة بسيطة وتجدنى امامك .. وعندئذ نستطيع ان نفعـل معـا عظائم الامور . وسوف ترى . وانت على حق . ولكن خلف راوول عشرة رجال آخرون .. وعشرون اسطورة .. ان تاريخ فرنسا امامك فى هذه الغرفة .. مرحى يا برناردان ، انت رجل محظوظ لاننى اهتم بك ، واقسم لك اننا سنمضى معا حتى نهاية المغامرة .. بل اننى سأعترف لك بشىء ...

وامسك راوول فان انفاس الشيخ انتظمت .. غلبه النوم ، واذ راى راوول ذلك خرج على طرفى قدميه ، وكان برونو ينتظره فى الردهة فسأله :

ـ حسنا .

ـ ان العجوز شديد المراس ، ولكن سينتهى به الامر الى ان يتكلم . استمر فى مراقبتك له . اما انا فسوف استبدل ثيابى ثم امضى الى القصر .

واخذ راوول من سيارته حقيبة سفر ضخمة ، وبعد عشرين دقيقة كان قد اتخذ هيئة صحفى شاب يرتدى جاكيت من الجوخ وتتدلى من كتفه آلة تصوير . وعانق فيكتوار ثم قال :

ـ سأعود الليلة يا عزيزتى فيكتوار فكفى عن التأوه والنواح . اقول لك اننى لا اتعرض لاى خطر ، والدليل اننى اريد ان اتناول

عند عودتى طبقا من العجة اللذيذة التى تجيدين صنعها .

وجلس فى سيارته التى يعلوها الغبار وانطلق فى سرعة عادية فى طريقه الى يونرفيل .

كان يحب ان يجمع شتات افكاره وهو أمام عجلة القيادة اذا ما اراد ان يبنى خططه للمعركة ، ولكنه فى هذه المرة كان لابد له من ان يعترف بأن الموقف يتجاوز كل قـدراته ، فالمذكـرات بين يدى البارون ، والشيخ يرفض ان يعيد ما سبق ان أدلى به تحت لسعة الالم ، فأين يوجه الهجوم ؟ والى اين تقوده هذه الزيارة التى يزمع ان يقوم بها للقصر . كان راوول يتخبط ، واحنقه شعوره بالعجز فى حين ان سرا هائلا يتعرض لان يكتشفه بعض المجرمين الاشرار الذين لا يميزهم عنه شىء غير انهم لا يتورعون عن استخدام العنف. ولا ريب ان هذا السر هائل حقا لكى لا يتردد البارون فى التعذيب والقتل كما لو ان الوقت لا يسعفه وكما لو انه اذا ما مضى تاريخ محدد ولم يهتد الى هذا السر يكون الاوان قد فات ، وما كان لشىء آخر ان يثير حنق راوول هكذا . كان السؤال يدور فى راسه دوران محرك السيارة . دم من ؟ .. دم من ؟ .. كان السر يدور حول الدم ويتسبب فى العنف والموت .

وادخل سيارته عند مدخل يونرفيل ومضى الى القصر فى خطى وئيدة غير مكترث بحر الصيف ، وفى منتصف الطريق اضطر ان يبحث عن مكان يلجا اليه على حافة الطريق لكى تمر سيارة تنطلق باقصى سرعة . ومع ذلك فقد وجد من الوقت متسعا لكى يعرف الرجل ذا الحاجبين الكثيى والوجه الصـارم الذى يجلس بجوار السائق ، وتذكر الوجه الذى رآه على ضوء مصباحه الكهربى فى الليلة الماضية فى القصر ... هوبير فيرانج .. وراق له ذلك فان غياب فيرانج سيترك له مطلق الحرية . واحس بالقوة والنشاط وعاد يمشى . وكان هناك شرطى يتحدث مع امراة قوية تحمل دلوا من الماء فاقترب راوول بادى الفضول كالصحفى الحقيقى وقال فى رفق وفى مرح :

ـ صباح الخير ... ريشار ديمون ، صحفى بجريدة ايكو دى فرانس .

سكت الآخران وقد بدا عليهمـا الانفعـال . والقت المراة دلوها وجففت يديها . وحياه الشرطى . وقال راوول :

ـ سمعت القوم يقولون ان رجلا اختفى . وكنت امر بهونفلير فرايت ان اتحرى الامر قبل ان اعود الى باريس .

وكان يبدو صادقا ، وانتزع عطفهما واعجابهما بحيث لم يسع الشرطى الا ان يقول :

ـ اوه ، كل ما فى الامر ان الاب برناردان طاب له ان يسرى عن نفسه قليلا وآثر أن يختفى بضعة ايام كمـا سبق ان فعل . اليس كذلك يا أبولين ؟

هزت أبولين رأسها وهى تشعر بشىء من الارتباك اذ دعاها الشرطى باسمها المجرد أمام رجل غريب ، وقالت :

ـ لا داعى للاهتمام فهو لم يعد يحتفظ بكل قواه العقلية . وسيعرف كيف يعود وحـده . ان مواطنيك الباريسيين لديهم مشاغل اخرى بالتاكيد .

وعاد الشرطى يقول : اذا أردت نصيحتى فالزم الصمت فان مسيو فيرانج لن يروق له ان تضخم الصحافة مثل هذا النبأ التافه . ثم انه طويل الباع ولن يقف ساكتا .

ـ لم اكن اعرف هذا القصر ... انه رائع .

اصطبغ وجه ابولين سرورا ، وفتل الشرطى شاربه وقال :

ـ اجل . وان القوم يأتون من بعيد لرؤيته ولكن مسيو فيرانج لا يسمح لهم بزيارته ، وان كان هذا يسعد الأب برناردان ، فهو يعتبر القصر قصره ، وله العذر فى ذلك فقد قضى فيه كل عمره .

وتدخلت ابولين فقالت : بل انه ولد فيه .

اخرج راوول آلة التصوير من جرابها والصق عينه بعدستها ثم قال :

وكيف السبيل الى مقاومة هذه الابتسامة الفتية وهذا الظرف البالغ ؟ .. وقالت ابولين :

ـ يجب ان استأذن الآنسة .

وقال الشرطى : الآنسة لوسيل ، ربيبة مسيو فيرانج .

وبينما كانت ابولين تمضى الى القصر استطرد وهو فخور بأن يظهر لصحفى باريسى ان الشرطى يمكن ان يكون شيئا آخر غير الشخصية الكاريكاتورية التى يتندر الناس بها :

ـ وهى فتاة فاتنة لقيت الكثير من المصائب ، فقد فقدت ابويها منذ سنتين بطريقة غبية ، فقد غرقا أثناء نزهة فى البحر ، ويبدو ان جاك فيرانج كان مهندسا ينتظره مستقبل عظيم ، باع الكثير من الاختراعات وخاصة للامريكيين واصاب ثروة كبيرة فى بضع سنين . وكان القصر معروضا للبيع فاشتراه . ولكن يبدو ان هذا القصر لا يجلب الحظ لاصحابه ، فقد فتشوا الساحل كله ولم يعثروا حتى على الحطام . كان زورقا شراعيا صغيرا طوله ستة امتار ، وكان مسيو جاك مغرما بركوب البحر . اورأيت الى عجائب الصدف ؟ عندما كانا يخرجان للنزهة كان من عادتهما ان يصطحبا الآنسة لوسيل معهما دائما . لا زلت اذكر تقرير ضابط الساحل ، وقد اثارتنى هذه النقطة فى ذلك الوقت . كانا يصطحبانها دائما ولكنهما فى ذلك اليوم بالذات تركاها فى القصر .

كان راوول يصغى اليه فى اهتمام كبير ، وكان ذهنه يسجل كل صغيرة وكبيرة ، يفحصها ويحللها ويبوبها فى ذاكرته العجيبة . وقال يسأل الشرطى :

ـ الم يعثروا على الجثتين ابدا .. ان البحر يلفظ الجثث عادة .

ـ لم يلفظها تلك المرة ، ولكن الشىء الذى يثير الحزن اكثر من غيره هو ان الفتاة المسكينة اصابها المرض على اثر هذا الحداد . ولم يعرف أحد سبب علتها ولكنها كانت لا تذوق الطعام ولا النوم

كما تقول ابولين . وكانت تقضى اياما برمتها على مقعدها المستطيل فى البستان ، وصحيح ان البيت لا يدعو الى المرح ، فان مسيو هوبير ، القيم يقضى كل وقته فى المصنع ، فهو يملك مدبغة للجلود فى بون اوديمار ، والفتاة المسكينة دائما وحدها . هناك عمها الفونس طبعا ولكن ما من احد يراه ابدا ، ومع ذلك فهو لا يقيم بعيدا ، فقد ورث البيت الذى كان المهندس يقيم فيه قبل ان يشترى القصر .

صاح راوول وهو يضحك : ولكنك تعرف اكثر مما يعرفه اى محام .

ابتسم الشرطى بدوره وقال : هذه مهنتى . ثم ان آل فيرانج من علية القوم ، ولهذا فان الجميع يعرفون عنهم كل شىء تقريبا .

ـ وهذه الطفلة التى تختفى هناك ، خلف حوض الزهور ... من هى ؟

ـ آه . هى فاليرى ، حفيدة الشيخ برناردان . وهى الاخرى يتيمة ، وجدها يقسو فى معاملتها ، ولكنه يعبدها ، ولهذا السبب بالذات لا افهم لماذا رحل دون ان يخبرها اين هو ذاهب .

عادت ابولين فى هذه اللحظة وقالت : اذا تكرم السيد أن يتبعنى فان الآنسة يسرها ان تتحدث اليه .

قال الشرطى : انت رجل محظوظ .

بسط الصحفى المزعوم يده له وقال : اشكرك مرة اخرى ، ولا تخف ، فسوف اكون كتوما .

وامسك بدلو الماء وقاوم ابولين التى ارادت ان تأخذه منه قائلا :

ـ دعيه .. دعيه .. سأرده اليك فى آخر الممر .

كان ذلك الصحفى رجلا ممتازا وخدوما ولطيفا ، فكيف لا تسرع ابولين وترد على اسئلته : انها تعرف ان الصحفى يجب أن يكون فضوليا ، ولهذا راحت تبوح له بكل ما تعرف . نعم ، انها خادمة

وطاهية فى نفس الوقت ، وزوجها اشيل ، يعمل بستانيا وسائقا فى وقت واحد . اما العجوز برناردان فان وظيفته غامضة ، فهو يروق له ان يقول عن نفسه انه رئيس الخدم لان هذه الصفة كانت تعيد الى ذهنه الايام الخوالى .

« وهو رجل غريب الاطوار حقا ، ويجب ان تراه وهو يأخذ كل شىء مأخذ الجد ، وان تسمعه وهو يبرر نفسه .. رجل مزعج .. وحفيدته المسكينة ! .. انه يبذل كل جهده لكى يضيع عليها المدرسة فى اغلب الاوقات . يقول انهم لا يعلمونها هناك شيئا غير الاكاذيب ... شيخ مجنون .. والآن ، اعد الى دلوى فقد وصلنا » .

افضى بهما ممر يدور بالقصر الى البستان . كانت لوسيل هناك ، تحت شجرة كستناء ، متمددة فوق مقعد مستطيل والكلب عند قدميها . وكانت تقرأ جريدة . وكانت اكثر جمالا واكثر فتنة مما رآها فى الليل وهى سادرة فى نومها . واعتدل البولدوج على قوائمه المعوجة وراح يزمجر .

ــ ارقد يابولوكس .

كانت تتكلم بذلك الصوت المتعب الذى يتكلم به المرء الذى يفقد الامل فى الشفاء والقت الجريدة فوق ركبتيها ورمت الزائر بابتسامة حافلة بحزن مثير ، وانحنى راوول وقال :

ــ ريشار ديمون ، من جريدة ايكو دى فرانس .

وقالت لوسيل : ابولين ، امضى وهاتى مقعدا .

ولكن راوول اسرع يقول محتجا : لا داعى لذلك . عندما يكون امام المرء مرجة جميلة مريحة كهذه فانه يكون فى غنى عن المقعد .

وجلس فوق العشب ، عند قدمى الفتاة ، بدون تكليف ، ثم ربت على رأس البولدوج ، بين اذنيه ، وسال لعاب الكلب لفرط سعادته واستمرا المداعبة . ولاحظت لوسيل ذلك فى دهشة وتمتمت :

ــ هذا غريب . ومع ذلك فان بولوكس شرس .

ــ هذه مهارة اليد ، ثم اننى اعرف كيف اعامل الحيوانات والرجال .. لست اخرق الا مع الفتيات .

وانفجرا ضاحكين معا ، واكتسبت وجنتا لوسيل قليلا من اللون .

وفكر راوول « اضحكى يا جميلتى ، ولا تفكرى فى ايام الشقاء . اريد ان تحبى الحياة وأن تفتتنى بها وان تنظرى الى بهذه النظرة الساحرة دائما ... »

واقتطف زهرة من زهور اللؤلؤ ، واخذها بين اسنانه ، وقال :

ــ كان يسعدنى ان اهنئك على هذا القصر الجميل ولكننى علمت انك لقيت فيه من التعاسة والشقاء اكثر مما لقيت من سعادة وهناء .. ولهذا يجدر بنا ان يقتصر حديثنا عنك انت .

ــ اوه .. عنى انا .. انا لست شيئا .. ما دمت تعرف كل شىء فلابد انك تعرف ...

وتهدج صوتها فقال ريشار ديمون المزعوم : هيا ، تشجعى .. انت فى السابعة عشرة ... ولا ترين غير وصى متذمر وخدم مذعورين وذلك الشيخ المجنون برناردان .. تشعرين بأنه لم يعد لك ماض ولا مستقبل ويتملكك الضجر بحيث تدعين المرض لكى تشعرى بشىء من الرعاية والاهتمام عوضا عن المحبة والحنان .

كانت لوسيل تصغى اليه فى دهشة متزايدة ، واستطرد راوول يقول :

ــ ولكنك ذات مواهب متعددة ، واذا كنت تتوهمين اوهاما كاذبة ، واذا كنت تتصورين انك اشقى المخلوقات ...

قاطعته لوسيل قائلة : ولكننى اشقى المخلوقات .

وتصاعدت الدموع الى عينيها ، وتمتمت : اوه ، لماذا لم يصطحبانى معهما فى ذلك اليوم ؟ .. لماذا ؟ .. لكان الموت قد طوانا نحن الثلاثة .. لقد كنا سعداء جدا .

قال : تكلمى ... استمرى ، فانا صديقك .

واخذ يدها وضغط عليها فى رفق ليعيد اليها قليلا من الدفء ، وعادت تقول فى هدوء اكثر : ماتا فى التاسع عشر من اغسطس ، بعد تسعة عشر عاما ، يوما بيوم من اول لقاء لهما .. وهو لقاء

مأساوى حقا ، فقد اشترى ابى قبل زواجه بيتا خلف كنيسة سانت ادريس ملحق به بيت آخر صغير للصيد وهو عبارة عن كوخ ملتصق بالصخور امام خليج صغير لم يكن يؤمه احد على الاطلاق . وكان يستجم فيه ويرسم لانه كانت له كل المواهب . وذات يوم سمع بعضهم يصرخ طالبا النجدة ... كانت فتاة .. امى المقبلة .. كانت فى بلاج مجاور فجرفها التيار ، ولو لم ينقذها أبى فى الوقت المناسب لفرقت لا محالة .. ولم يمنعهما ذلك من الموت غرقا على كل حال .. بعد تسعة عشر عاما ... هل تؤمن بالقدر يا مسيو ديمون ؟

– طبعا ، مثل جميع الذين تحفل حياتهم بالمغامرات . وماذا حدث لذلك البيت الصغير ؟ .. هل باعه ابوك ؟

– كلا . بل احتفظ به للذكرى . ولـكنه لم يـكن يختلف اليه . ولا ريب انه فى حالة يرثى لها الآن .

راح راوول يفكر ، وبدا بتلك الفريزة العجيبة التى اتاحت له كسب كثير من المعارك يخمن أن خلف هذه المصادفات شيئا كئيبا ، ملتو ، اشبه بمؤامرة ، وقال :

– هل يمكننى ان أزور هذا البيت ؟

اجفلت لوسيل على الفور وقالت : اننى بحت لك بسر ولا يجب ان يعرف احد ...

– اطمئنى ... لن يعرف احد .

وكانت لهجته تفيض بالاقناع بحيث اطمـــــأنت لوسيل على الفور .

– سر فى طريق الصخور نحو ثلاثة كيلو مترات او اكثر قليلا بعد كنيسة سانت ادريس ، وهناك تجد دربا منحدرا والبيت معروف باسم « الصخرة الكبيرة » .

– سؤال آخر ... اظن ان امك كانت عاطفيـــــة جـدا ... وورومانسية جدا !

– نعم ، واننى اشبهها كثيرا .

قال راوول يحدث نفسه : طبعا .. بدات افهم .

ووثب على قدميه وهو ينهض متلهفا .. احس بالرغبة فى ادهاش

الفتاة ، وفى النضال من أجلها حتى يعيد إليها البسمة ، وفى نفس الوقت احس بأن خطرا خفيا يحوم حولها . وكان الاحساس من القوة بحيث القى نظرة فاحصة الى الغابة ، ولكن لو أن احدا كان يختبىء على مقربة منهما لنبح الكلب .

وقال يسال الفتاة : هل تثقين بى ؟

رفعت اليه نظـــرة حزينة من عينيها البنفسجيتين وقــالت فى تفكير :

– اننى لا اعرفك يا سيدى ، ولكنك تختلف كثيرا عن الآخرين . نعم . اننى اثق بك .

– يمكنك ذلك ، بل يجب ان تثقى بى . والآن اصغى الى . عودى الى البيت ، ولا تتحدثى عن زيارتى مع وصيك . وغدا ، فى تمام الساعة الثالثة سوف نلتقى . ليس هنا .. بل خارج القصر .. عند ناصية البستان والطريق .. قد يـكون لدى الـكثير لاخبرك به . كلا . لا تسالينى فلا زال الوقت مبكرا . الى اللقـــاء ايتهـا الفتاة العزيزة . ابتداء من الآن ، ومهما يحدث ، قولى لنفسك انك لست وحدك وان هناك شخصا على مقربة منك ، يسهر فى الظلام ولن يسمح لاحد أن يمس شعرة من راسك .

– هل تظن اذن اننى فى خطر ؟

وضع اصبعا على شفتيه وقال : غدا ... الساعة الثالثة .

***

قرية برفيل .. والبحيرة على نهر السين ، وطريق الهافر ... كان فى مقدور راوول اجتياز هذه الطرق مغمض العينين طالما بدت له مالوفة ... الهذا السبب كان يشعر بكل هذا النشاط وهـذه الحيوية ؟ وقال يحدث نفسه « هيا ، كن صريحا . لا تحاول ان تخدع نفسك . اعترف انك سعيد ، سعيد بصورة غير معقولة لانك تريد انقاذ هذه الفتاة اليتيمة الضائعة .. لانها جميلة ولانك لوبين .. لانك غبى لا يرجى صلاحك ورغم كل شىء فاننى احب نفسى كمـــا انا » ...

واجتاز احدى القرى والطيور تحلق فوقه مذعورة . واستأنف منولوجه قائلا : ليست مصادفة ان يموت جميع اصحاب قصر يونرفيل الواحد بعد الآخر بطريقة مأساوية ، وليست مصادفة ان يعذب البارون الاب برناردان ، فهل هناك علاقة تربط بين كل هذه الاحداث ؟ .. وما هو الخطر الذى تتعرض له لوسيل .. لا ادرى ، ولا داعى للعجرفة . ان مثل هذه الاحداث لا يمكن ان تجوز على فاننى املك اثرا صغيرا وهو ان جاك فيرانج وزوجته قد لقيا مصرعهما قتلا ... ولكن كيف ؟ ... ولماذا ؟ هذا امر غامض ... القديس جان يخلف يعقوب ، ودارتنيان .. حسنا . لا داعى للاصرار .

وبلغ صخور سانت ادريس ... واشارت له احدى الفلاحات الى كوخ « الصخرة الكبيرة » كيلو متران آخران ويرى الدرب . ولكن يجب ان يتوخى الحذر لانه وقعت انهيارات اثناء الشتاء الماضى . وترك راوول سيارته فى احد المنعطفات وتابع طريقه على قدميه . وعادت الى ذهنه ذكريات حاول جاهدا ان يقصيها عنه ، فقد خيل له ، وهو فى بقعة اخرى ،غير بعيدة عن المكان الذى هو فيه الآن ، بينما كان يبحث عن مأوى يخفى فيه شدته وضيقه ان كل شيء قد انتهى ، وان الحياة ، لن تواتيه بعد ذلك بأية بهجة او اى مرح . ولكن رجلا مثله كان خليقا بأن يجتاز فى حياة واحدة حشدا من الحيوات المتتابعة . واحس بأعجوبة بأنه جديد وانه ينبض نشاطا وحيوية . لن يستعصى عليه سر يونرفيل مدة طويلة فما من شيء استعصى عليه حتى الآن .

انحدر الشاطىء الصخرى ، ولم يلبث ان اكتشف الدرب الذى يتعرج خلال ارض معشوشبة وقال :

ـ يا للشيطان .. لقد كان السيد فيرانج مغرما بالتسلق .

ولكن سرعان ما تحقق ان بالطريق نتوءات طبيعية فى مقدور الانسان ان يعتمد عليها فى هبوطه وصعوده ، وتجعل الطريق آمنا

بعيدا عن الاخطار رغم الفضاء الذى يبدو كأنه يكمن دائما للمتسلق . ولم يلبث ان بلغ بلاجا ضيقا محصورا بين نتوءين صخراوين تهيمنان عليه من عل . وكان الاحساس بالوحدة والعزلة يكاد يكون مضنيا ، وكانت الصخور تمتد حتى الامواج الاولى . ورأى على اليمين كوخا بدا له انه يستند على الصخور . وكان لابد للمرء من بلوغ البلاج لكى يراه . ودار حوله وتحسس مصاريعه بيده ، وكانت لا تزال متينة ، وكان الباب موصدا . وقد حولت الرطوبة جدران الكوخ الى اللون الاخضر . ولكن الكوخ نفسه قاوم تقلبات الجو المختلفة رغم احساس الهجران الذى يبدو عليه . وبين ظهر الكوخ والصخور مكان ضيق مزدحم بالانقاض والبقايا : ادوات قديمة ومجاديف وسلم نخره السوس واكله الملح وصناديق للصيد . ووضع راوول يديه على خاصرتيه وراح يفحص فى تفكير المنظر الغريب الذى امامه . وتمتم :

ـ كل هذا سخيف .. سخيف .. ولكنه جذاب .. يستطيع من يعيش هنا الاستغناء عن العالم وما فيه .

واخرج من جيبه علبة مسطحة تحتوى على عيدان معدنية مختلفة الاشكال وراح يعالج القفل الذى قاومه كثيرا لفرط ما علاه من صدأ ، وانفتح الباب اخيرا ودفع اليه بنسمة من الهواء المخزون تفوح بالعفن . ودخل . والفى نفسه فى غرفة لا ريب انها كانت تستخدم فيما سبق لتناول الطعام وللنوم ، فقد كان على يسارها اريكة كبيرة وفى آخرها حامل للرسم ، وكانت هناك لوحات لا تزال معلقة لصق الحائط . وعلى اليمين مائدة لاثنين والاطباق معدة فوقها . وفى فازة بين الاطباق سيقان مسودة فى طريقها الى التلف . وفى الموقد قدر انهار فوق كومة من الرماد . وقال لوبين : « كأننا فى مدينة بومبى » . كان كل شيء كئيبا ، لزجا فقد الحياة بطريقة بشعة. ولكن كان الشيء الذى اثار قلقه اكثر من اى شيء آخر هو تلك المائدة المعدة كما لو ان قليلا من الحب دخل الغرفة ولا زال بها حتى الآن متحديا الزمن .

خلع راوول قبعته بحركة آلية ثم تقدم بضع خطوات وفحص

الارضية ، وكان يعلوها الغبار ولا تزال عليه آثار اقدام . لم يكن هناك سبيل للخطأ . كانت آثار رجل وامراة يسيران جنبا الى جنب . وفكر : جاك فبرانج وزوجته . ارادا الاحتفال بذكرى اول لقاء لهما فأقبلا الى الكوخ ، وهذا هو السبب فى انهما لم يصطحبا ابنتهما معهما ، فقد كان العيد عيدهما ، ولم تكن النزهة فى الزورق الا ذريعة ... ارادا ان يكونا وحدهما لا ثالث لهما و ... فحص راوول الارض من جديد وقال : ولم يغادرا الكوخ . هذا غريب !

كانت الآثار تتشابك من الباب حتى المائدة ومن المائدة حتى الموقد ثم تمضى نحو غرفة اخرى تخفيها ستارة ، ولا ريب انها غرفة المطبخ . ولكنها لم تعد منها ، فهل هناك باب آخر لمغادرة المطبخ ؟

وتقدم راوول وقلبه يخفق شيئا ما . ما الذى يختفى خلف هذه الستارة ؟ .. وازاحها ، وفجأة ، تهربت الارض تحت قدميه . وكان الامر سريعا بحيث ان راوول لم يسعفه الوقت لكى يمد ذراعه ويبحث عن نقطة ارتكاز ، ووقع بشدة ، ولكن السقطة كانت قصيرة خففتها الرمال . وكان باب الفخ قد عاد مكانه بتأثير زنبرك خفى فى صوت مدو كالفخ حين يطبق على فريسته .

- ٤ -

المقبرة

كان الظلام شاملا . وجلس راوول وتحسس نفسه . لم يصب بأى جرح . ومد يديه حواليه ولم يلتق فى كل مكان بغير الرمال . كان موجودا فى قبو ، وكان البيت مشيدا على اساسات خفيفة ، ومع الزمن تغلبت الرمال على الاستحكامات فجأة وبدأت تتسرب داخله كما تتسرب مياه البحر داخل حطام . ووقف راوول واشرأب على قدميه بقدر استطاعته ، ورفع ذراعا الى ما فوق راسه ولم يلتق الا بالفراغ . وكان المصباح الكهربى الذى لا يفارقه مطلقا قد تحمل الصدمة ولم يعكس غير شعاع خفيف ، ولكنه كان من الكفاية لكى يضىء باب القبو . لم تكن به اية حلقة ولا اية خشونة . كان الزنبرك القوى الذى يعيد الباب الخشبى القلاب الى مستوى الارض مركبا فى تجويف من البناء لا يمكن الوصول اليه .

ادار راوول شعاع المصباح الكهربى حوله . كان القبو واسعا وشاغرا تماما . لم يكن به اى مقعد او اى صندوق يمكن الوقوف عليه للوصول الى الباب القلاب . وحتى لو كان هناك ما يستطيع ان يقف عليه ويصل الى الباب فما كان فى مقدوره ان يفعل اى شىء لان الباب نفسه كان أملس وما كان فى استطاعة اى مخلوق ان يزحزحه على الاطلاق . ومع ذلك فقد انعكس نور المصباح على شىء تألق فى ابعد ركن من القبو ، فاقترب راوول منه وما كاد يفعل حتى تفصد العرق من جبينه وقد تملكه القلق ، فان الشىء الذى تألق لم يكن غير راس ميت .. جمجمة بيضاء كعظمة سمك السبيرج التى يلقاها المرء على الساحل . ومن طبقة الرمال الخفيفة التى تجمعت خمن راوول هيئة هيكل عظمى يعانق هيكلا عظميا آخر ، أقصر قامة من الاول جمجمته لا تزال تلتفت نحو وجه حبيب.

مات العاشقان احدهما فى احضان الآخر ، وكل منهما يبتسم لصاحبه ابتسامة الابد .

اطفأ راوول مصباحه .. هذا الرجل الذى واجه العديد من الاخطار وسخر من الموت ، المرة بعد المرة اوشك ان يقع فريسة لانهيار عصبى . ادرك فى لحظة واحدة الحقيقة التى كان يتوقعها .. فقد لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما قتلا ، بعد ان حول القاتل بكل صبر وكل دقة عش الغرام الى فخ قاتل ، فان فريستيه كانا يأتيان الى « الصخرة الكبيرة » فى كل سنة ، ووجد كل وقته لاعداد الباب القلاب وهو على يقين من انه فى اليوم المرتقب سوف يطبق على فريسته . وقد نجحت مكيدته البشعة ، ولسوء الحظ جاءت الآن فريسة ثالثة ووقعت فى الفخ ، ولا مفر لها الآن من ان تشارك الفريستين السابقتين مصيرهما ، فما الجدوى الآن من الصياح والصراخ والاستنجاد ؟ وما جدواه من ان يفعل ما سبق ان فعله الزوجان من قبل عبثا ؟

تمدد راوول فوق الرمال الرطبة وعقد يديه خلف عنقه وحاول ان يفكر فى هدوء . لم يكن هناك من يعرف انه قادم لزيارة هذا البيت ، وعليه فلن يخطر لاحد أن يهبط الى هذا البلاج وان يفحص المكان ويدخل البيت . كانت هناك طبعا السيارة التى تركها فى طريق الصخور ، وسوف تثير دهشة الناس ويذكرون امرها للبوليس . ولكن التحقيق لن يتعدى اكثر من ذلك ، ولا يبقى امامه الآن الا ان يحفر نفقا ، ولكن بماذا ؟ .. أبيديه ؟

خلع راوول سترته وطواها بعناية وجثا بجوار الجدار وبدا يحفر ، ولكنه لم يلبث ان استسلم للواقع ، فقد كانت الرمال مائعة وكانت تنساب فى الحفرة كلما ازدادت اتساعا ، وكان لابد ان يرشها بالماء ولكن من اين له بالماء ؟ ومع ذلك فقد بقى راوول على اصراره وراح يجمع الرمل بملء يديه ويلقيها بعيدا من فوق كتفيه . وافلح فى احداث حفرة صغيرة ولكنه سرعان ما توقف وقد نال منه الاعياء كل منال . احس فى الظلام ان هذه الحفرة عميقة جدا وتخبط وهو يبحث عن جاكتته . اين وضعها ؟ وتقدم وهو على ركبتيه ويده مبسوطة الى الامام وهو يخشى فى كل لحظة ان يمس الهيكلين .

وانتهى بأن عثر عليها اخيرا واشعل مصباحه . لم يكن عمق الحفرة ليزيد عن ستين او سبعين سنتيمترا . وقد اقتضت منه هذه المسافة الهزيلة مدة طويلة وجهدا اكبر . ورأى انه من غير اداة فى يده لن يستطيع شيئا فقد كان هذا الرجل القوى يعرف اكثر من غيره اين يبدأ المستحيل . وجفف جبينه وحاول أن يمزح « ليس هذا بالوقت المناسب لكى اصاب بالبرد . آه .. من لى بكاس من الشراب » ولكن الصمت كان مطبقا بحيث لم يسمعه الا ان يرتجف . وجلس معتمدا بظهره على الجدار وقد شل التعب جسده . وشيئا فشيئا تولد الخوف . ولاول مرة فى حياته لم ير ذهنه المتوقد الذى لم يخنه مرة واحدة فى حياته الحافلة بالمغامرات حلا لمشكلته الحالية ، ولاول مرة فى حياته لم يعد لوبين بلوبين .

اى مجرم ذلك الذى ينازله ؟ ومن ذلك الذى دبر ذلك الانتقام البشع وحكم على بريئين بالموت جوعا وعطشا ويأسا . ثم انهما كانا اثنين ، يساند كل منهما الآخر حتى اللحظة الاخيرة فى حين انه هو ... وحده ، لا نصير معه . وارهف اذنيه . كان هناك صوت اصم يدوى بعيدا .. صوت البحر . كانت الامواج تتلاطم فوق الشاطىء الصخرى ولم يكن هناك احد على الساحل . لم يكن هناك غير الخوف حوله ... الخوف الممزوج بالهواء الذى يستنشقه . انه قوى وسوف يقاوم بضعة ايام ، ولكن احتضاره سيطول .

واستجمع قواه وهم بأن يصرخ . ولكن الشىء الوحيد الذى ارغمه على أن يحتفظ بهدوءه ووقاره هو احساسه السخيف بأن الهيكلين ما هما الا جمهور رغم كل شىء . وتخيل انهما يراقبانه وان كل منهما يقول للآخر « ان لوبين ليس شجاعا ، انه جبان خائف » وقال يحدث نفسه « انهما على حق فانا جبان وقد بدا الخوف يسيطر على ، ولكن لو ان امامى سببا طفيفا باعثا للأمل فسوف يرى العالم اجمع ما يمكن ان اقدم عليه . ولكن لسوء الحظ ليس هناك اى امل . انه الحادث الغبى غير المتوقع الذى لا مخرج منه . معذرة يا عزيزتى لوسيل .. لن اكون فى الموعد الذى ضربته لك ... » .

وفجاة عرته الدهشة . ان الامل موجود طبعا . وهو امل ضعيف

فى الواقع .. لوسيل .. ولكنه سرعان ما اقصاها عن ذهنه . ستنتظره لوسيل فى الساعة الثالثة ، وربما تنتظره مدة طويلة ثم تعود ادراجها حزينة . لماذا تقطع هذه المسافة الكبيرة حتى الكوخ الذى يعيد الى ذاكرتها مثل هذه الذكريات الحزينة . ولكن الامل اشبه بنار صغيرة تتغذى بأوراق الشجر ، واضعف الاسباب تفلح فى اضرامه ... فاولا لم تكن المسافة كبيرة جدا ، وهناك دراجة فى القصر ، ثم ان لوسيل سيدفعها الفضول الى أن تعرف لماذا لم يواتها هذا الرجل الذى يبدو انه يخشى خطرا . ولان هذا الرجل قد اثار قلقها ، ولانها تريد ان تراه باى ثمن فسوف تتوهم اشياء وسوف يستقر منها العزم وتفكر : انه بحاجة الي ... انه فى خطر بسببى انا ، وبسبب ما رويته له عن موت ابوى . وسوف تتذكر حديثهما والاسئلة التى القاها عليها « عن الصخرة الكبيرة » . واذا كان هذا الصحفى الظريف لم يف بوعده فذلك بسبب بيت الصخور بلا شك .. واذا كان قد حدث له حادث .. اذا كان قد وقع .. لابد وأن تمضى لنجدته .. سوف تغادر القصر وتسرع اليه . وسوف تقع بدورها فى الفخ ... يا الهى .

نهض راوول وراح يدور فى سجنه وراسه ملتهبة . كلا . لا يجب ان يقع هذا بالذات . انه يؤثر ان يموت . كان يفضل طبعا ان يلقى حتفه تحت الشمس لفرض نبيل بدلا من أن يحتضر كالفأر فى قاع حفرة . ولكنه سيتقبل الموت فى خزى كرجل عديم النفع ... المهم ان تعيش لوسيل .

وتملكه اليقين فجأة من انها سوف تأتى لكى تبحث عنه . وبسط يديه الى الامام كانه يريد ان يصدها ويردها بعيدا عن هــذه الحفرة البشعة حيث تنتظرها عظام ابويها . وتعثر ووقع على ركبتيه ، وراح يردد فى صوت خافت : ليس انت لوسيل .. ليس انت بالذات .

غلبه التعب والقلق والليل فتهالك على جنبه . وبقى مدة طويلة خائر القوى . وتغلب النعاس عليه اكثر من مرة . وكان نعاسا تخللته الكوابيس ... ثم ، ولان اليأس وثبوط الهمة لا مكان لهما عنده خرج فجأة من هذا الخدر الذى قام مقام النوم ، وصحا وامتلأ نشاطا ، وتأهب لمواجهة الخطر . ونظر الى ســاعته ...

الثامنة . لابد انها الثامنة صباحا . يا للشيطان ! .. ان يفوتنى العشاء فلا بأس ولكن الافطار .. ليس هذا من الصحة فى شىء .

وكان يتكلم فى صوت مرتفع ليفتعل قليلا من الضجة ، ويقطع هذا الصمت الكئيب الذى لا يمكن مقارنته بأى صمت آخر . ولم يحاول تجديد محاولته ولكنه بدافع التحدى حاول ان يقوم فى الظلام بتمريناته الرياضية التى يقوم بها كل صباح وهو يقول « فلأمت على الاقل وانا فى صحة جيدة » ثم رجع الى الحفــرة وجس الارض . كانت الرمال قد استعادت مكانها من الحفرة ولم تعد هذه الاخيرة غير فجوة خفيفة لا عمق لها . لم تكن هناك فى الواقع اية وسيلة او جدوى فى حفر نفق .. ان المنفذ الوحيد هو الباب القلاب ولا شىء آخر . وعاد الى الدائرة الجهنمية لنفس المشاريع ونفس الاخفاقات وفكر « والآن .. سأركز تفكيرى فى لوسيل ... ولكن ما اغبانى ! ما ادرانى ان هذه الصغيرة تحفل بى ؟ » .

وجلس مرة اخرى وظهره الى الجدار واسترسل فى مونولوجه : اذا كانت لا تحفل بى فذلك لانك لا تفكر فيها بتركيز كبير .. ولكن مهما يكن فلا خيار لك .. لابد لك من أن تركز تفكيرك فيها والا فلا امل لك ، ركز فيها واعلم ان الحشرات تعرف بعضها البعض من مسافات كبيرة ، وانت اكثر من حشرة طبعا ، فاذا انت ثابرت وركزت مدة طويلة فسوف تحس بوجودك حولها ، وسوف تطيعك بحيث تحتل افكارها تلقائيا .. مرها أن تأتى هنا ، وعندما تسمعها فسوف تصيح لكى تحذرها . ليست هناك وسيلة اخرى ، ولكننى احذرك . سيكون الامر صعبا جدا .. اقسم لى انك لن تنام بعد الآن .

مد راوول ذراعه وافلتت منه سبة ، ثم عكف على التركيز . لم يكن ذلك صعبا جدا ، بل كان يكفيه ان يلازم لوسيل فى أفــكاره وان يتبعها فى غدواتها وروحاتها ، بين غرفتها وغرفة الطعام ، وان يمسك المقعد المستطيل معها فى نفس اللحظة وان يدعو بولوكس، وان يعبر غرف الطابق الارضى الفسيحة لــكى يمضى الى البستان ويجلس فى الظل ويحلم فى ذلك الغريب الذى ظهر فى نفس اللحظة التى اصبحت فيها الحياة من الصعوبات بحيث لا تطاق .

ووخز راوول ظهر يده ... اهذا ما يقولون عنه تبادل الخواطر .. ولكنك تغفو يا صديقى ، هيا انتبه وقم . انها هى الاخرى تقو وتمضى لتقطف بعض الزهور .. انها تشعر بقلق مبهم ... بسبب انت ، لانه بدا لك انك تفهم كيف مات ابواها .. وهى تمضى وقت الآن فى التفكير ... انه يعرف شيئا ، وتنظر الى الساعة فى غ انقطاع .

اضاء راوول مصباحه واخرج ساعته ، وذهل . الظهر ... هكذ حالا ... انها ستجلس الآن الى المائدة مع عمها . انها تجلس امام فى تلك الغرفة الكبيرة ، وهى لا تشعر بالجوع . رآها فى وضو عجيب . كانت تدعك كرة من لباب العيش بيديها الرقيقتين ، وجاء ابولين بطبق من السمك لان اليوم كان يوم جمعة ورائحة القل جعلته يشعر بأن قواه تخور .. اربع وعشرون ساعة لم يذق فيه شيئا . وكان يقول : هيا ، جهد صغير آخر . ان هذا السمك لذيذ ، ثم انك بحاجة الى ان تسترد قواك ، اذا كان ولابد ا تستقلى الدراجة حتى هنا . كانوا يتناولون الطعام على مهل وكان الوصى ، من وقت لآخر ، ينطق ببعض الكلمات ... ودقت ساعة الحائط تشير الى الواحدة ، ساعة تناول القهوة . كان حلق راوول جافا ... كان يركز فى هذه اللعبة الرهيبة بكل كيان وصعدت لوسيل غرفتها وراحت تصغى الى اصوات القصر ... صوت محرك السيارة وهى تنطلق بعمها ، وبعد قليل ستهتم ابولين بغسل الاطباق ... الساعة الثانية ... الثانية والنصف !

تشنج راوول . سوف يتقرر كل شىء الآن . لوسيل تخرج من القصر من غير أن يراها احد ، وهى تخرج وتصل الى المكان الذى تواعد معها فيه .. الساعة الثالثة .. آه يا لوسيل .. ركزى بدورك وفكرى معى .. فكرى فى بقوة اكثر .. اذا كنت لم استطع موافاتك فذلك لاننى وقعت اسيرا ... اسير .. كان يجب ان ابعث بالكلمة مع الريح .. كما لو كانت برقية .. لو انها استطاعت ان تتلقاها فانها سوف تأتى .. انا أسير .. اسير .. وتوتر جسده وراح يحرك شفتيه . كان يسمع الكلمة تندفع منه وشيئا فشيئا احس بالوهن .. تفرغ من كل طاقته ، وجاءت اللحظة التى اضطر فيها

ان يتوقف كالمصاب ينزف آخر قطرة من دمه . والآن ، على لوسيل ان تبادر بالعمل ... لم يعد لديه اى وقت لارشادها ... اما ان تكون فى الطريق اليه الآن واما فالموت هو الذى يقترب منه . ولكنها فى الطريق اليه حتما لان الامور لا يمكن أن تمر بغير ذلك .. لان ارسين لوبين لم يخلق لكى يموت وادا كالدودة . كان لابد من المقاومة .. المقاومة .. لا جدوى من النظر الى الساعة ومن ان يتعجل الوقت . لابد له أن يمشى كالحصان العجوز الذى يدور حول الساقية دون ان يفكر فى اى شىء .

وراح يمشى مكدودا ، واهنا ، يغوص بقدميه فى الرمل واحدى يديه على الحائط ، ويدور حول الهيكلين العظميين . وجه كل ارادته الى المشى . لو حدث لسوء الحظ ووقع فهو هالك لا محالة . لن يجد القوة لكى يصرخ عندما تأتى لوسيل وتتقدم نحو الفخ ، لانه لم يشك لحظة واحدة فى انها سوف تأتى . ربما ليس فى اللحظة القادمة وانما فى اللحظة التالية لها . وراح يتنفس بقوة ويلوك الرمل الذى راح يصر تحت اسنانه وارتجفت ساقاه ووقع على احدى ركبتيه ، وراح يدلكها مدة طويلة . ممنوع النظر الى الساعة ... كان هذا اسوأ اغراء . اما الباقى .. الجوع والعطش فكان لا يزال فى مقدوره احتمالهما ، ولكنه اذا استسلم ونظر الى الساعة ووجد انها قد بلغت السادسة مثلا ، فسوف يتمدد عندئذ وينتظر النهار ، لانه كان قد حسب ، دون ان يعترف ، الوقت اللازم للقدوم من يونرفيل بالدراجة . وبذل جهدا كبيرا واجبر نفسه على الوقوف.

وسمع الصوت عندئذ فتجمد مكانه لفرط الذهول . هذه الطقطقة معناها ان شخصا يطأ الحصى . ووضع يده على فمه مشدوها مغمض العينين ، واستجمع كل قواه لكى يتمكن من تحليل الصوت الخافت الذى ربما كان صوت دمه وهو يصفر فى عروقه . ولكن الصوت ازداد وضوحا وجلاء وجاء معه بالضوء وريح البحر ووعد الحياة كاصطدام بعيد لصخرة تعلن لعامل المنجم المدفون ان النجاة قريبة ، ولكنه كان يعلن على الخصوص انتصار راوول ، فهو وحده ، ضائع لا سند له ولا معين ، وبقوة ارادته فحسب ، او ربما بكبريائه ، استطاع ، مرة اخرى ان يجبر القدر . وغمره

احساس عظيم بالفرح وتصاعدت الدموع الى عينيه ... وهكذا ، بكى الرجل الشديد الثقة بنفسه .

وارسل الباب صريرا وطقطقت الارضية فوقه ، فى هدوء . وعندئذ صرخ بكل قوته ، رغم جفاف حلقه وصاح :

ــ اهذه انت يا لوسيل ؟ .. هى انت ، اليس كذلك ؟

ومن بعيد أجابه صوت الفتاة : نعم .

ــ حسن . لا تتحركى . اين انت الآن بالتدقيق ؟

ــ امام المنضدة .

يا للفتاة المسكينة ! كانت تنظر الى الاطباق وتحاول ان تفهم .

ــ هل ترين الستارة يا لوسيل ؟ ان الفخ خلفها مباشرة .. نعم .. باب قلاب ينفتح الى اسفل عندما تدوس عليه القدم .

ــ هل انت مصاب ؟

يا للوسيل الرائعة ! .. كان صوتها ينطق بالقلق .. قلق كانت تجهل معناه ولكن راوول اكتشفه وهو يرتجف .

ابتعدت الخطوات ، ولم يلبث ان سمع صوت اشياء تتحرك . وعرف ان عذابه اوشك ان ينتهى ، وعندئذ أقدم على شىء اثار دهشته هو بالذات ، فرغم تعبه وجوعه ، ورغم أنه كان مشرفا على الموت منذ لحظات فقد نفض الرمال عن ثيابه واصلح من هندامه وعدل رباط رقبته وثنية بنطلونه « يجب ان احافظ على مظهرى ، وان كنت بحاجة الى ان احلق ذقنى ، ولكن لا بأس بى . تذكر انك صحفى ... »

وسمع ارتطام السلم بالمقاعد واحتكاكه بالارض فصاح :

ــ هل انت متأهبة ؟

ــ نعم .

وبالطريقة التى نطقت بها الكلمة كان من السهل ان يفهم ان الجهد الذى بذلته تجاوز طاقتها .

ــ هــذا حسن . انك قمت حتى الان بأصعب جزء وبقى شىء بسيط . ارفعى السلم من طرفه الذى من ناحيتك وادفعى الطرف الآخر كما لو انك تريدين ان ينزلق من تحت الستارة . سيقع طرف السلم فوق الباب القــلاب ويدفعه الى اسفل .. هــل فهمت ما اعنيه ؟ .. هيا .. على مهل .

احتكت حافة السلم بالارضية ، وفجأة انخفض الباب وتسلل داخل الحفرة ضوء منحرف .

ــ توقفى الآن .. انتظرى قليلا .

وانتهز راوول فرصة الضــوء الخافت واقترب من الهيكلين وتمتم : معذرة ، ولكن لن يزعجكما احد بعد اليوم .

وأهال فوقهما الرمال بملء يديه حتى غطاهما تمــاما وهــو يقول :

ــ ذلك لكى لا تراكما ، فارقدا فى هدوء . سوف ارعاها واهتم بها ، واعدكما بذلك . اننى أعرف فيم تفكران ولكنكما مخطئان . سأرعاها ابويا كصديق حميم ، وسأحبها قليلا كحبيب . سأكون منــذ الآن وصيا عليها ، اما الآخر فما هو الا مغفل . وداعا .

وقالت لوسيل : ماذا افعل الآن ؟

ــ حسنا . ارفعى السلم وانزليه فى بطء .

بعد ثلاث دقائق كان راوول يضع قدميه من جــديد فى دنيــا الاحياء . ورفع السلم فانطبق الباب . وامسك بيد لوسيل وقال :

ــ لنسرع بالخروج ، فاننا نختنق هنا .

كانت الشمس لا تزال فى الافق ، والبحر يهدر . ولم يكن هناك احد على مرمى البصر . وقال :

ــ لولاك لقضى على . ولكننى اكتشفت شيئا هاما والفضل لك انت .. قولى لى .. خلال الشــــهرين الاخيرين ، الم يداخلك احساس بأن هناك خطرا يحلق فوقك . الم يقع شىء يثير مخاوفك ؟

ــ كلا .. لا ارى .. ولكن هناك طبعا حادث المركبة ...

ــ آه ..

ــ ولكنه كان مجرد . عجلة تحطمت فى اخدود وطرحت ارضا . لو ان الجواد كان مسرعا لكنت من الهالكين ، ولكنه كاد يمشى خببا على عكس عادته .

ــ ومتى حدث هذا ؟

ــ منذ ثلاثة شهور .. وانت ترى ان ...

ــ طبعا .. لقد كان حادثا مدبرا .. كغيره من الاحداث الاخرى ،

وليس صدفة ان يختفى اصحاب القصر تباعا . وكان ابواك آخر الضحايا .. تشجعى يا لوسيل .

توترت يد الفتاة على يده وتمتمت :

ـ انهما هنا ! .. أليس كذلك ؟

ـ نعم . كان القاتل يعرف انهما يأتيان كل سنة فى الذكرى السنوية لاول لقاء لهما . وقد اعد الفخ بعناية ومهارة كبيرين ، ومن الذى لا يصدق انهما غرقا ... والدور الآن دورك انت .

تعلقت لوسيل بذراع راوول وقالت : ولكن هذا شىء فظيع .

واستطرد راوول : وبعد أن يتخلص منك سيعتدى على عمك بدون شك ... دائما بنفس الدهاء ونفس المصير حتى لا يشك احد فى الحقيقة . انتم جميعا فى خطر كما كنت اتوقع .

ـ ولكن لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. نحن لم نؤذ أحدا .

فكر راوول لحظة ثم قال : لو استطيع الاقامة فى القصر ، فى جواركم ،فسوف اعرف السبب سريعا .

قالت لوسيل : ليتك اتيت قبل اليوم بثمـــانية ايام ، فلعلك لا تعرف أنه يوجد بالقصر مكتبة كبيرة جدا ، بل ان لها شهرة بين الاوساط الادبية ، ولقد لحق عمى بخدمته فى الاسبوع المــاضى سكرتير لكى ينسق ويبوب كل تلك الكتب ويضع لها فهرسا ... صفوة القول سيأتى بعد أربعة ايام .

صاح راوول : ولكن هذا رائع . وهل يعرف عمك هذا الرجل ؟ هل التقيا قبل اليوم ؟

ـ كلا ، فقد تم الاتصال بينهما عن طريق نشرة فى احــــدى المجلات الادبية ... كان مسيو ليونس كتارا يبحث عن وظيفة .

ـ هل تذكرين عنوان هذا السيد ؟

ـ نعم ، فانا التى حررت المكاتبات .. ليونس كتارا ، ١٢ شارع باتنيول بباريس .

ـ ومتى يجب ان يصل ؟

ـ يوم الثلاثاء .

تأبط لوبين ذراع الفتاة وسار معها فى طريق الصخور ، وقال :

ـ حسنا . سوف ادبر طريقة للدفاع بمعاونة هذا الشاب فاننى اخمن انه ظريف وانه سيتعاون معنا .

لن تقع اية حوادث بعد الآن ... أعدك بذلك .

قالت لوسيل فجأة فى شىء من التردد : ولكن من انت بالذات ؟

انفجر راوول ضاحكا واجاب : تروق كلمة « بالذات » هذه . تصورى يا عزيزتى لوسيل اننى انا نفسى لا اعرف من انا . ان الصحفى رجل له مائة وجه ، ولابد له من ذلك اذا اراد أن ينجح فى هذه المهمة الصعبة . اننى اجىء واروح وانقب واتنكر واضيع قليلا فى كل هذه المتاهات ... ولكى أكون صريحا معك ، فاننى اشعر اننى سأتقمص جلد هذا الليونس كتارا رغما عنى ، لا لشىء الا لمحاكاته وللسعادة التى ساشعر بها وانا اقيم بجوارك .

اصطبغ وجه لوسيل بطريقة طابت لراوول وتمتمت تقول :

ـ انت رجل محظوظ .. لانك حر .. لا يجب ان تقدم حسابا لاحد عما فعلت فى يومك . يخيل لى اننى لن اشعر بالمرض ابدا اذا كانت لى القدرة انا ايضا فى ان اكون .. ولكننى انطق بحماقات .

ـ حماقات ! .. ابدا .. انت لم تكونى عاقلة قط كما انت اليوم .. ان الملل هو الذى يضنيك ويؤرقك يا عزيزتى لوسيل .. ولكنك لن تشعرى بالملل ولا بالضجر وانا بجوارك ، وأقسم لك على ذلك .. فكرى فى مغامرة اليوم .

توقفت لوسيل عند اول منعطف للطريق والتفتت الى الكوخ الذى اوشك ان يختفى عن الانظار .. ووضع راوول يده فى رفق كبير على عينيها وقال :

ـ لا يجب ان تنظرى الى الخلف ايتها الفتاة العزيزة . ان ابويك يرقدان فى القبر الذى كانا يتمنيانه .. ثم لا يجب ان يعرف العـــدو اننا اكتشفنا شيئا ... هيا ، تعـــالى . سأوصلك الى مداخل يونرفيل .

ومضى فجاء بسيارته ووضع الدراجة بداخلها ثم أجلس لوسيل بجواره . وسألته : هل انتابك الخوف ؟

ـ كنت على يقين من انك ستأتين .

ـ واذا كنت لم آت ؟

ـ انا الذى القى الاسئلة .. اننى لا استجيب لها ابدا .

***

انطلق راوول عائدا الى باريس ، وطبقا لعادته ، كان يلتهم الطريق التهاما .. تلاشى تعبه وارهاقه تقريبا ، فبعد ان غادر لوسيل عرج

على حانة وتناول شطيرة بالجامبون وشطيرة بالتفاح وثلاثة فناجين من القهوة ، ودب النشاط فى جسمه واحس بالسعادة . لم يكن هناك ما يعكره غير شيء واحد هو البارون او بالاحرى سر البارون ، لانه كان هناك خلف البارون شخص آخر يعمل . لم يكن البارون غير عميل يعمل فى خدمة رجل آخر خفى خليق باسوا الفظائع ولكنه لا يتمتع بذكاء خارق والدليل على ذلك حوادث يونرفيل ومغالاته فى العذاب الذى فرضه على جاك فيرانج وزوجته ، فقد كان هذا ينم عن ذكاء عادى ، قاس لا يرحم وصبر فظيع .. صبر العنكبوت وهو يعد خيوطه والثعبان وهو يترقب فريسته وحيوانات الليل التى تضرب دون ما صوت ، بمجرد ان تتخلى فريستهم عن يقظتها وحذرها . واذا لم يحترس هو نفسه فسوف يتلقى الضربة، ان لم يكن فى شخصه هو فسوف يتلقاها بلا ادنى شك فى أعز الناس لديه .. فى لوسيل .

وزمجر يقول يحذر العدو الخفى : اياك ان تلمسها ... انا ، لا باس بى ، فاننى استطيع ان ادبر امرى دائما ، اما هى ... لو اصابها شيء فلن يمنعنى أى شيء بعد ذلك .. ودفعه غضبه الوليد الى ان يترك العنان لسيارته فاندفعت فى الطريق كحجر المنجنيق . وبلغ باريس فى نحو الوحدة صباحا ومضى الى مسكنه ببوليفار بيرير واسرع الى الحمام ، وبعد ان اغتسل تناول وجبة اخيرة ثم اوى الى فراشه وهو يقول : ارقدى فى هدوء يا عزيزتى لوسيل . ان ملاكك الحارس ليس بعيدا .. سيخلد الى الراحة بدوره ، فلابد للملائكة من النوم من وقت لآخر .

***

وفى اصيل اليوم التالى ، وبعد ان تناول ليونس كتارا غداءه المتواضع ، غادر المطعم المتوسط الذى يتناول فيه طعامه فى العادة ، وراح يفكر فى حزن وهو يمسح شاربه فى الوجبات المتواضعة التى لابد له ان يتناولها طوال حياته التى تخلو من البهجة . وكان متجهما وهو يعبر الشارع ليشترى جريدته ، وسمع صريرا حادا صادرا من فرامل مضغوطة بشدة جعلت القشعريرة تسرى فى جسده ، وتوقفت عربة فارهة امامه وكادت ان تلمسه . وارتجف وفقد توازنه ووقع على ركبتيه . وتحامل واقفا وهو يستند على الرادياتور الملتهب . وكان السائق قد هبط مسرعا وعاونه على الوقوف وهو يقول :

ـ انا آسف .

تمتم كتارا : انا المخطىء ، فقد كنت شارد الذهن .

ـ معذرة ... بل انا الذى كنت مسرعا .

ـ مهما يكن فلم اصب بأى شيء .

ـ ولكننى لست متأكدا ...

ـ هانت ترى .. لست مصابا بأى جرح .

ـ هناك الجروح الداخلية ، وهو اشد خطرا . تعال معى .

ـ اين ؟

ـ عند طبيبى ... اريد ان اطمئن تماما .

ودفع الرجل كتارا المسكين داخل سيارته رغم احتجاجاته الخجلة، وابدى السائق نحوه اهتماما شديدا ورعاية اكبر ، ولكن كل هذا لم يمنعه من ان يسوق بجراة وسرعة مما جعل السكرتير المسكين يرتجف رعبا وقلقا . وبلغا نويلى فى طرفة عين وتوقفت السيارة وهى تئن امام احتجاجاته .

ـ ليس بى شيء .. يؤسفنى ان اتسبب فى كل هذا الضرر .. انت رجل كريم جدا .

ووجد نفسه فى غرفة نورها خافت وفيها اجهزة معقدة ، وراح الممرض ينضو عنه ثيابه بالقوة .

وفى أثناء ذلك ، دخل صاحب السيارة مكتب الطبيب ورفع نظارته عن عينيه واخذ مقعدا وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة :

ـ احتفظ لى به يا صديقى ... ضعه فى الجبس لمدة ثلاثة اسابيع .. رعاية تامة وخدمة ممتازة .. شمبانيا ودجاج وكل ما يريد .. وكذلك كل ما لا يريد .. لا ترفض له اى طلب . ولكن بما انه فقير وبما ان فقره سيمنعه من أن يتمنى اى شيء فحاول أنت ان تتمنى مكانه .

وفتح محفظته واخرج منها رزمتين من الاوراق المالية القاهما فوق المكتب وهو يقول :

ـ هذه من اجل معدات الاشعة الجديدة ... وهذه لمريضك بعد ان يشفى .. من طرف السائق الذى أصابه .. سيكون من الغباء بحيث يتردد كثيرا ، ولكنه سوف يقبل فى النهاية .

ونهض ثم انحنى واردف يقول فى صوت خافت : آه . كدت انسى اهم شيء . انه سيكتب خطابا للسيد هوبير فيرانج بقصر يونرفيل .. هذا الخطاب لا يجب أن يصل .. تذكر جيدا .. قصر يونرفيل .. عليك ان تلقى به فى النار .

- ٥ -

الاختطاف

اثار الخبر الذى نشرته جريدة « ايكو دى فرانس » اكبر الاهتمام . كانت الاجازات على الابواب والجرائد تعانى كسادا لقلة الاخبار التى تهم الناس ، وعلى الرغم من التوتر السياسى ، وعلى الرغم من الانباء التى تقول ان المانيا تتسلح من جديد والتى يتناقلها الناس فى كل مكان من اوروبا تقريبا ، فلم يكن فى استطاعة الصحفيين ارضاء قرائهم لان الاخبار كانت عادية ولا اهمية لها ، ولهذا كان امتنانهم كبيرا نحو جاستون سيرول قبل تشييع جنازته ، فنشروا مراحل حياته الغامضة وامتدحوا فضائله المتواضعة واكدوا ان رجال البوليس سوف ينتقمون لمقتله .

وقد كتبت الجريدة تقول : « والمفتش جانيمار يتتبع اثرا هاما ، وقد التقينا به فى احد المرات بادارة البوليس وقال لمراسلنا ردا على اسئلته انه سيكون هناك جديد بعد ثمان واربعين ساعة ، واردف يقول بطريقة غامضة : ربما نتحدث عن رجل نسيناه بعض الشىء ، ويعتقد البعض منا انه مات ، ولكننى كنت اضعه نصب عينى ، ولما ساله مراسلنا ان كان يريد ان يتكلم عن ارسين لوبين ، عدوه اللدود السابق ، اكتفى بأن رفع اصبعا الى فمه وقال : من يدرى » .

وكان اهتمام النـــاس كبيرا حقا . وقال الماكرون منهم : ان الجرائد تعمل على ان ننسى تسليح المانيا . وقال بعض الملمين بالامور اكثر من غيرهم « مسكين جانيمار . ما ان يقع على معضلة صعبة حتى يتهم لوبين » ولكن الفضوليين العاديين اهتزوا طربا وهم يقولون : سوف نضحك قليلا . وقد كانوا فى حاجة الى ذلك حقا . وانتقلت من فم الى فم خلال البلد همسة كبيرة تقول : ارسين لوبين لم يمت .. ارسين لوبين يعود .

دعك راوول دانيناك الجريدة بين يديه والقاها اسفل فراشه ..

المفتش العام جانيمار يتتبع اثرا هاما .. ماذا ؟ .. ايكون قد اكتشف امر البارون هكذا حالا ؟ محال . لقد اقتضى الامر منى انا ، لوبين ، ربع ساعة . وكنت املك عناصر لا يملكها هو ... لابد له من ستة شهور على الاقل .. هذا اذا خدمه الحظ . كلا ، كلا .. انه يلف ويحاول أن يجتذب الانظار اليه .. وهذه حيلة لا تنطلى على .

ولكنه كان مكتئب المزاج عندما دق الجرس يستدعى خادمه ، وكان مكتئب المزاج وهو يأكل البيض بالجامبون . وعندما اشعل احد سجائره الهولنـــدية المصنوعة خصيصا من اجله لم يكن قد استعاد مرحه وحيويته المعــــروفين عنه . لم يكن يريد ان يدس البوليس انفه فى مشكلة يونرفيل ، فقد كان كفيلا بأن يفك رموزها وحده . اما البارون فلا شأن له بهذه المشكلة هو الآخر ، فان الصيد صيده هو ولا يجب ان يتدخل فيه احد غيره ، ولهذا عزم على ان يكتب لجريدة ايكو دى فرانس ، فان الكلمة التى ذكرها جانيمار جرحت كبرياءه .. رجل نسيناه بعض الشىء .. آه ، كيف يتكلم بهذه اللهجة .. حسنا سوف يرى .. رجل نسينا بعض الشىء .. ما هذه الوقاحة .. لقد حدث نفسه اكثر من مرة فقال « سأكون فى القصر ،بجوارها، بعد ثلاثة ايام ، ولا يمكن أن يكون الامر غير ذلك » . ولكن اليوم كان رديئا ، من تلك الايام المكفهرة التى يسوء فيها كل شىء ، حيث ماء الدش ســاخن اكثر من اللازم ، وحيث تضيع ازرار القميص وحيث تعكس لك المرآة وجها تعلوه تغضنات المشيب .

ولبس راوول قبعة خفيفة واخذ العصا التى يأخذها معه عندما يخرج للنزهة وخرج . سوف يجد حريته فى الخارج اكثر لكى يكتب ردا لاذعا للسيد جانيمار . ويمم نحو الغابة . والواقع ان ذلك الغبى العجوز كان على حق ، فمنذ شهور والشعب محروم من تلك المقالات المرحة الطريفة التى طالما خدمت اسطورة ارسين لوبين . وحدث راوول نفسه فقال « اننى كنت اعلن عن مغامراتى مسبقا فى الماضى واعلق عليها . صفوة القول ، كنت الهو كما اشاء .. ولعمرى لقد كنت شابا .. ولكن الزمان كان يتلاءم مع ذلك . كان الناس اكثر مرحا . يجب ان اهتدى الى الوسيلة لتجديد احدى هذه المغامرات التى تثير اعجاب الناس ودهشتهم » .

كان غارقا فى تأملاته هذه بحيث لم يبد اى اهتمام للرجلين اللذين يسيران خلفه واللذين راحا يقتربان منه شيئا فشيئا . وفجأة احاطا من جانبيه . وتوقف راوول وهو يقول : آه .. ما هذا ؟

وظهر أمامه رجل ثالث ، وانضم اليهم رجل رابع ضغط على ظهر راوول بماسورة مسدسه قائلا :

ــ لا تقـــاوم يا راوول دابنياك . اننى القى القبض عليك باسم القانون .

تم كل هذا بسرعة مذهلة تتفق تماما مع مشاغل راوول بحيث انه انفجر بالضحك وقد استعاد مرحه وقال :

ــ حسنا يا جانيمار ... ولكن لماذا هذه التكشيرة البغيضة . نعم . انا راوول دابنياك .. انا هو .. اعنى ذلك الشخص الذى اوشكت ان تنساه ... ولكن اضحك وابتهج ايها الصديق العزيز .. انك كسبت المعركة ، ولك ان تمرح وأن يأخذك الطرب ولو مرة فى حياتك .

وهزه المرح واستطرد يقول مثيرا دهشة رجال البوليس الذين احاطوا به :

ــ آه . لن انسى لك هذا ايها العزيز جانيمار .. تأتى هكذا خلف ظهرى وتستنجد بثلاثة رجال لانك لست مطمئنا الى نفسك .. وتستخدم الوسائل الكبيرة والصوت الخطير : راوول دابنياك ... اننى القى القبض عليك .. وعندئذ يلتفت السيد دابنياك ويستولى عليه الخوف . واخيرا ها هو دابنياك .. انه هو نفسه لوبين .. امسكوه أنتم الآخرون .. اسرعوا واسندوه .. الا ترون انه سيغمى عليه . انه لم يعد شابا كما تعرف وقد تسببت له فى الكثير من المشاكل والانفعالات . ماذا ؟ .. الاصفاء ؟ .. لى انا ؟ .. ولكننى لا اطلب الا ان اتبعك . كنت اقول لنفسى بالذات يجب أن اثبت مقدرة هذا المسكين جانيمار ، فسوف يعينه ذلك على الترقية . هل تسمح أن اجفف عينى ؟ ليس الذنب ذنبى اذا كنت ابكى لفرط الضحك . آه . هناك سيارة اجرة تتبعنا .. انها تتبعنا ، اليس كذلك ؟ ان هذا الذكى جانيمار يفكر فى كل شىء . لكم أن تستمتعوا ايها السادة . حسنا ، تفضلوا .. بعدكم .. كلا .. هذا صحيح فأنا ضيفكم .. ايها السائق ، الى ادارة البوليس .

زمجر جانيمار : ايها الوغد . سوف تتخلى عن عجرفتك هـذه بعد قليل . سوف اعلمك انا كيف تقتل امناء المكتبات .

ــ لانك تتصور اننى .. آه . هذا غريب جدا . ولديك دليل طبعا .. اعنى دليلا اكيدا قاطعا ، لا يقبل الجدل .

ــ ليس لدى دليلا واحدا ... وانما دليلين .

عرف راوول هذين الدليلين فى اليوم التالى عنـدما مثل امام قاضى التحقيق فورميرى . كان قد استجم تماما ، وعاد يشعر كأنه صغر عشر سنوات . ولهـذا خضع للاستجواب عن طيب خاطر . ولكنه وضح موقفه على الفور بأن قال :

ــ لن نتكلم عن ارسين لوبين فالمعروف ان بصماته اختفت من ارشيف البوليس القضائى منذ وقت طويل ، ولهذا لا يحق لاحد ان يزعم اننى لوبين خاصة وان المقارنة تطربنى كل الاطراء .

ــ ولكن المفتش العام جانيمار ...

ــ اذا اردت الحقيقة يا سيدى القاضى فانه يخرف . ان لوبين مات والجميع يعرفون ذلك .

ــ ليكن . آه . اريد ان اقول ... لنفرض انك لست لوبين فان هذا لا يمنع انك قتلت ذلك الرجـل التعس .. امين المـكتبة .. فمعى ، اولا ، خطاب توصية ممهور بتوقيع جابرييل تابارو يوصى فيه براوول دابنياك لسكرتير شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ، ولست بحاجة الى ان اقول لك ان جابرييل تابارو ، عضو المجمع والضابط بفرقة الشرف لم يكتب هذا الخطاب اطلاقا .

ــ ولكن ...

ــ انتظر .. وهناك ايضا سلاح الجريمة .. عثر البوليس على مسدس القاتل بجوار الجثة وتنقصه رصاصة ، وهى نفس الرصاصة التى استخرجت من جثة جاستون سيرول . وتقرير الخبراء فى هذه الناحية اكيد . ثم ان مقبض المسدس عليه بصمات واضحة . وهى بصماتك انت يا مسيو دابنياك .

ــ كيف ؟

اقول لك ان بصماتك التى اخذناها امس هى نفس البصمات التى رفعناها عن المسدس .. وهذا يعنى انك انت القاتل دون اى نزاع .

ــ ترانى شديد الجزع لذلك .

ــ عفوا ؟

ــ من ناحية ، انت متاكد اننى لست راوول دابنياك .

ــ طبعا .

ــ ومن ناحية اخرى لا تتردد فى اتهامى بارتكاب جريمة قتل ؟

ـ طبعا .
ـ اذن فانا لا ادرى اين انا بالذات ، لاننى اقسم لك اننى لم اقتل احدا ، فبصفتى لوبين فان يدى غير ملوثتين بالدماء ، ولهذا فاننى اتساءل اذا لم اكن لوبين .
صاح القاضى : لا أسمح لك بالمزاح .
قال راوول متساهلا : مهلا .. اننى معك فى انهذين الدليلين مثيرين للقلق ، ولكن شـــيئا من اثنين ، اما ان اكون لوبين او لا اكون لوبين . هل انت معى ؟ فاذا كنت لوبين فانت تعلم طبعا انك لا تستطيع احتجازى فى السجن .. اتفقنا ؟ .. غــدا سأكون هربت اذن . ولكن اذا هربت فسوف يكون ذلك دليلا على اننى لوبين بالطبع . ولما كان لوبين لا يقتل فسوف اثبت براءتى . وهذا الاستدلال يبدو معقدا بعض الشىء طبعا ، وارى يا سيدى القاضى انك تشعر كأنك تائه .
صاح فورميرى : كفى .
ـ حسنا .. حسنا .. لا داعى للغضب .
ـ آه ، ليس لدى الآن اى شك ... انت لوبين طبعا .
ـ فى هذه الحالة يؤسفنى أن أودعك بعد قليل .
ـ هذا ما سوف نراه .
ـ اذا بقيت فى السجن فلن اكون الا راوول دابنياك عندئذ .
كان القاضى يكاد يستشيط غضبا فى حين كان راوول يبتسم . وكان الكاتب يصغى فاغرا فمه . وصقل راوول ثنية بنطلونه وعقد يديه على ركبتيه وقال :
ـ سيدى القاضى ، ارجوك أن تصغى الى .. مهما يكن فانا هنا لمساعدة العدالة ، وفى هذه اللحظة ، مع هذا الايقاف المضحك فانك تحول بينى وبين اللحاق بالقاتل الحقيقى ومن تسليمه لك . ليس لدى الوقت للبقاء فى السجن ، افلا تريد اطلاق سراحى حقا ؟
قال مسيو فورميرى وهو يكاد يختنق : اعيدوه الى السجن .
ـ دقيقة واحدة . انت تعلم تماما اننى اتخــذت احتياطاتى يا سيدى القاضى ، ولهذا يجب أن اخطرك ... اننى اعددت فرارى مسبقا ، وعليك ان تفكر فى الامر اذن .
وكان الحراس قد أمسكوه من كتفيه فتخلص منهم بهزة واحدة وقال :

ـ اننى اختار الاستاذ هنرى بورناد محاميا لى .
بعد ساعة من ذلك ، وفى زنزانته بسجن السانتيه ، كان لديه كل الوقت للتفكير . وكان لابد له من أن يعترف مرة اخرى بأن الموقف لم يكن جميلا ، فان العدو ادار اللعبة بكل حذق وعرف كيف يستغل اقل الهفوات . وكانت الهفوة الاولى امساكه بالمسدس فى بيت البارون ، فقد كان الخادم يلبس قفازا ، وكان المقبض قد مسح تماما وازيل ما كان عليه من بصمات ، فهل كان الامر مدبرا ؟ أم انهم استغلوا الموقف فحسب ؟ .. صــفوة القول ، سرقوا بصماته بطريقا ما . كان العدو بعيد النظر ، ويتصرف بدهاء كبير . اما الهفوة الثانية فهى احتفاظه بالخطاب الممهور بتوقيع تابارو بدلا من اتلافه ، ولم يكن امام البارون الا ان يلتقطه فى الليلة التى استولى فيها على المذكرات وفتش جيوب راوول ، وقد عاد بعـد ذلك الى مكان الجريمة ، ولم تكن قد اكتشفت بعد ، ووضع هناك الخطاب والمسدس ، وبذلك تم توقيع لوبين على الجريمة ، ولم يكن على البوليس الا ان يقوم بالباقى ، وهكذا غلب لوبين بأسلحته هو بالذات وأبعد عن ساعة المعــركة واصبح مضطرا الى اللجوء للحلول اليائسة . وكان يتعين ان يتقدم بعد يومين الى قصر يونرفيل متقمصا شخصية ليونس كتارا . واذا تهرب الاستاذ بورناد فسوف يضيع كل شىء .
ولكن لوبين لم يكن يمقت الاحساس بالهزيمة ، فأخرج من بطاقة حاكتته ورقة وقلمـــا صغيرا افلتا من التفتيش وبدا يكتب خطابا لجريدة ايكو دى فرانس :
مرة اخرى أتقلب ضجرا وسأما فوق فراش من القش الرطب بالســـجن استمد من براءتى القوة لكى اعلن سخطى للملأ ، فهم يتهموننى ، انا ، ارسين لوبين باننى قتلت ذلك المسكين جاستون سيرول ، كأننى وقد طوانى الموت منذ سنوات لم اعــد شــبحا لا يستطيع ايذاء احد . ولكن المفتش العام جانيمار ، فى عجزه عن القبض على الجناة الحقيقيين لا يتورع عن اعتقال الاشباح ، ولهذا السبب ، وعلى الرغم من نفورى من استغلال امتيازاتى كشبح ارانى مضطرا لاختراق الجدران والعودة من العالم الاخر للانقضاض على القاتل وارغامه على الاعتراف بارتكابه جريمته . ولن اتأخر عن اطلاع الجمهور بنجاح خطتى .
عفريت ارسين لوبين

وعندما حان موعد تناول العشاء دس راوول الخطاب فى يد أول حارس التقى به ومعه ورقة مالية كبيرة ، واسرع الحارس فاخفى الخطاب والورقة فى جيبه ، وكان راوول قد استخدم هذه الطريقة فى ظروف اخرى مماثلة ولكنه فى هذه المرة اعتمد على ارتشاء الرجل وربح ، وكان أن ضج العالم فى صباح اليوم التالى بالضحك .

كان الناس يتخاطفون الجـــريدة فى الشارع ، وراح الجميع يتخاطبون دون أن تكون بينهم سابق معرفة ويهنئون بعضهم البعض ... انه هو حقا . كانوا يشبهون بالامس فى انه على قيد الحياة .. سوف يغير هذا الكثير من الامور . وتألقت العيون فى انفعال يعبر بسذاجة عن فرحة الناس ، فقد عاد المغامر ذو الابتسامة الساخرة ، واصبحت الحياة اليومية بما فيها من صخب وشقاء اكثر احتمالا ، فقد كان هناك رجل بعيد المنال وفائق المقدرة يضع مواهبه الفذة المديدة وذكاءه الخارق ومقدرته العجيبة فى خدمة العدالة . وعلى الفور بدأت المراهنات ، فى المصانع ، وفى الترام وفى الحانات وحتى فى الاوساط البورجوازية . سوف يهرب .. لن يهرب . ولم يجدوا الوقت للجدل والنقاش لان بيانا وجيزا عرفوا منه فى نفس المساء ان السيد راوول دابنيال ، المشتبه فى انه أرسين لوبين قد اختفى من السجن بطريقة غامضة ، ولم تزد مدة ســـجنه عن ثمان واربعين ساعة . ووجدوا مكانه محاميه الاستاذ هنرى بورناد ، فاقد الرشد وعاجزا عن تفسير ما حدث له .

وساد الجنون والانفعال ، ونسى الناس كل شىء .. نسيوا التوتر الدولى ومغامرات أوائل الطيارين وفضيحة كايو .. آه .. كانوا يعرفون وسائل لوبين عندما يتحـــدى ، ومرحه الساخر وحيله العديدة وخيـــاله الواسع الخصب . ولكن كيف تمكن من ذلك ، وما هى التواطؤات التى ضمها الى صفه فى مثل هذه المدة الوجيزة ، وبأية معجزة استطاع أن يتغلب على الرقابة الفعالة التى كان يخضع لها . وقد شرح لوبين لى بعد ذلك بمدة طويلة ، وبعد موت الاستاذ بورناد طريقة فراره العجيب ، وما زلت اسمعه وهو يقول :

« كان يتعذر على أن اكشف الحقيقة عندئذ . ومهما يكن فانا كالحواة لا احب ان اكشف عن الاعيبى ، وكان ذلك الدور من الحماقة والبساطة بحيث يحمر وجهى خجلا وأنا أتحدث عنه » .

وخيل لى ان وجهه يضطرم بالانفعال وهو يقول ذلك ، مبتسما ابتسامته الساخرة المعروفة عنه . وانحنى نحوى بطريقة صبيانية وربت بيده على ركبتى فى رفق وهو يقول :

ـ لا تقل لى انك لم تفهم .. كنت قد اعددت العدة لهذا الفرار منذ وقت طويل ، بدافع الحرص لا غير . وقد حذرت ذلك القاضى المتزمت . كنت قد أعددت فرارى مسبقا ، تماما كما يعد المرء مبلغا من المال ويخبئه مسبقا لكى يواجه به كل الاحتمالات . وانا مضطر ان أتوقع كل شىء ، حتى حماقات البوليس ، ولهذا فان الاستاذ بورناد كان يعرف ما يتعين عليه أن يفعل بمجرد أن أطلب مساعدته .

واضطجع لوبين فى مقعده الى الوراء وراح يضحك تلك الضحكة الساخرة الرنانة بحيث طاب لى الاستماع اليها ، واستطرد يقول وصوته يتهدج مرحا :

ـ ما كان المسكين بورناد ليرفض طلبا . ولكن هذه قصة اخرى . لقد اطلق بناء على تعليماتى شاربا كثا ولحية طويلة ملساء ، وهى من الادوات التى تصلح للتنكر . ولعل ذلك كان مزعجا ومضايقا له ولكنه كان ضروريا لى . وقد دخل زنزانتى فى ذلك الصباح مرتديا معطفا واقيا من المطر ، لان الدنيا كانت تمطر ، ويرخى قبعته فوق عينيه . وبعد نصف ساعة رأى الحراس رجلا ينصرف له شارب ولحية ويرخى قبعته فوق عينيه ويرتدى معطفا واقيا من المطر ، ولم يخالجهم الشك لحظة واحدة فى ان ذلك الرجل هو خادمك الذى يحدثك الآن ، فقد جاءه بورناد ببعض الشـــعور المستعارة ... وهكذا نجحت الخطة .

ـ وهو ؟

ـ حسنا ، قبل ان انصرف لكمته فى رفق تحت ذقنه ، وكان هذا امرا متفقا عليه من قبل ، فما كان يجب لاحد ان يحسبه شريكا لى ، ولهـــذا السبب لا زال جانيمار يتساءل حتى اليوم كيف استطعت ان اتنكر .

وانصرف لوبين بعد ذلك ، وكان لابد لى من الانتظار سنوات طويلة قبل ان اراه ثانية .

***

فى اليوم التالى لفرار لوبين تقـــدم رجل هزيل البنيـــة ضيق الكتفين يرتدى جاكتة براقة فضفاضة ويضع على عينيه عوينات

نحو الباب الحديدى لقصر يونرفيل . وكان اشيل هو الذى فتح له ، وخاطبه الرجل فى شىء من الخجل :

ـ انا ليونس كتارا .

قال اشيل فى شىء من التوتر : ولماذا اتيت من المحطة سيرا على الاقدام ؟ .. كان فى مقدورى أن آتى لاصطحابك . اتبعنى ايها السيد . انهم فى انتظارك فى غرفة المكتبة . اعطنى حقيبتك .

ورافق السكرتير حتى القصر وتركه مع مسيو فيرانج . وتأمل هذا الاخير الوافد الجديد فى شىء من التسامح المتعجرف ثم قال :

ـ هل تعرف ما انتظره منك يا مسيو كتارا ؟ .. لا ريب ان ابنة اخى قد ذكرت لك ذلك . هل انت على دراية بمثل هذا العمل ؟

ـ اظن ذلك ..نعم . آه ، اخيرا ، انه ليس بالعمل الصعب .

ـ اريد فهرسا ابجديا بأسماء المؤلفين وآخر بعناوين الكتب .

ـ طبعا . لعل ذلك .. معذرة .. سوف يقتضى هذا العمل مدة طويلة .

ـ لا اهمية لهذا . انت هنا فى بيتك يا مسيو كتارا .. وقتى لا يسمح لان اريك القصر لانه لابد لى من ان امضى الى المصنع ، ولكن ابنة اخى سيسرها أن ترافقك ... لوسيل ، هل لك ان تأتى لحظة ؟

ظهرت الفتاة قادمة من الصالون ، وما ان رأت السكرتير حتى بانت عليها امارات خيبة الامل . وبسطت له يدا رخوة فى حين قام العم بالتقديمات .

ـ حسنا . سأنصرف الآن يا مسيو كتارا ، وستمضى بك لوسيل الى غرفتك .

وودعه مسيو فيرانج بتحية جافة . وقالت لوسيل : تفضل ، من هنا .

وتقدمته نحو الدرج ، واوشك ان يقـول : لقد سبق لى ان اتيت .

وأحس بارتياح كبير وهو يصعد الدرج خلفها .. قبل ذلك ببضعة ايام كان موجودا فى القصر يتقلب على خوفه اثناء صليل جرس الانذار . اما اليوم فقد دخل القصر الكبير مدعوا . كان يعبد هذه المتناقضات والمواقف المقلوبة ، فقد كانت بهاء حياته الحـافلة

بالمغامرات ، ولما كان يحب المداعبة بطبعه فقد استمتع مسبقا بالدهشة التى ستشعر بها لوسيل عندما يعترف لها انه ليس كتارا وانما ريشار ديمون الصحفى ، وسار خلفها وهو يتظاهر بانه يلقى حوله بنظرات حافلة بالاحترام والاعجاب .

ـ هذه هى غرفتك يا مسيو كتارا .. انها تطل على الحديقة .

ـ شكرا .. انها غرفة جميلة ، واننى اسمع العصافير .. اننى أحب العصافير .

كان يحاول ان يبدو رجلا عاديا لا شأن له ، مضحكا بعض الشىء .. وراق له كثيرا أن يشعر بانه يتسبب فى قلق الفتاة لانه لم يكن ذلك الذى كانت تنتظره وانها كانت تظن ان ذلك الصحفى الغامض الذى يشغل ذهنها لن يأتى بعد .

ـ هل تريد أن تطوف بالقصر الآن ، أم تؤثر ان تستريح قليلا .

ـ بل اريد ان اتحدث معك .

وكانت لوسيل قد مشت نحو الباب ، فتوقفت وتحولت نحو الرجل الهزيل الذى تغير صوته فجأة ، وبدت الجاكيت الفضفاضة انيقة عليه .. خلع عويناته وومضت عيناه خبثا وانحنى امام الفتاة وهو يكنس الارض بقبعة خيالية ويقول :

ـ ريشار ديمون فى خدمتك .

ذهلت الفتاة ولم تدر ماذا تقول او ماذا تفعل .. هل يجب ان تضحك او أن تغضب . وعقدت يديها على صدرها وراحت تتأمل فى فزع تقريبا ذلك الوافد الجديد الذى ظهر هكذا فجأة ردا على ندائها الصامت كما يظهر الامير فى احدى قصص الحوريات . وقال الصحفى :

ـ آه ، حسنا . الم اعدك بأننى سأعود . بدا لى انه ادعى الى الحرص أن اتقمص شخصية عادية ، فان اعداءنا يسهرون ، وثقى بما أقول ... ولكن من ذا الذى يمكن أن يشتبه فى كتارا ؟

ـ هل تتنكر كثيرا يا مسيو ديمون .

ـ كثيرا جدا ، لدواعى مهنتى ، واجرؤ فاقول اننى افلح فى هذه المهنة . وسوف ترين .

وفى لمح البصر بدا انه ينكمش وخبت نظرته تحت عويناته وتهدلت الجاكيت عند كتفيه كما لو كانت قد بليت وصمّ صوته وعاد الى تأتأته وتردده وهو يقول :

ـ هل ابدو ... اذا اردت ان تسمحى وتقبلى الوصف ، هل ابدو كأننى شخص اخرق .

صفقت لوسيل بيديها وصاحت كطفلة فى المسرح : مرة اخرى !

قال ريشار ديمون : كلا . انسيت اننى هنا لعمل خاص ... كفى هزلا .

ـ ولكن اين وضعت ليونس كتارا الحقيقى .

ـ صه .. فى النفتالين .. اعلمى يا لوسيل انه لا يجب استجوابى ابدا . ولك أن تطمئنى من ناحيته .

ـ وهل تعرف كيف تؤدى عمله ؟

ـ ولكنه من ابسط الاعمال . وقد سبق لى أن اديت اعمالا اكثر صعوبة .

كان يبتسم . كان سعيدا بصورة غير معقولة . صوت صغير كان يعرفه جيدا كان ينفخ فى اذنه ويقول : يا لك من ممثل ! الا تخجل من القيام بدور ماريفو مع هذه الطفلة التى تبدى نحوك كل هذا الاعجاب ؟ .. ما الذى يمنعك من أن تمشى على يديك فى نفس الوقت وان تسير بقدميك على الجدران ؟ .. وكان يرد على نفسه فيقول : لن تتجاوز الامور اكثر من هذا ، وانى اقسم على ذلك . ولكن يجب انتفهم أن الفتاة المسكينة كانت مريضة . تعانى من الوحدة واننى فى هذه اللحظة ارد لها صحتها واعيد اليها الابتسامة وحب الحياة . ثم انك تضايقنى .

قالت لوسيل : سأريك القصر الآن .

ـ لا تزعجى نفسك بمرافقتى .. وارجو المعذرة .. اننى اوثر ان اكون بمفردى وانا اطوف بالقصر .. وبهذه المناسبة ماذا من امر برناردان ؟

اجابت لوسيل : انه لم يعد بعد ، وقد بدا القلق يساورنا من اجله . اذا طال غيابه فسوف يبلغ عمى البوليس ، فلعل شيئا قد وقع له . اننى اعلم تماما انه اعتاد أن يمضى ويأتى كما يريد . لقد كان يعتز دائما بحريته .

ـ وهذا هو السبب بالذات . سوف يتملكه الغضب جدا اذا نحن اطلقنا الشرطة خلفه . صدقينى . من الاوفق الانتظار قليلا . استعملى نفوذك مع مسيو فيرانج ، وسأرى من ناحيتى ان كنت أستطيع أن أفعل شيئا . آه . كلمة أخرى . عاملينى دائما بتحفظ

امام الآخرين ، وهذا أمر يسير طبعا فانا لا اعتبر شيئا بالنسبة لك ... لست هنا الا مجرد شبح .. وخيال . لنفترق الآن .

ومضى الى غرفة المكتبة وراح يتأمل فى حزن وأسى جدرانها التى تغطيها الكتب . كان أمامه اربعة عشر أو خمسة عشر الف كتاب على الاقل ، وعليه أن يقضى الاسابيع الطويلة فى تدوين بطاقات لها . ولكنه لن يفعل ذلك طبعا فان امامه عملا افضل ، ولكن ماذا ؟ .. لم يكن يدرى عم يجب أن يبحث ، فلكى يصل الى نتيجة فعالة لابد أن يكون الشيخ برناردان تحت يده هو والمذكرات . اما البارون فسوف يظهر ان عاجلا وان آجلا ، وعندئذ مضى راوول الى المعرض ودهش على الفور لسعته المتناسقة . كان عبارة عن قاعة كبيرة ينيرها عدد من النوافذ المرتفعة تطل كلها على فناء القصر ، وثمة نقطة غريبة .. كان هناك فى آخر القاعة جزء مسطح مرتفع أشبه بخشبة المسرح ، ولعله كان مخصصا فيما سبق للموسيقيين ، عندما كان صاحب القصر يقيم الحفلات الراقصة . وكانت مجموعة اللوحات رائعة يقف المتأمل امامها طويلا . وكان راوول قد سبق له ان رأى اجمل اللوحات على ضوء مصباحه الكهربى ولكنه كان يقف الآن أمام مجموعة نفيسة لا تقارن بغيرها من اللوحات وتستحق عن جدارة تركيب جرس الانذار ووجود المسدس . وتملكه العجب وتقدم فى بطء وهو يحاول ان يكتم وقع خطواته فوق بلاط القاعة المرمرى ذى اللونين الابيض والاسود المتعاقبين والذى بدا كرقعة الشطرنج . كانت لوحات كثيرة ، لرهبان وقساوسة متشابكى الايدى وبعض رجال البلاط وهم يمتشقون سيوفهم وبجوارهم قضاة يبدو التردد فى عيونهم بين غيرهم من اصحاب الوجوه المتأملة والصارمة . كان يبدو انهم يضيفون الى صمت المكان سمة غامضة من الاستياء . وكانت هناك لحسن الحظ سجادة كبيرة يدل مظهرها على انها تلقى عناية وصيانة كبيرتين ، كانت تقطع رتابة تلك الوجوه الصارمة ، نسجت بتلك السمات المزرقة التى تميزت بها المدرسة الفرنسية وتمثل بلاط الملك فرانسوا الاول ، وفى بدايتها رقعة شطرنج والملك واقف يبسط يده لكى يمسك بيدقا فى حين كان خصمه غارقا فى التفكير . وكان الرسم فى منتهى الرقة ، وعند قدمى الملك تكوم تريبوليه وراح يداعب كلبا سلوقيا فى حين بدا النبلاء يتمشون حولهم وهم يبسطون أيديهم

لسيدات يرتدين ثيابا براقة . وكانت ثنية الثياب تبدو ثقيلة بعض الشيء وتدل على غشومية خرقاء ويكاد أسلوب النهضة ينفلت بالكاد من أسلوب القرون الوسطى . ولكن كان هذا المزيج المتوتر والطبيعى فى نفس الوقت ينم عن شاعرية نادرة .

تراجع راوول قليلا لكى يتأمل بطريقة افضل ذلك المزيج العجيب ثم انتقل اعجابه الى انسجام الالوان وتوافقها العجيب . كانت قطعة فنية رائعة لو انه رآها فى وقت آخر لظلت تلح عليه ليال طويلة . وافلتت من صدره زفرة وابتعد قليلا لكى يقف أمام لوحة للقديس جان بابتست .. جهد كبير بدون فائدة .. وبجوارها فارس جالس فى حانة يعب الشراب فى صخب مع زميلين . كانت اللوحة مملوءة حركة ولكن راوول لم يكن يحب اللوحات ذات الابعاد الطـــويلة والاعمال الطموحة اكثر مما يجب . كان يفضل اللوحات الصغيرة كلوحة يعقوب الذى ينازل الملاك .

ــ رباه ! .. القديس جان .. ويعقوب .. ودارتنيان !

عادت كلمات الاب برناردان الى ذهنه فجأة .. هل هذا ممكن ؟ .. القديس جان بعد يعقوب .. ولحظ راوول عندئذ ان المكان حول اللوحة التى تمثل القديس جان افتح من غيره فارتد الى الخلف . لم يكن هناك اى شك . كانت فى ذلك المكان لوحة اخرى تغطى مساحة اكبر . واطبق عينيه .. كم من مرة تجلت له الحقيقة فجأة وفى وضوح تام ! وأحس بأن الحقيقة تتكشف امامه فى هذه اللحظة بالذات ، وانها ستنقض عليه كما ينقض الوحى على الفنان ، وكل ما عليه هو ان يبقى مكانه والا يتحرك وأن يترك لذهنه العنان لكى يهتدى الى السر الغامض الذى يحاول ان يتبدى له .

القديس جان يخلف يعقوب ... القديس جان يخلف يعقوب .. حسنا ، وبعد .. آه ، أظن اننى فهمت .

وانزل اللوحتين من مكانهما وعلق لوحة يعقوب مكان لوحة القديس جان . وغطت اللوحة الاخيرة الجزء الفاتح من الحائط تماما . وهكذا كانت لوحة يعقوب هى التى كانت تشغل هذا المكان فيما سبق ، وقد خلفتها لوحة القديس جان .

واذن ؟ .. والفارس ؟ .. دارتنيان .. ما دوره فى كل هذا ؟.. انطفأ الوميض السريع الذى تألق فجأة وسط الظلمـــات وتوترت كل اعصابه وراح يفكر . كان هذا غباء كبيرا .. ان يلمس باصبعه

شيئا على جانب كبير من الاهمية ثم يعود فيتخبط من جديد .

وفجأة ، عرف بفريزته انه ليس وحده فرفع عينيه فى غير مبالاة الى فترينة تضم مجموعة من النياشين ولكنه لم يحفل بالميداليات والمجوهرات والنياشين . وعكست مرآة الفترينة قاعة المعرض . واكتشف خلفه ، بجوار المدخل طفلة صغيرة عرفها على الفور .. فاليرى .. حفيدة برناردان . واذا كانت الطفلة قد داخلها الخوف من ريشار ديمون فانها لم تشعر بأى خوف من ليونس كتارا ، لان هذا الاخير يمت الى عالمها ولانه كان خجولا مثلها ، ولعله بحاجة اليها لانه خيل لها انه تائه قليلا فى هذا المعرض الكبير . وتحول راوول فى بطء وقال :

ــ فاليرى .

واتخذ صوته اشد اللهجات اقناعا ، وجاءت اليه باسطة يدها .

ــ صباح الخير يا فاليرى .. اترين ؟ .. اننى اتفرج فى نفس الوقت . ليست لدى كراسة جميلة مثلك ، ولكننى اسجل اشياء فى راسى . هل لك ان ترينى اياها ؟

كانت تحمل تحت ذراعهــــا الايسر كراسة من مائة صفحة ، زرقاء ، وقد كتبت على غلافها اسمها بعنــــاية كبيرة « فاليرى فوتيريل » . وكانت تضم مواضيع انشاء ومسائل حساب وملخصات.

ــ أراهن انك تلميذة مجتهدة .

اجابت الطفلة فى سذاجة : نعم .

ــ وانك تذاكرين دروسك جيدا .. وان لك ذاكرة قوية .

ــ اوه ، نعم .

ــ لنتحقق من ذلك اذن .. انظرى حولك . هل انتقل شيء من مكانه ؟

ركزت الطفلة ، وبدا عليها الجد والاهتمام فجأة فى ارادتها لكى تعطى لهذا السيد الظريف انطباعا حسنا عنها . واجابت :

ــ كلا . كل شيء كما هو .

ــ هل يأتى جدك الى هذه القاعة كثيرا ؟

ــ نعم .

ــ وهل يقترب من الفترينات .. واللوحات .

ــ نعم .. فهو الذى يعنى بها وينظفها .

ــ ثم ؟ .. ماذا يفعل غير ذلك ؟

ترددت لحظة وقد احمر لونها وخافتت من صوتها وهى تقول :
ــ انه يمشى فوق السطح فى بعض الاحيان .
ــ ايه يمشى فوق السطح ... هل انت واثقة ؟
ــ نعم .. وهو يمشى على اربع .
ونظرت الى راوول خفية وهى تخشى ان تكون قد كشفت عن شىء يمكن ان يعطيه فكرة سيئة عن جدها ، ولكنها لم تلبث ان ابتسمت عندما رات ان السيد قابل اعترافها هذا باهتمام كبير .
ــ ومتى يمشى فوق السطح ؟
ــ فى الليل .. صحوت مرة ورايته ، وقد ساءه ذلك واوشك ان يضربنى .
ــ فاليرى ...
كان الصوت صوت لوسيل ، ووقفت الطفلة على الفور بعتبة المعرض .
ــ آه . انت هنا يا فاليرى . الا يمكنك ان تردى على عندما اناديك . معذرة يا مسيو كتارا . انها فضولية كالقطة . اننى ابحث عنها لكى اجبرها على العمل قليلا .
وكانت قد اقتربت واردفت تقول فى صوت خافت :
ــ جدها هو الذى يهتم بها عادة . ولكن يجب ان احل محله طبعا .
وضع امين المكتبة المزعوم يده على راس فاليرى وقال : وهل انت راضية عنها ؟ .
ــ نعم .. انها طفلة رزينة جدا .
ــ فلنمنحها اليوم عطلة اذا سمحت .
وربت على خد الطفلة وقال : امضى والعبى يا فاليرى ، ولنـدع الاعمال الجادة الى الغد .
ــ شكرا يا سيدى .
وانطلقت وهى تعدو .
وقال راوول وهو يستعيد صوت ريشار ديمون : لعلك تتساءلين لماذا ؟ .. ذلك لاننى بحاجة الى أن أوحى بالثقة لهذه الطفلة ، فهى تعرف اشياء ...
ــ اية اشياء .
ــ لا ادرى . ولكننى سأسالها شيئا فشيئا . لا تنسى انها كانت

تتبع جدها فى كل مكان وانها كانت تسمعه يتكلم .. هل يحزنها غيابه ؟
ــ لا اظن ، فهى طفلة كتومة جدا ، وقد رباها برناردان فى خشونة . وقد قلنا لها انه سافر لقضاء عمل ، ولعمرى سرها ذلك .
قال ديمون : هل تريدين ان ترينى البستان ؟ ان لدينا الوقت . ويجب أن يبقى خادمك ، ذلك الفر الساذج الذى اقبل من باريس والذى يطوفون به ارجاء البيت .
ومشى خلف لوسيل بخطوتين فى احترام واستحياء وهو محنى الظهر قليلا ، وفى وضع ذليل حقا . وطاف بالدور الارضى للقصر ومر امام المطبخ حيث تعمل ابولين وخرج الى البستان ، وعرف وهو فى طريقه الباب الصغير الذى خرج منه البارون وشركاؤه فى الليلة التى اختطفوا فيها برناردان . واذ اصبح بعيدا عن المقيمين بالقصر اعتدل فى وقفته وسار بجوار لوسيل ، وقال :
ــ لهذه النزهة غرض آخر ، فهناك ما يحملنى على الظن بانكم جميعا مراقبون . لا تسالينى من .. فما زال الوقت مبكرا لكى ارد عليك .. ولهذا يجب أن اعرف عن ظهر قلب طبوغرافية القصر والبستان وكل ما يحيط بهما ، لاننى واثق ان المعركة الحاسمة ستدور هنا . كلا . لا تخافى . لن يقع لك شىء . اسمعى ، هذا باب آخر ... فأين يؤدى ؟
ــ لا يؤدى الى اى مكان انما هناك درب من الناحية الاخرى يتصل بالحقول . كان هذا الباب فيما سبق يؤدى الى مقبرة صغيرة ملحقة بالقصر ، وبعد الثورة أصبحت هذه المقبرة عامة ، وهدموا جدرانها ، وقد ضمت الآن الى مقبرة يونرفيل .
فتح راوول الباب ، وما كاد يفعل حتى راى شبحا يختفى فى زاوية الجدار ، ولكنه لبث جامدا لا يتحرك حتى لا يخيف لوسيل . ولم تكن قد لحظت شيئا :
ــ جميع آل يونرفيل فى هـذه المقبرة .. هل تريد ان تلقى نظرة ؟ .. ان المدخل قريب من هنا .
واجتاز الدرب وانعطفا الى اليسار فاذا بهما فى الطريق القادم من البلدة والمؤدى الى الباب العمومى للمقبرة . وكان راوول يردد البصر حوله لعل الرجل لا يزال يحوم فى المكان . وهو بكل تأكيد احد خدم البارون . ومشت لوسيل فى ممر طويل تحفه الاشجار

ثم انعطفت الى طريق ثانوى افضى بها الى صف من القبور القديمة. وكان راوول يفحص الانحاء فى حذر كبير . وكان الصمت المطبق يثقل على الصخور والصلبان وباقات الزهور الذابلة . وقرأ وهو شارد الذهن تقريبا الكلمات المحفورة فوق الشاهد الرخامى .

هكتور يونرفيل
١٧٧٢ – ١٨٥١
كان كريما نحو الفقراء
صلوا من اجله

هكتور يونرفيل ، صاحب القصة الذى تحدث الاستاذ فرينيزو عنه .. وعاد الحـــديث الى ذهن راوول .. فرار لويس فيليب وعودته الى يونرفيل . ورأى فجاة ، على مقربة من القبر شاهدا آخر اكثر تواضعا وعليه الكلمات التالية :

ايفاريست فوتيريل
١٨١٦ – ١٩٠١

ماذا ؟ .. فوتيريل ؟ .. لقب اهـــل فاليرى ؟ .. ايفاريست فوتيريل ، الخادم الوفى المخلص الذى تكلم عنه موثق العقود ... اذن فان فاليرى هى الوريثة المباشرة لوكيل الكونت يونرفيل الشاب .. ايفاريست الذى رافق الملك الى تروفيل .. واذن .. فان الشيخ برناردان ...

وامسك راوول بذراع لوسيل وســـألها قائلا : قولى لى .. برناردان ؟ .. ايمت بصلة القربى لايفاريست فوتيريل ؟

ـ انه ابنه .

ومن جديد ، احس راوول بذلك الانبهار الذى ومض فى ذهنه فى المعرض . ومرة اخرى خبا الوميض واكتنفه الظلام .. طبعا .. كانت العلاقة واضحة بين السر الغامض وبين فوتيريل ... ولكن ما هو هذا السر ؟

واردفت لوسيل تقول : لقد عاش برناردان فى القصر طـوال حياته . لعب فيه وهو طفل ، تماما كما تفعل فاليرى الآن ، وانني

لاتساءل اذا لم يكن هو صاحب القصر الحقيقى . لقد اختفى آل يونرفيل ولكن آل فوتيريل ما زالوا باقين .

قال راوول فى حدة : كررى .. أعيدى هذا القول .

نظرت لوسيل اليه مشدوهة وقالت : ولكن هذا صحيح . لقـد مات آل يونرفيل ، ولكن آل فوتيريل يتعاقبون ، ابا عن جد وابنا عن اب .

تمتم راوول : آه .. هو ذلك .. هو ذلك حقا .

وفجاة ، وبذهنه المتوقد العجيب الذى يجعله يثب الى النتائج المنطقية دون أن يتوقف فى المراحل المتوسطة عرف أن فاليرى تتعرض للخطر بدورها هى الاخرى وأن الاشقياء الذين لم يكن هناك شك فى أنهم لم ينالوا بغيتهم من الرجل العجوز لا يسعهم الآن الا أن يحاولوا اختطاف فاليرى .. وتذكر الشبح الذى سارع بالهرب عند زاوية الجدار وتمتم يقول : كلا .. لن أغفر لنفسى ابدا .

سألته لوسيل وقـد ارتبكت ازاء القلق الذى رأته على وجـه زميلها : ما الخبر ؟

ولكن راوول امسكها من يدها وجرها نحو الباب . وفتشت عيناه الممرات وحواسه كلها متوقدة تسجل اقل صوت .. طبعا .. اذا كانوا قد راقبوا القصر فذلك لانهم ارادوا التأكد من خلو الطريق . كان البارون موجودا ، ولعله كان قريبا جدا . لم يخمن طبعا من الذى يختفى تحت مظهر هذا الموظف الجديد الذى تدل هيئته على انه غير خطر ، ولن يحاول احد الاعتداء على ليونس كتارا . ولكن لا ريب ان رجاله قد أخبروه بلا ريب ان لوسيل التى لا تخرج الا فيما ندر . كانت فى هذه اللحظة بعيدة عن البستان .

وراح راوول يجرى تقريبا . وكانت الفتاة تجد صعوبة كبيرة فى اتباعه ، وكان الباب الصغير لا يزال مفتوحا . وسألها راوول :

ـ هل يقيم برناردان فى القصر ؟

ـ كلا . انه يسكن الكوخ الصغير الذى تراه هناك ، على اليسار ... ولكن دعنى ، فاننى أظن اننى سأقع .

أطلقها راوول وراح يجرى . واجتاز فناء الشرف وهو فى عجلة من أمره ، والتقى بأبولين : هل رأيت فاليرى ؟

ـ كانت هنا منـذ خمس دقائق . كانت تلعب أمام الباب ، ولا ريب أنها عادت الى الداخل .

ولكنه لم يكن مصغيا اليها ، فقد اسرع الى الكوخ فى خطوات سريعة وهو يصيح : فاليرى .. ردى على .. فاليرى .

وفتح الباب وتوقف ريثما يسترد انفاسه ، ولكنه كان قد عرف .

ـ فاليرى .

ودخل . وفتش المطبخ وغرفة الطعام والغرفتين الاخريين على عجل ... اختفت فاليرى . لم يكن بالكوخ اى مكان يمكن ان تختبىء فيه . لقد اختطفت تحت انفه وبصره وبعزم وسرعة يدلان على جراة غريمه ووقاحته . وفكر راوول : ومع ذلك فقد داخلنى الشك ، ولكن الشك لم يكن كافيا . آه . يا للوغد ! .. انه جدير بان يعذبها هى الاخرى ... وانغرزت اظافره فى راحتيه . ودار حول نفسه حائرا محاولا تجنب الخطر ، وقد احس بالذلة لانه اخذ على غرة . وتملكه الحزن بحيث تشنج حلقه .. هذه الصغيرة فاليرى .. الآمنة والجذابة بضفيرتيها الجميلتين وكراستها التى تمسكها بكل تلك الرقة ، ومسألة الحساب ... قطاران ... وزمجر يقول : آه ، لسوف اقتله .

وجاءت لوسيل وهى تلهث وقالت : حسنا . عم تبحث ؟

تمالك راوول نفسه على الفور وقال : فاليرى اختفت .

شحب وجه لوسيل بشدة ، واسرع راوول يساندها قائلا : لوسيل ، فى مقدورك أن تساعدينى . لم يفت الاوان بعد . انها لم تذهب بعيدا بالتأكيد . فلنبحث ... لا ريب هناك دليلا ما ... فلنفتش بهدوء ورقة .. ولنبدأ بالمطبخ .

اطاعته لوسيل ورافقته الى المطبخ ، وبدأت ترفع المقاعد ، ولكنه اسرع يقول : كلا . ليس هكذا ... البحث معناه النظر لكى نرى ان لم يكن قد نقل شىء من مكانه .. ان الاشياء تتكلم .

وراح يتقدم ويتراجع كما يفعل الرسام امام اللوحة . كان يحس بكل ضفيرة ، ولم تجرؤ لوسيل على أن تتحرك . وهتف فجأة :

ـ آه ... ما هذا ؟

وانحنى والتقط قصاصة من الورق من جانب الساعة الكبيرة ، وبسطها وصقلها بيده . واقتربت لوسيل وقرأت معه :

« هاتى معك بالخطاب المخبوء خلف غلاف التوراة . انا فى انتظارك أمام الكنيسة بالغابة . جدك » .

ادرك راوول انهم ارادوا الا يستخدموا القوة مع الطفلة ، فقد

خافوا ان تصرخ وتستنجد ولهذا اعطوها هذه الورقة واستمالوها الى الفخ . وهذا افضل وأسلم . التوراة .. لا ريب انها فى غرفة برناردان .

وعبر غرفة الطعام . كانت التوراة فوق الطاولة بجوار الفراش ، وكانت عبارة عن كتاب ضخم مجلد بالجلد ، وفى الغلاف من الداخل ، تجويف رقيق كان من السهل اخفاء ورقة فيه . ولكن المخبأ كان فارغا .

وهكذا سجل البارون انتصارا حاسما بعودته الى الهجوم ، فقد اضطر الشيخ برناردان ، فى المحجر ، تحت لسعة النيران الى ان يكشف لجلاديه وجود التوراة والسر الذى تضمه . كان هذا السر لا يزال موجودا قبل ذلك بخمس دقائق . لم يكتشفه احد ، وقد قالت ابولين : كانت هنا منذ خمس دقائق . ونظر راوول الى ساعته ... خمس دقائق . وما هى الدقائق الخمس ؟ انه يستطيع ان يلحق بهم بالسيارة بكل سهولة . آه .. لماذا دفعه الحرص الى ان يحمل ليونس كتارا على القدم بالقطار ؟

حاول ان يتظاهر بانه واثق من نفسه وبأنه سيد الموقف ولكنه كان يسمع فى داخله نبضات التوتر التى تدق دون رحمة او هوادة .

ـ لوسيل .. ماذا يوجد هنا من وسائل المواصلات ؟

ـ سيارة عمى .. ولكنه انطلق بها .

ـ وغيرها ؟ .. الا يوجد شىء آخر ؟

ـ بلى .. دراجتى .. وموتوسيكل او بالاحرى سيدكار ، كان ابى يستخدمه فى تنقلاته للرسم .

ـ واين هو ؟

ـ فى الجاراج . ولكننا لم نستخدمه منذ وقت طويل .

ـ سوف استخدمه انا . اصغى الى جيدا يا لوسيل .. اثناء غيابى .. اوه ، لن يكون ذلك طويلا .. سوف تنسين كل ما حدث ، وسوف تخرجين وتقرئين وتقطفين الزهور ، ولكن عليك الا تفكرى فى اى شىء .. هل تسمعين ؟ .. ومن ناحيتى انا ، سوف اعيد اليك الصغيرة . اتفقنا ؟

كانت تنبعث من هذا الرجل قوة وسكينة بحيث أن الفتاة ابتسمت وقد شعرت بالاطمئنان .

وامسكها راوول من كتفيها ونظر اليها مليا ثم قال : سوف تكون هنا الليلة .

ثم اسرع الى الجاراج ، وهناك بارك اشيل لانه كخادم امين اعتنى كل العناية بالسيدكار بحيث وجده راوول فى حالة صالحة ، ولكن المخزن كان فارغا ، ولحسن الحظ كانت بالجاراج بضع صفائح من البنزين ، فملأ الخزان بكل دقة رغم الدقائق التى تمر ثم دفع السيدكار الى الخارج وأدار المحرك وجلس امام عجلة القيادة . وضغط على الفرامل عندما بلغ المكان الذى تقف به لوسيل ، وكانت تنظر الى كل ما يفعل فى شىء من الذعر .

— تلك الكنيسة التى فى الغابة .. هل هى بعيدة ؟

— كلا . بعد اربعمائة متر . انطلق الى اليمين ، بعد البستان .

وانطلق منتزعا بعض الحصى . ورغم خطورة الموقف استمتع بالسرعة فى عشقه للميكانيكا . وراى جدران الكنيسة التى يكسوها اللبلاب ووضع قدما على الارض وتقدم محاذيا حافة الطريق وهو يفحص الغبار الكثيف فى هذا الفصل من السنة ، ولم يستغرق فحصه أكثر من بضع لحظات ، لانه لم يلبث ان راى الآثار ، وعرفها دون مشقة .. عجلات سيارة من طراز دنلوب . وقد عرفها بسهولة بسبب اضلاعها المميزة . وكانت هناك بركة صغيرة من الزيت فى المكان الذى توقفت فيه سيارة المختطفين وراى راوول ما حدث فى وضوح كما لو كان يرى فيلما سينمائيا . الطفلة الصغيرة تجرى وهى بالغة الانفعال « اين جدى » انه هنا ، وهو فى انتظارك . وتتقدم فى غير حذر ولكن يدا تكمم فمها وذراعا تحملها وتنطلق العربة .

وتمتم يقول : يا للأوغاد !

والقى نظرة الى ساعته . كان التأخير الآن قد بلغ ربع ساعة . وعاد للانطلاق وهو يفحص الارض من وقت لآخر متابعا آثار الدنلوب بين غيرها من الآثار . ولحسن الحظ كانت السيارات قليلة فى هذه الناحية النائية من نورمانديا . وعندما بلغ بون أوديمار ابلغ فلاح ان سيارة سوداء مرت قبل ذلك بقليل وانعطفت الى طريق روجمونتييه .

— هل كانت مسرعة ؟

— ليس كثيرا .. لا ريب ان ركابها باريسيون لانه كان واضحا انهم لا يعرفون الطريق جيدا .

قال راوول محدثا نفسه : آه . انهم لا يريدون لفت الانظار اليهم .

وضاعف من سرعته . وزمجر المحرك كانه يشكو من الاعياء . وانعطف فى طريق روجمونتييه ، ولم يلبث ان راى الآثار فى احد المنعطفات ، فقد حادت السيارة عن الطريق ووطأت الاعشاب . وراح راوول يسابق الريح وقد تشعث شعره واحمرت عيناه من الغبار واخذ يتطلع الى الطريق الذى امامه محاولا ان يتحاشى الحفر والاخاديد ، ضاغطا بركبتيه على مخزن الوقود تجنبا للوقوع . وراى عن بعد جرس كنيسة لابوى .

يا للعنة ! .. كان هناك حشد متجمهر من الناس فى وسط الطريق ، حول عربة نقل سقط جوادها بين العريش . وابطأ فى سيره ودار بالحشد وراى وهو يدور عينى الجواد البيضاوين ووجه صاحب العربة الشاحب . وصعد فوق الطوار وتوقف بجوار غلام ساله قائلا :

— هل رايت سيارة تمر من هنا منذ ربع ساعة ؟

— سوداء ؟

— نعم .

— والستائر مسدلة ؟

— نعم .

— ليس من ربع ساعة يا سيدى . بل لا اكثر من اربع خمس دقائق .. لانها اضطرت أن تتوقف .

دهش الغلام حين اعطاه راوول قطعة نقدية من ذات الخمسة فرنكات ، وراح يتابع بعينيه ذلك الرجل النصف مجنون والذى تدمع عيناه وينطلق بالموتوسيكل بهذه السرعة المذهلة . وكان راوول قد انعطف الى الطريق المؤدى الى نهر السين . وفجأة راى السيارة وهى تتقدم فى حذر بسبب المنعطفات الكثيرة .

— آه .. انها لى الآن .

واندفع نحوها كما يندفع الصقر نحو فريسته . وكانت نيته أن يسبقها ولو اقتضى ذلك منه القيام ببضع حركات بهلوانية وان يقف فى عرض الطريق ، ولكن لا ريب أن ركابها فطنوا اليه لان السيارة أسرعت ، وظهر ذراع من النافذة وقذيفة صغيرة من الدخان . ولم يسمع راوول الطلقة ولكنه خمن صفيرها وانحنى فوق عجلة القيادة وأبطأ وراح يمشى فى خط متعرج .

وافرغ الرجل مسدسه كيفما اتفق تقريبا ، ثم اختفى الذراع ،

وانطلقت السيارة وقد ضاعفت من سرعتها . واستشعر راوول فجأة ما سوف يقع فضغط على الفرامل فى قوة وانطلق بانحراف بين جانبى الطريق فى حين صعدت السيارة الثقيلة ممرا جانبيا واصطدمت بشجرة وفقدت توازنها تماما وهوت فى النهر ، على حافة الساحل .

وتناثر الماء وتطايرت رشاشات منه على وجه راوول الذى كان قد انحنى فوق الشاطىء وبدأ يخلع سترته . وامتدت فى وسط النهر دوامة كبيرة بيضاء فى نفس الوقت الذى طفت فيه على سطح الماء راس ثم اخرى . والقى راوول بنفسه فى الماء وراح يسبح فى قوة نحو فاليرى ، وكانت توشك ان تغرق ، وامسكها فى اللحظة التى همت فيها بأن تختفى . اما الفريق الآخر فقد اسرع نحو الشاطىء دون ان يهتم بفريسته . وصاح به راوول : سوف نلتقى .

وشرب جرعة كبيرة من الماء وعطس . وحمله التيار الى شاطىء صغير ، وانصاع له وهو يحمل فاليرى ، ولم نكن قد فقدت الرشد . ولحسن الحظ كان الطقس حارا فى ذلك الوقت من شهر يونية ، مما جعل هذا الحمام الاضطرارى اقل خطرا ، ووضع قدميه على الشاطىء دون صعوبة ، ورأى منحدرا افضى به الى طريق غير بعيد عن الموتوسيكل . وكانت فاليرى قد احاطت بذراعيها الرقيقتين عنق ذلك الرجل الغريب الذى راته موظفا خجولا متواضعا والذى يضعها الآن فى رفق أموى فى السيدكار الذى طالما تحدث عنه اشيل بكل سخرية .

ــ سوف اجففك يا صغيرتى ثم اعيدك الى البيت .

ولم تعرف الصوت هو الاخر ولكنها احست بالاطمئنان وتكومت فى مكانها وقد غلبها النعاس رغم البرد .. لعل الاب نويل ، عندما كان شابا كان يشبه هذا الرجل الغريب الاطوار الذى يدير محرك السيدكار الآن . وكانت غارقة فى النوم عندما توقف راوول فى فناء احدى المزارع ، وقال انه تعرض لحادث غير خطير ، ولم تسمع الطفلة المزارعة وهى تترفق بها وتلفها فى غطاء دافىء وتشعل النار . وشربت قليلا من اللبن الساخن دون ان تفتح عينيها . لم يكن يشغلها غير فكرة واحدة كشعلة صغيرة من الفرح : انا الآن آمنة ... اننى الآن فى أمان .

ولم تستيقظ تماما الا فى طريق العودة . وكان زميلها منطلقا

بسرعة عادية . واحست بالراحة والهدوء بعد القلق الذى سيطر عليها اثناء سباق السيارة الرهيب .

وسألها راوول : هل انت على ما يرام يا صغيرتى ؟

ابتسمت من غير ان ترد ، ولكنها مدت يدها اليه فضمها فى حنو كبير وهو يقول :

ــ هل قطعوا لسانك ؟

ــ اوه ، كل يا سيدى .

ــ كم رجلا كان معك .

ــ ثلاثة .

يا للشيطان ! سوف تخرج جماعة البارون من المغامرة حتما .

ــ ماذا قالوا لك ؟

ــ انهم سيمضون بى الى جدى .

ــ والخطاب الذى اخذته من التوراة .

ــ اخذوه منى .

ــ هل قراته ؟

ــ كلا . ولكن جدى كان يقراه من وقت لآخر أثناء الليل ويبكى .

ــ وما شكله ؟

ترددت الطفلة ، فانه يسألها الآن شيئا صعبا جدا . وعاد راوول يسأل :

ــ هل كان قديما ؟

ــ نعم . كان هذا يبدو من ثنياته . وكذلك المظروف ... كان مصفرا .

ــ آه . كان هناك مظروف اذن ؟ .. وهل كان يحمل عنوانا ؟

ــ نعم ... حضرة الكونت يونرفيل .

ــ حضرة الكونت ...

ابطأ راوول مرة اخرى ، فهو يقترب الآن من النهاية :

ــ ومن اين اتى ؟ .. حاولى ان تتذكرى .. كيف كان الطابع .

ــ اوه ، كان طابعا قديما .. وعليه راس سيدة .. كان جدى يقول انها الملكة فيكتوريا .

هكذا .. الملكة فيكتوريا .. خطاب مرسل من انجلترا للكونت يونرفيل ! .. فى اعماق الظلام الذى يتخبط فيه راوول ، ومضت نقطة مضيئة تشير الى المنفذ البعيد للنفق .

واستطردت فاليرى تقول :

ــ كان جدى يقول لى انه سيعطينى اياه عندما اكبر ، وانه لا يجب ان اتخلى عنه ابدا .

زمجر راوول .. « سوف نسترده ، وســـاعيد اليك جـدك ايضا » .

قالت فاليرى : ربما ينهروننى فى القصر لانه ليس لى الحق فى الخروج من غير اذن .

ــ كلا . سوف اهتم بذلك .

والقى نظرة الى ساعته واردف : ثم اننا سنبلغ القصر قبل عودة السيد فيرانج ، فاطمئنى .

سكتت الطفلة وقد شعرت بالاطمئنان . وراح راوول يفكر . هذه المحاولة الجديدة التى اقدم عليها البارون تدل على انه لا يملك كل الاوراق ، ولا ريب ان مذكرات الـكونت يونرفيل لم تفـــده بشىء . وما دام هناك سر فلابد من الاعتراف بأن هناك شفرة تحميه . شفرة لم يستطع البارون حل رموزها ، كما لم يستطع حل رموز الكلمات : يعقوب .. القديس جان .. دارتنيان .. يبقى خطــاب انجلترا .

وقال راوول : نحن متعادلان . ان معه الخطاب ومعى الجد ، وهذا الاخير يعرف مضمون الخطاب عن ظهر قلب وسوف يذكره لى ، والا فلن يبق امامى الا ان اعمل غفيرا ... هيا يا صاحبى ، ان الحياة جميلة !

ــ ٦ ــ

كرمة القديس جان

استعاد راوول دون اى جهد شخصية امين المكتبة ، وبدا عمله مثيرا ارتياح سيد القصر ، فما ان يغادر هوبير فيرانج البيت ويمضى الى المصنع حتى تأتى لوسيل وتنضم الى ذلك الذى ما زالت تعتبره صحفيا ، وكانت تساعده بقدر استطاعتها . وكان يطوف بالجزء العلوى من المكتبة وينطق بعناوين الكتب واسماء المؤلفين فتدونها فى سجل بعناية كبيرة . وكان ينحنى احيانا فوق الدرابزون ويتأمل الفتاة وقد انحنت فى رقة فوق السجل ، ثم يتملكه الارتباك ويعاود عمله . ولكنه رغم ذلك لم ينس مهمته لانه كان يحس أن العـدو يحوم حول يونرفيل . غير انه منح نفسه مهلة بجوار الفتاة الفاتنة ، ومن ناحيتها هى ، لم تعد تستطيع الاستغناء عنه .

وكان قد مضى يومان على اختطاف فاليرى لم يقع فيهما اى حادث مؤسف . وكان راوول يصطحب البولدوج ، وكان قــد تصــادق معه ، ويقوم بالتفتيش سرا ، بعد ان ينام الجميع ، ويتحقق من الاقفال والابواب والنوافذ . وكان يقوم أحيانا أثناء الليل ويتجول فى الممرات الكبيرة الواسعة أو يمضى ويتأمل لوحات المعــرض ، ويفحص الجدران بسبابته وهو لا يدرى عم يبحث . ربما عن ممر سرى وربما عن مخبأ . وكان يعلم انه يجب أن يعود الى برونو وان يتعجل الشيخ برناردان ، ولكنه كان يقول لنفسه ان من الحكمة ان يترك الشيخ العجوز حتى يطمئن ويأنس اليه ويفهم ان من مصلحته ان يتكلم . ثم انه كان يهبط الى قرارة نفسه وينظر فى شىء من الانقباض الى الحقيقة دون مواربة ويقول : انت تحبها . كن صريحا . انها تحرك مشاعرك بشبابها . وانت ؟ .. انت تثير خجلى . ولكن افتح عينيك . انت اول رجل تلتقى به ، ثم انك غامض وتثير اعجابها فى نفس الوقت ، فلا عجب اذا خفق قلبها امامك . ولكن حذار ان

تلمسها يا اوبين .. عليك ان تنصرف على اطراف قدميك بمجرد ان تفرغ من هذه القضية . لن تكون بالنسبة لك اكثر من ذكرى .

ثم وقع حادث اثار اضطراب راوول وقلقه ، فبينما كان يفحص الكتب والاضابير الموجودة فى آخر المكتبة اكتشف مظروفا كبيرا اصفر ، وهم بأن يفتحه حين اسرعت اليه لوسيل وهى مضطربة الوجه وهتفت تقول :

ـ كلا ، ارجوك . لا تنظر الى ما بداخله .

قال فى شىء من الاستياء : آه ، حسنا . ليس من عادتى الفضول .

ـ اتسخر منى ؟

ـ لوسيل .. وهل استطيع ان اسخر منك حقا ؟

ـ انك تخمن كل شى ء ، فقل لى ماذا يوجد فى هذا المظروف .

ـ لا ادرى .. يبدو لى انها قصاصات جرائد .

ـ هو ذلك . اننى اقتطفها من بعض الصحف القديمة .. ثم .. ولكن لا اهمية لهذا .. لا اريد ان اخفى عنك شيئا .. هيا .. يمكنك ان تفضه .

اطاعها راوول واجفل على الفور ، فقد عرف هذه القصاصات . كانت تضم كل المقالات التى سبق ان ارسلها الى جريدة « ايكو دى فرانس والفيجارو والجولوا » يتهكم فيها من ضحاياه ، ويعلن عن نواياه او يدافع عن سمعته . وتملكه انفعال شديد واغمض عينيه وراح يستظهر احدى هذه المقالات . وشاركته لوسيل لعبته واغمضت عينيها هى الاخرى واستظهرت مقالة ثانية . وراح كل منهما يتحدى الآخر ويستظهر التواريخ .. سنة ١٩١١ .. كلا ، بل سنة ١٩١٢ ... سبتمبر سنة ١٩١٣ . وكانت لوسيل هى الرابحة ، واوشك ان يقول : اننى نسيت ، فقد وقعت احداث كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وانفجرا ضاحكين كما لو كانا طفلين .

وسالته لوسيل : اذن فانت شديد الاعجاب به انت ايضا ؟

ـ الحق اننى ...

وعادت تقول فى ارتباك ظريف : اما انا فاننى اكن له ... اكن له ...

همس راوول وقد شحب وجهه : تكلمى .

ـ انه جذاب جدا ... وغريب الاطوار حقا .. وعمى تاتيه كل

صحف باريس ، تماما كما كانت تاتى لابى ، وهكذا استطعت .. ليس ممنوعا ان يحلم المرء .. اليس كذلك ؟

ـ يقينا لا .

ـ كنت اتصور انه .. اوه .. هذا امر مضحك .. كنت اتصور انه قد ياتى ذات يوم ، فالقصر مشحون باشياء تستحق السرقة .. ولكنه لم يات ابدا .

صاح : ولكن .. ان ارسين لوبين ليس كما تتصورين ... اننى على يقين من ذلك لاننى التقيت به .

ـ التقيت به ؟

ولمعت عيناها فضولا وانفعالا . واضطر راوول ان يبذل جهدا كبيرا لكى لا يضمها بين ذراعيه ، وابتعد عنها قليلا .

ـ نعم . التقيت به كثيرا ، فمهنتى تقتضى ان التقى بجميع الناس تقريبا .

ـ وكيف هو ؟

ـ اوه . انه رجل عادى كغيره من الرجال .

قالت لوسيل وهى تضم يديها : بل هو رجل عجيب ، فبالنسبة لى انا التى اعيش هنا سجينة القصر ، يبدو لى ذلك الرجل الذى عاش كل هذه المغامرات انه .. انه .. لا استطيع ان افسر لك . لو انه ظهر امامى فجاة فاظن انه سيغمى على او اننى سأقدم على شىء غير لائق .

وعاد سيد القصر فوضع فجاة نهاية لهذا الحديث . ومضى الى المائدة . ولكن راوول كان شارد الذهن وراح ينظر الى لوسيل خلسة ، وكانت لا تزال بادية الانفعال ، وكان فيرانج يتكلم ويتكلم .. ولكن عم كان يتكلم فى الواقع ؟ .. عن الصيد .

كان يقول : فى الماضى كان البستان اكبر من ذلك بكثير . كان عبارة عن غابة تمتد بعيدا حتى جسر اوديمار ، وكان اشراف بونرفيل يملكون سربا من كلاب الصيد ، وما زالت هناك حتى اليوم شرفة كبيرة فى جناح لويس الثالث عشر كانت سيدات القصر يشهدن منها هجوم الكلاب على الفريسة ، تماما كما يحدث فى مدينة شامبور .

قال راوول فى لهجة مهذبة ، وكان ذهنه فى اماكن اخرى : هذا غريب جدا .

ـ اليس كذلك ؟ .. سوف نمضى اليها بعد ان نفرغ من الطعام ما دامت تهمك هكذا .

ـ كما تشاء .

وهكذا ، وبعد ان فرغا من تناول القهوة تأبط فيرانج ذراع كتارا فى غير تكليف وقال :

ـ آه . اعلم ان الدرج الذى يؤدى الى الشرفة قد نخره السوس بحيث انتهى به الامر الى ان انهار . ونحن نستخدم سلما خشبيا مؤقتا . ولكن لا تخش شيئا .. انه سلم متين ، وانا وزنى اكثرمنك بكثير واصعد بسهولة ، وامضى من وقت لآخر الى تلك الشرفة لأستمتع بالمنظر الجميل الذى يطالعنى من هناك . وسوف ترى بنفسك .

وبلغا آخر الممر الطويل الذى يؤدى الى غرف الطابق الثانى غير المسكونة ، وفتح فيرانج بابا افضى بهما الى مخزن دائرى .

وقال هوبير فيرانج : البرج الغربى .. وهذا هو السلم .

قال كتارا مذعورا : يا الهى ... انه عال جدا .

ـ سأتقدمك واريك الطريق .

واذ قال سيد القصر ذلك امسك بقائمتى السلم وبدا يصعد .

وقام امين المكتبة الشاب بدوره بأعجوبة وابدى فزعا طرب له فيرانج كثيرا وقال :

ـ ان السلم ينثنى قليلا بالطبع ، ولكننى اؤكد لك ...

وكان قد بلغ قمة السلم . ودوت طقطقة ، ولم يجد راوول الا الوقت المناسب لكى يثب بعيدا ، ووقع فيرانج عند قدميه مثيرا سحابة من الغبار . وانحنى راوول فوقه . كان الرجل قد فقد الرشد وانساب خيط رفيع من الدم عند اذنه ، وانحنت ساقه اليسرى بصورة غريبة . وصعد راوول السلم فى خفة . كانت العارضتان العلويتان قد انكسرتا . واثبت له فحص سريع انهما نشرتا عند مستوى القائمتين ، وكانت اسنان المنشار واضحة جدا .

وهبط راوول وهو مشغول البال . لم يكن حادثا عرضيا وانما كان تخريبا متعمدا تم بحذق ودهاء . مرة اخرى سبقه العدو وعمل فى الخفاء .. ومرة اخرى كان فى مكيدته الضارية شىء اشبه بطريقة البارون .. مكيدة حاذقة ولكنها شديدة القسوة .. ولكن من هو ؟ .. من هذا المخلوق الخفى الذى لا يرحم ، وابة معاهدة بشعة عقدها مع جالسيران ؟

تردد راوول . هل ينبغى ان يترك سيد القصر المسكين لكى يسرع وينبه لوسيل بالخطر ؟ ولكنه لم يلبث بعد شىء من التفكير ان ادرك ان الشرك قد اعد منذ وقت طويل ، وان الذى اعده شخص راح ينتظر فى صبر فى مكان آمن كما فعل مع جاك فيرانج وزوجته ، وان فى مقدوره اذن أن يترك سيد القصر وحده بضع دقائق اخرى .

وتظاهر بالذعر واسرع يبحث عن عون ، وعاد بأشيل وابولين . وبينما كان الخادمان يحملان سيدهما ، وكان لا يزال مغمى عليه ، الى غرفته ، اخطر لوسيل بما حدث وطمأنها فى نفس الوقت بقدر استطاعته ، ثم ارسل اشيل الى البلدة لكى يأتى بطبيب . وكان الفضل له فى عودة الهدوء والنظام فى بضع دقائق . وفضوا عن فيرانج المسكين ثيابه فى حرص شديد ومددوه فى فراشه ، وعاد الى رشده فى بطء ، وجلست لوسيل بجواره ، وجففت ابولين دموعها فى حين كان السكرتير العديم الشأن فى كل مكان ، يساعد الجميع ويتخذ اعجب الاجراءات مبرهنا للجميع خفية مقدرته وكفاءته بحيث انه ، بينما كان يعد جبيرتين ، امسكه سيد القصر بيده وقال :

ـ اشكرك .. اشكرك .. اننى ادين لك بالكثير ، ولن انسى جميلك هذا ابدا .

ـ صه .. لا تتكلم ولا تنفعل .

ـ لا ادرى كيف حدث هذا .

ـ بأسهل ما يكون ، فان وزنك ثقيل فانكسرت عارضتان .. آه .. ها هو الطبيب .

وابتعد مع لوسيل ، وانتظر نتيجة الكشف فى الخارج . وسألته الفتاة :

ـ هل تظن انه حادث وقع قضاء وقدرا ؟

ـ كلا للاسف .. فقد نشر بعضهم عارضتان بالسلم .

ـ رحماك يا الهى .. متى ينتهى هذا الكابوس .

ـ قريبا ، واعدك بذلك .

ـ الا يجب أن نبلغ البوليس ؟

ـ ابدا . لا يجب هذا على وجه الخصوص ، فنحن لا نملك اولا ادلة كافية ثم اننا امام اعداء ماكرين لن تهمهم تحريات البوليس فى شىء . كلا . انما يجب ان نضاعف من احتياطاتنا . ومن ناحيتى ، لن ابق مكتوف اليدين كما تظنين .

وفتح الباب عندئذ واستدعاهما الطبيب ، وكان صريحا لانه قال :

ـ انني سأنقل مسيو فيرانج ، فان حالته تزعجني كثيرا . سوف اعالج ساقه بدون مشقة ولكن قلبه ليس سليما تماما ، ولا ريب أن الصدمة كانت عنيفة جدا . ما كان يجب أن يقوم بأعمال الشباب وهو فى هذه السن . سوف يساعدنى اشيل وننقله الى عيادة هونفلور ونضعه تحت الفحص بضعة أيام . وارى انه سوف يشفى سريعا ، ولكن الحرص واجب .

دخل أمين المكتبة الغرفة وحيا مسيو فيرانج فى رفق وتمنى له الشفاء العاجل ثم خرج كما تقضى المجاملات . ولكنه بدلا من المضى الى غرفة المكتبة عاد الى البرج الغربى . وما هى الا لحظات حتى اسند السلم الى الحائط بخفته ورشاقته المعهودتين .

لم يكذب سيد القصر ، فقد كان المنظر من اجمل المناظر التى رآها فى حياته . ولكن راوول لم يكن فى القصر للفرجة او السياحة ، فبعد ان ألقى نظرة سريعة على الريف الذى اضفى عليه الصيف لونا ذهبيا ، وعلى المقبرة والبرج القديم المهدم الذى رأى منه قصر يونرفيل لاول مرة ، وبعد ان القى نظرة يقظة الى فناء الشرف حيث كان اشيل وابولين ينقلان المصاب الى السيارة ويدثرانه بالاغطية فى عناية فائقة ، نقل اهتمامه الى الشرفة وعبارة فاليرى الصغيرة ترن فى اذنيه . « انه يمشى على أربع فوق السطوح » . ولكن اى سطوح ؟ .. على هذه الشرفة لم يكن هناك داع لان يمشى المرء على اربع لان فى مقدوره السير على اتم راحته . ولكن كان من المستحيل الانتقال منها الى مكان آخر لان الالواح الحجرية كانت شديدة الانحدار .. فما معنى العبارة التى ذكرتها الصغيرة ؟

اعتمد راوول بذراعيه على الدرابزون الرفيع الذى يحيط بالشرفة ، وتابع بعينين فاحصتين السيارة وهى تنطلق بالمصاب . كان من السهل طبعا وضع قائمة .. جاك فيرانج وزوجته قتيلان .. وهوبير فيرانج فى المستشفى وفى خطر كبير ، فقد يموت هو الآخر ، ولوسيل التى نجت من حادث والتى لا زالت تتعرض لخطر فظيع .. واذن ؟ .. يتبقى ثالث الاخوة فيرانج اذن .. العم الذى تحدثت عنه عرضا والذى يؤول اليه قصر يونرفيل والممتلكات الملحقة به بعد موتهما .. هذا غريب .. لا اثر من هذه الناحية ... ولكن مهما

يكن من امر فما هى العلاقة بين هذه المحاولات وبين الموت البشع لصاحبى القصر السابقين ؟ واية علاقة بينهما وبين يعقوب والقديس جان ودارتنيان .. والدم ؟ .. اهو دم كل هذه الضحايا ؟

فى تلك اللحظة ، وكان راوول يلقى نظرة اخيرة الى الاسطح لكى يقنع نفسه بأن العصفور وحده يمكنه ان يمشى فوقها ، راى شيئا اثار كل اهتمامه ، فان احدى الهوائيات العديدة التى ترتفع فوق الاسطح لم تكن تدور . وفى حين انها كانت تشير كلها الى الشمال الشرقى ، وكانت الاسطح حافلة بكل نوع منها ، من اعلام مختلفة الى حيوانات وسهام بسيطة معدنية ، كانت هناك واحدة ظلت تشير الى الجنوب فى اصرار ، وكانت تلك الهوائية تمثل فى صورة فظة هيئة انسانية .. جندى شاهر سيفه .

وفجاة ، فهم راوول . كلا .. لم يكن جنديا عاديا وانما كان فارسا .. ولكن .. ولكن .. أنت مخطىء يا لوبين ، واذا استمررت على هذا فسوف ترى فرسانا حتى فى السحب التى تمر فوقك .. ومع ذلك ، كان الصدا يعلو الهوائية ... تآكلت بفعل الدخان وتقلبات الجو ، ولابد انها فى مكانها هذا منذ اجيال طويلة . ولكن المعطف ذا الثنيات المتوترة التى تتعرض للرياح ، كشراع سفينة والسيف المشهر نحو السماء والحذاء ... نعم ، هذا فارس حقا .. واحتد راوول غضبا لان هذه الادلة التى زرعها قدر ساخر تحت قدميه ، كفتات الخبز لم تكن تؤدى الى شيء ... دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف . ها هو الآن امام دارتنيان ، ولكن الام يشير بسيفه ؟ .. الى الريف أم الى السماء ؟ .. أم الفضاء .. ثم . هناك دارتنيان آخر فى قاعة المعروضات ثم ... ولكن ، لا داعى لان يشغل ذهنه ويفرط فى التفكير . سوف تأتى اللحظة التى تتلاءم فيها جميع قطع اللغز .. كانت قوة هذا الرجل الفذ فى انه لم يكن يكابر ويعاند نفسه .. كان يعرف خيرا من اى شخص آخر اللحظة التى يتيح فيها الاستنتاج والمنطق وحدهما احداث ثغرة فى جدار الظواهر المضادة . واذا بدا له الطريق مسدودا فى اية لحظة فانه يغير الاتجاه على الفور ويبحث عن منفذ فى مكان آخر . وكان المنفذ فى الوقت الحالى هو الفونس فيرانج .

هبط راوول دون اية مشقة وطفق يبحث عن لوسيل ، ووجدها

فى غرفة المكتبة ، وما ان رأته حتى حاولت ان تخفف دموعها فقال :

ـ ليس هذا بجميل .. اتنتهزين فرصة ان اوليك ظهرى فتبكين .. كما لو اننى لا استطيع الدفاع عنك .

تمتمت : ذلك اننى خائفة جدا . سيلحقون بك الاذى انت ايضا .

ـ انت تعذبين نفسك من اجلى اذن يا عزيزتى لوسيل .. لو اطلعك على قصتى فسوف ترين اننى اجتزت اخطارا اخرى كثيرة بدون الم ..

كان شديد الانفعال . وفى رفق كبير احاط كتفى الفتاة بذراعه وقال :

ـ لا تخشى شيئا يا لوسيل .. انا كالمداخن والنار غذائى .

ابتسمت خلال دموعها وقالت : انك تشبهه .

ـ من هذا ؟

ـ هو .

واشارت الى المظروف الذى يحتوى على قصاصات الجرائد ، وقال راوول مازحا :

ـ أوه ... وددت ذلك ، ولكننى دونه بكثير . ومع ذلك فاننى اعرف ما قد يفعل لو انه هنا .

ـ وماذا يفعل ؟

ـ سيلقى عليك اسئلة لا نهاية لها ، وسيطلب منك ان تزوديه بكل ما تعرفين عن عمك الفونس .

كانت لهجته مرحة فيها سخرية يشوبها شىء من الرقة .. كان يملك قدرة عجيبة لبث الهدوء فى القلوب . ونسيت لوسيل قلقها وردت عليه فى نفس اللهجة المرحة :

ـ كنت اقول له : سلنى يا مسيو لوبين ، فاننى لن استطيع ان اخفى عنك شيئا .

ـ حسنا . فلنبدا اذن . اريد ان اعرف قبل كل شىء آخر لماذا لا نرى هذا العم ابدا . كان يجب ، طبعا ، ان يشعر بشىء من القلق عليك وعلى اخيه ، وان يأتى لزيارتكما او ان يدعوكما لزيارته .

ـ ان عمى هوبير لا يحبه كثيرا . ويجب ان أعترف بأنه ليس ودودا مع احد . ومهما يكن فهو يعيش فى عزلة كالرجل المتوحش .

وتنهدت : ومع ذلك فان والدى كانا متفاهمين جدا معه ، وابى على الخصوص .

ـ وأين يقيم ؟

ـ ليس بعيدا من هنا .. بعد كنيسة سانت ادريس . قد مررنا به فى عودتنا من « الصخرة الكبيرة » ولا اذكر اذا كنت قد حدثتك عن ذلك ، ولكن « الصخرة الكبيرة » كان جزءا من ارض اشتراها ابى قبل زواجه بكثير .. وفى اسفل الصخور ، هناك البيت .. اعنى الكوخ الذى تعرفه .

وارتجفت فتمتم راوول : نعم ، نعم .. تكلمى فاننى اعرفه .

ـ وهناك ، بعده بقليل ، فوق التل ، البيت الذى كنا نعيش فيه .. فى وسط مزرعة كان ابى قد اشتراها بثمن زهيد وادخل عليها اصلاحات لكى تكون مقاما مريحا ، ثم تنازل عنه لاخيه الفونس بعد ان اشترى يونرفيل ، غير انه احتفظ لنفسه بالصخرة الكبيرة .

ـ لقد كان هذا كرما منه .

ـ كان ابى كريما جدا فى الواقع .

ـ وماذا فعل هذا الاخ ؟

ـ لا شىء يذكر ... فكر فى أن يكتب .. وكان قد كتب فى شبابه ديوانا من الشعر .. بضع قصائد على نمط هيريديا لانه كان معجبا به جدا . ثم كتب بعض الروايات بعد ذلك ثم فترت همته شيئا فشيئا .

ـ معنى هذا انه رجل فاشل .. وفى اثناء ذلك كان يرى اخويه يزدهران .. وهذا البيت ، هل يعرف باسم ؟

ـ نعم . كرمة القديس جان .

وكان راوول قد القى هذا السؤال بطريقة آلية ما كاد يسمع الرد حتى اجفل .

ـ كرمة القديس جان ! ..

قالت لوسيل : نعم ... وما الغرابة ؟

ـ لا شىء .. لا شىء بالطبع .

ولكن حاجته الى العمل جعلت الدم يغلى فى عروقه ، فقال :

ـ هل هو الذى اطلق على البيت هذا الاسم ؟

ـ كلا . كان البيت معروفا بهذا الاسم عندما اشتراه ابى .

خفض راوول صوته وقال : اين كلبك ؟

– فى غرفتى . نائم .

– اريد أن تصطحبيه ابتداء من اليوم فى كل مكان .

ووضع اصبعا على شفتيه ، وفى ثلاث خطوات كان بجوار باب قاعة المعرض ، ففتحه فى عنف . ولكن لم يكن هناك أحد . وارتد صوت اصطفاق الباب مدة طويلة كرنين الجرس فى قبة الكنيسة . وعاد على عقبيه وهو يحاول ان يتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث .

– معذرة . خيل لى اننى سمعت .. هذا سخيف . ان ابولين لديها ما يشغلها طبعا غير استراق السمع .

– اوه .. اننى اكفلها .. واكفل زوجها ايضا .. انهما شديدا الاخلاص لنا ، ثم ان أشيل لم يعد بعد .

غير ان راوول لم يكن يفكر لا فى اشيل ولا فى أبولين .. وانما كان يفكر فى « الآخر » ... فى ذلك الذى نشر العارضتين والذى خرب قبل ذلك مركبة الفتاة ، وأعد فخ الباب القلاب .. اهو الذى كان يقف منذ لحظات عند باب المعرض .. ذلك لانه كان هناك شخص يقف بالباب بالتاكيد ... وكان راوول واثقا من ذلك .. ايمكن أن يكون هو البارون .. ونظر الى ساعته .

– عودى الآن الى غرفتك . وعندما تغادرينها بعد عودة اشيل اصطحبى بولوكس معك . هل تسمعين ؟ .. اما انا فلدى عمل خاص اريد ان اتحقق منه ، وسأبقى فى الخارج وقتا طويلا ، واريد ان يكون ذهنى مطمئنا . وبهذه المناسبة ، قد احتاج الى مفتاح ، اذ ليس فى نيتى ان اطرق الباب ربما فى منتصف الليل .

– هذا أمر ميسور . سأعطيك مفتاحى فاننى لا استخدمه ابدا . تعال . انه فى درج مكتبى .

وخرجا من المكتبة . وقال راوول : ولكن لا تتوهمى ان هناك اشياء بحق الله . انت لست فى خطر .. فى الوقت الحالى على الاقل ، فنحن نواجه رجلا يأخذ كل وقته ويتصرف تصرف القناص ، فهو يلقى بشباكه وينتظر فى صبر فى الاماكن التى يمر ضحاياه دون حذر ... ولكن اذا توخينا الحرص وظللنا متيقظين فلن نتعرض لاى خطر ... الخوف ممنوع وانا غائب .

– لن اخاف .

وبسطت له يديها فى براءة ، واحس بأن رباطة جأشه ستخونه فتمتم :

– امضى سريعا . اعطينى هنا المفتاح لكى اذهب . آه .. نسيت .. سأستقل السيدكار ، ولك ان تقولى لاشيل ما تشائين .

وانتظرها امام احدى النوافذ الكبيرة التى تطل على فناء الشرف . كان كلما ازداد تفكيرا كلما ازداد اقتناعا بأن العدو زكى وشديد الحرص لكى يقوم بمحاولة اخرى فورا ، وكلما ازداد اقتناعا كذلك بان العم الفونس يلعب دورا فى هـذه المأساة الغامضة . ولـكن كيف ؟ .. انه لم يكن يستطيع ان يظهر حتى لا يفتضح امره على الفور . ولكن ذلك الذى كان راوول يدعوه بالوحش كان يبدو انه يعيش فى جوار آل فيرانج ، ويتجول فى القصر كمخلوق خفى . كان هناك سر مخيف فى هذا الصدد .

قالت لوسيل : ها هو المفتاح ... توخ الحرص .

كانت تقف بجواره ، بريئة ، مطمئنة ، آمنة بوجه انثى وعينى طفلة . واردفت تقول فى تلقائية :

– سأفكر فيك كثيرا .

وهم بأن يصرخ : ولكن احتمى بالله . الا ترين انك تعذبيننى ، واننى لا أطيق .

واخذ المفتاح واختفى . ونقل غضبه الذى يغلى فى كيانه الى الموتوسيكل ، على ان غضبه هذا لم يكن غضبا بمعنى الكلمة وانما كان حزنا وشجنا . وخطر له لحظة ان ينعطف الى طريق آخر لكى يمضى ويستجوب الشيخ برناردان وان ينتزع منه سر بونرفيل طوعا او كرها ، ولكنه عدل عن غرضه هذا خوفا من أن يضيع وقتا ثمينا . ولكن عندما وصل الى الهافر تعطل الموتوسيكل واضطر ان يبحث عن جاراج وان يعود بالميكانيكى الذى راح يفحص المحرك فى غير اقتناع ويردد فى اصرار : انها الشمعة .. هى الشمعة بالتأكيد .. وعندما أصبح السيدكار صالحا للاستعمال اخيرا كان الليل قد بدا يهبط ، ولو أنه مرت دقيقة اخرى على الميكانيكى لما كان هناك اى شك فى ان يكتم راوول انفاسه .

وانطلق أخيرا فى طريقه الى سانت ادريس ، واندفع غير آبه بالحفر والاخاديد حتى الطريق المؤدى الى الصخور والمنحدر حيث يقع بيت « الصخرة الكبيرة » وحيث يجب أن تكون « كرمة القديس جان » على يمينه . وترك السيدكار خلف اجمة وسار مسرعا . كانت كرمة القديس جان هناك حقا يحيط بها سور قديم يكاد يكون

مدفونا فى غابة من النباتات المتسلقة ويستطيع طفل ان يتسلقه دون صعوبة . واجتازه راوول وراى البيت . كانت لوسيل قد تكلمت عن مزرعة قديمة ، وتوقع ان يجد بيتا قديما ولكن كانت دهشته كبيرة حين رأى بيتا حديثا تعلو بابه تعريشة جميلة .

كانت النوافذ مغلقة بمصاريعها الخشبية ، ولم يكن هناك اى نور فى الطابق الارضى ولا فى الطابق العلوى . ومع ذلك فقد كانت هناك هالة من النور حول السطح . وراح راوول يتحرك بدون صوت فدار بالبيت وتراجع بضع خطوات الى الخلف ، وادرك على الفور ان الضوء المبهم الذى يثير حيرته ينبعث من كوة فوق السطح ، ولا شك ان والد لوسيل قد اقام له مرسما ، وعندما كانت الظروف تمنعه من الذهاب الى الصخرة الكبيرة كان يرسم لوحاته فيه . ولا ريب ان اخاه كان فى تلك اللحظة فى المرسم يكتب او يقرأ .

كان بيت الخزين يرتفع بجوار الجدار ، ولم يكن تسلق السطح يشكل مشكلة ما . وقد اجتاز راوول العقبة كالشبح ، مستعينا بشجرة لبلاب قوية . ولم يعد امامه الا ان يتقدم حتى المرسم وهو يتوخى الحذر التام . والقى نظرة وما كاد يفعل حتى تجمد مكانه .

رأى تحته رجلا عرفه على الفور .. خادم البارون .. ذلك الذى هدده بالمسدس . وكان يضع يديه فى جيوبه ويدخن سيجارة وينظر الى الجزء الذى لم يتمكن راوول من رؤيته بعد . كان لابد له لذلك أن يتقدم اكثر ، ولسوء الحظ كان القمر بدرا وكان من الممكن ان يعكس ظله على أرضية المرسم . ولهذا تقدم بمنكبيه بضعة سنتميترات ، وكان كلما ازداد تقدما كلما اتسع المنظر تحته . كانت هناك كتب لصق الجدار ، وفوق منضدة مجلة لا تزال مفتوحة ، ولكن اين الفونس ؟

ولم يلبث ان رآه ، وتوترت ملامحه على الفور ، لانه راى الفونس موثق اليدين فوق مقعد والبارون جالسيران يقف مصوبا مسدسه نحوه . رأى كل شىء فى وضوح وخيل له انه يحلم ، وفى هذه المرة لم يكن راوول ممددا على صدره فوق الارض الصلبة وانما فوق سطح ، ولم يكن المجرمون يحرقون قدمى الضحية ولكن الامر كان أسوأ .. كانت المسألة مسألة ثوان ، وكان من السهل ان يفهم كلمات البارون رغم عدم سماعها : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. السر والا قتلتك .

كان فيرانج يحرك راسه ذات الحاجبين الكثيفين التى تجعله يشبه

هوبير . وكان يقول : لا ... خمسة .. ستة .. سبعة .. جالسيران يوشك ان يطلق النار ، وصعدت صرخة فى حلق راوول : « كلا . انك لن تقتله امام عينى بكل جراة » . وزحف اكثر .

وكانت كارثة ، فان لوح الزجاج الذى كان يتكىء عليه انكسر فجاة . ولم يجد الا الوقت الكافى لكى يرتمى جانبا ثم يرتد حتى الجزء الصلب من السطح . ووقع لوح الزجاج فى المرسم وتفتت متناثرا فوق الارض .. الهرب .. كان لابد من الهرب لاقصاء المجرمين عن فريستهم . وسوف يتفاهمون اذا ما بلغوا الارض المكشوفة .. رجل ازاء رجلين .. كانت اللعبة غير متعادلة وهى معركة خاسرة مسبقا بالنسبة للبارون .. وفكر راوول .. ليتهما لا يطلقان على الرصاص ، فمع اناس حمقى مثل هؤلاء يمكن توقع كل شىء .

واسرع الى سطح المخزن ، ورغم انه كان واثقا من نفسه ومن سرعة قدرته على الارتجال فقد راح يلعن نفسه لانه اتى من غير ان يأخذ معه سلاحا ، فان المسدس الضخم الذى يحتفظ به سيد القصر فى درج مكتبه كان يمكن ان يساعده . وفى اللحظة التى لمست فيها قدماه الارض سمع صيحة : من هنا .. فأسرع نحو الجدار وهو محنى الظهر .

ودوت طلقة خلفه فاعتدل واقفا وهو يسب ويلعن ، ووثب فوق الجدار ولكنه سمع هذه المرة الرصاصة ترتطم بالصخرة ، على مقربة منه . كان الريف يمتد امامه مكشوفا والقمر بدرا ينير المكان بحيث ان راوول كان يرى خياله تحت قدميه كما لو كان الوقت نهارا . واسرع نحو الصخور تشيعه رصاصتان اخريان . وراح يفكر وهو يجرى : ليس فى مقدورهما اللحاق بى ولكن اذا انا هربت فقد تصيبنى رصاصة .. لا تهرب .. لا تهرب .. آه . يبقى حل واحد .. وحل واحد فحسب وانحرف نحو البحر ، واذ تأكد الآخران انهما سيضيقان عليه الخناق فى الفضاء كفا عن اطلاق النار واهتدى على الفور الى الطريق المؤدى الى الصخرة الكبيرة . وكان الرجلان يشقان طريقهما فى المنحدر ، فوقه فى مشقة لوعورة الدرب ، وراحت الحجارة تتدحرج . وبلغ راوول البلاج . ومضى نحو البيت دون ان يسرع .

وصاح البارون : سلم نفسك ، فلا سبيل لك الى الهرب .

ووقف راوول على عتبة الباب ورفع يديه . ووصل الرجلان وهما

يلهثان بشدة ويشهران مسدسيهما فى عزم وقوة . وقال راوول :
ــ حسنا .. حسنا .. لقد ربحتما .

وكرجل مصمم على الحديث فتح الباب ودخل وتبعه الآخران . وكان ضوء القمر يتسرب من خلال النوافذ . ومع ذلك فقد اضاء الخادم مصباحه .

قال البارون : حسنا . لن يزعجنا هنا احد . ان لدينا حديثا طويلا يا صديقى العزيز .. أمور كثيرة .. اجلس .

ــ هذا لا يصح .. تفضل انت أولا .

ــ قلت لك اجلس .. مفهوم يا لوبين ؟

ــ ما دمت تصر بهذه المجاملة التى تناسبك تماما ، فليكن .

وجلس راوول وعقد ساقيه فى غير اكتراث . واخذ البارون المقعد الآخر ، وقال فى خشونة : انا الذى القى الاسئلة .

ــ كلا .

ــ ماذا ؟

ــ كلا ... فطالما لم يعد رجلك المسلح مسدسه الى جيبه فلن اتكلم ..

ــ سوف نرى .

ــ هذا قرارى .

ومرة اخرى خضع البارون لقوة عدوه فاتى باشارة اخفى الخادم مسدسه على اثرها . وعاد راوول يقول :

ــ وبهذه المناسبة ، الم يشترك رجلك الدميم فى الحفلة ؟ .. هل تركته فى البيت ؟ .. هذا اذا لم يكن مستقرا فى قاع السين .

وازاء توتر البارون أدرك راوول أنه لمس الوتر الحساس . وتثاءب فى ادب ، خلف يديه ، ثم قال :

ــ الست ظمآنا .. ان الجرى هكذا بعد العشاء يصيبنى بالظمأ .

صاح البارون : لن تشعر بأية رغبة فى ان تشرب فيما بعد .

ــ هذا جائز . ولكن كأسان من الشمبانيا فى هذه اللحظة بالذات سيكون على الرحب . هناك بضع زجاجات من الشمبانيا فى المطبخ . قد لا تكون الخمر معتقة بما فيه الكفاية ، ولكن شيئا احسن من لا شىء .

وقال يخاطب الخادم : البس قفازك الابيض وامض وائتنا بزجاجة .. سوف يسرنى جدا أن نتناول كأسا .

قال البارون وهو يضحك ضحكة ثقيلة : ما دامت هذه رغبتك الاخيرة فلا بأس بكأس من الشمبانيا .

ازاح الخادم الستارة التى تخفى مدخل المطبخ وهو يقول : هل هى هنا ؟

اجاب راوول : نعم . على اليسار مباشرة .. الزجاجات مرصوصة فوق المائدة ... اننى أعرف ذلك ، فقد رايتها .

واردف يقول فى غير اكتراث لكى يثير اهتمام البارون : كان فى نيتى ان انقل الشيخ برناردان هنا .. ولكن تصور أن ...

بدا البارون يقول : آه .. هذا ما اريد ان اتحدث عنه بالذات .

قطع عليه الكلام فرقعة مفاجئة ، فقد ابتلع الشرك الخادم . وهب البارون على قدميه وهو يقول : ما هذا ؟ .. ماذا تصنع ؟

وازاح الستارة ، ووقف مصعوقا وهو يرى الغرفة شاغرة . ولم يترك راوول له الوقت لكى يعود من دهشته فأسرع نحوه ودفعه بقبضته الى الامام . ووجد البارون نفسه يندفع نحو الشرك ، واختفى بدوره وهو يصرخ .

وجفف راوول اصابعه بمنديله وهو يقول : اف ! .. ان التسليم من الباب للباب أمر مرهون ... اننى لاستحق حقا أن اتناول كأسا بعد هذه المشقة .

ودار بالباب القلاب ، والتقط فى طريقه المصباح الذى وقع من الخادم ودخل المطبخ . وهناك ، ورغم توتره العصبى انفجر ضاحكا .. كلا .. ان هذا لامر غير مصدق . لقد صدق من غير أن يدرى . كانت زجاجات الشمبانيا موجودة ، ولكنها لم تكن مرصوصة فوق المائدة وانما على الارض . كان هنا ست زجاجات .. آه يا بارون ، هذه متعة ليس بعدها متعة واننى لاشكرك .

ولكنه كف عن المزاح على الفور .. هذه الزجاجات .. فكر فى وليمة الذكرى السنوية التى اعدها جاك فيرانج بكل الحب ... ووجد فى الشمبانيا مذاق الدم . وعاد الى الستارة فى صمت واصاخ السمع . كانا يكثران من الحركة تحت قدميه . وانحنى نحو الباب القلاب وصاح :

ــ لا داعى للتعب والارهاق ايها الصديقان فلن ينجدكما احد .. ولكن انا استطيع .. هل تسمع يا بارون ؟ لا يوجد هنا غير شخص واحد يلقى الاسئلة ، وهو انا .. فأجبنى اذن . ماذا كنت تطلب

من الفونس فيرانج بكل تلك الرقة ، هيا . تكلم ، فاننى بحاجة الى النوم ، ولن ابق هنا طوال الليل .. كلا ؟ اعلم اننى لست بحاجة اليك . سأعود الى الكرمة وانقذ ذلك الرجل العزيز ، وسوف يسره ان يخبرنى بما اريد .. اذن ؟ كلا ؟ .. حسنا . كما تشاء . فلنتكلم الآن عن الخطاب .. انت تعرف .. خطاب انجلترا الذى يحمل طابع الملكة فيكتوريا .. فيما بيننا ، هو خطاب ثمين يطيب لهواة جمع التحف الحصول عليه .. اذا اعطيتنى اياه افتح الباب .

دوت طلقتان اصمتان رجتا الارض ، وظهر ثعبان فى خشب الباب . وقال راوول :

ـ حسن جدا . ارى ان علاقاتنا ما زالت على توترها بعض الشىء ... هذا امر مؤسف .. ولكننى أحب مع ذلك ان انبهك .. اذا كنت لا تعرف ، فان معكما رفاق فى القبو .. نعم .. هيكلان . اذا تحسست الارض فى رفق فسوف تجدهما ، وصدقنى يا بارون انه ليس من مصلحتك ان توقظهما .

ساد صمت عميق ، وعاد راوول يقول : هل تحب ان اقوم بواجب التعارف ؟ جاك فيرانج وزوجته .. البارون جالسيران وشريكه .. ميتان تحت التنفيذ .

وردت عليه صرخة ذعر ثم ارتفع صوت البارون وهو يتهدج من الانفعال : لست انا .. لست انا .. افتح .. افتح .

سأله راوول : من اذن ؟

ـ لا ادرى .. اقسم لك .

ـ اليس لديك اية فكرة ؟

لم يأته اى رد . ولم يزد راوول اصرارا فان الليل سيكون خير ناصح للبارون .. وخرج واغلق الباب فى عناية كبيرة . وكانت الحصى تبرق تحت ضوء القمر حتى الامواج الاولى التى تتلاطم فوق الشاطىء من بعيد . واحس راوول بالتعب ، ولكنه ما كان ليرضى بالراحة ولا حتى بالجلوس لحظة لكى يمتع عينيه بهذا السماء التى تتناثر فيها النجوم .. كان شغله الشاغل ان يسرع الى الشيخ برناردان فى بيت فيكتوار .. وفكر .. البـــــارون فى القبو .. والفونس موثق القيادة فوق مقعده .. لقد كثر عدد الاسرى .. يجب ان افتح سجنا قريبا .. وفى بطء صعد الدرب وهو يتوقف من لحظة لاخرى لكى يسترد نفسه مستمرا فى تأملاته . لا ريب ان

البارون لم يكذب عندما قال انه لا يدرى من الذى قتل جاك فيرانج وزوجته ، ووقوعه فى الفخ دليل على انه لم يكن يعرف شيئا عنه . ولا ريب كذلك فى انه لم يشترك فى الاعتداء المدبر ضد لوسيل ولا ذلك الذى وقع للوصى على الفتاة . هناك شخص آخر يعمل فى الظلام ، وهو يخطط لجرائمه بكل ذكاء ودهاء وينفذها فى غير رحمة، فى الخفاء ، دون ان يعرف أحد شيئا عنه .

سرت قشعريرة فى بدن راوول . كان يكره النضال فى الخفاء . هذا الرجل الشجاع ، القوى . الذى يعرف كل الحيل كان يخاف من كل من يضرب غدرا وخيانة ، ومن كل من يضع قناعا ويتقدم فى صمت وسكون مرفوع الذراع كما يفعل الاوغاد والاوباش . وبلغ الشاطىء .. هيا .. جهد آخر يتكم الفونس فيرانج ، فلا شك انه يعرف شيئا والا لما تعرض لاعتداء البارون . لا أحد فى المكان .. لم يسمع احدا صوت الطلقـــات .. لم يكن فى الجو غير زقزقة العصافير .. لا حاجة به الآن للوثوب فوق الجدران وتسلق المخزن.. كانت كل الابواب مفتوحة ، فقد خرج البارون وشريكه مسرعين . وأسرع راوول واجتاز البهو الذى تغطى اللوحات جدرانه ، حيث يقع فى آخر سلم صغير صعد درجاته فى طرفة عين ودخل المرسم .

كان الفونس فيرانج منهارا فوق مقعده وهو لا يزال موثق القياد وقد اخترقت رأسه رصاصة .

- ٧ -

المذبحة

وهكذا ضرب الوحش ضربته ، بل لعله لا يزال فى البيت لان جسد الفونس فيرانج كان لا يزال دافئا . وابتعد راوول عن الجثة وهو يسحق تحت قدميه الزجاج فى صوت صـــاخب رغم حذره وحيطته . ووقف فى ركن خفى لا يمكن لاحد ان يراه منه سواء من الخارج او من رأس السلم . كان يجب ان يرسم خطـــة سريعـــة مفاجئة وان يبادر بالهجوم والا فان جرائم جديدة يحتمل ان تقع . ومع ذلك فان راوول لم يستطع ان يحول عينه عن الجسد الموثق القياد . انتابه الحزن فانه فى اهتمامه بنضاله مع البارون لم يخطر له ان « الآخر » يمكن ان يكون موجودا فى ساحة المعركة فى نفس الوقت . وفى اللحظة التى اعتقد فيها انه اصبح سيد الموقف اذا به يغلب على امره بصورة نهائية وبطريقة مهينة ويقهره رجل اكثر منه حدة وذكاء .. رجل يتمتع بقســوة وضراوة ينتهز اهون الفرص للقتل .

تردد راوول فجأة وهو لا يدرى اى تصرف يجب اتخاذه . اذهلته المفاجأة واحنقه احساسه بانه اقل من مســـئول . وقف جامدا لا يتحرك ويداه فى جيوبه يحاول ان يحلل الموقف . انه اخطأ فى اشتباهه فى الفونس فيرانج . لم يكن هناك شك الآن فى انه برىء آخر يدفع . ولكن ما معنى هذه المذبحة ؟ واضح الآن ان آل فيرانج يملكون سرا لا يعرفونه وقد استولى البارون على مذكرات الكونت يونرفيل فى البداية لاكتشاف هذا السر . واذ لم تفده المذكرات فى شىء اختطف الشيخ برناردان ، ثم حصل بالدهاء والحيلة على خطاب انجلترا ، ولكن الخطاب لم يفده هو الآخر ما دامت نيته قد اتجهت الى الاعتداء على الفونس . ولعل ذلك بسبب كرمة القديس جان . كل هذا كان يبدو واضحا بما فيه الكفاية . اما الشىء الغامض

الذى لا معنى له ولا منطق والذى يزخر بالثغرات والمتناقضات فهو نشاط الآخر المخيف .. جريمتا الصخرة الكبيرة والاعتداء المدبر على لوسيل والآخر الذى راح عمها هوبير ضحية له .. كلها فخاخ منصوبة ، ربما منذ اسابيع .. فلماذا كل هذا البطء الذى يتسم بالمكر والخبث ، وما هى الغاية التى يسعى اليها المجرم على وجه الخصوص . هل يريد ان يكتشف السر هو الآخر ؟ ولكن باية وسائل ينوى الوصول الى غرضه ؟ هل يعلم بأمر المذكرات ؟ والخطـاب وكلمات السر ، تلك الكلمات التى اضطر برناردان الى البوح بها تحت وطأة التعذيب ؟ وهل ذهب ابعد من البارون فى اكتشاف الحقيقة ؟ واذا كان السر ما زال مستغلقا عليه ، أفليس ذلك لانه يقوم على أسس غامضة وعلى رموز عجز عن الاهتداء الى حل طلاسمها ؟

وعاد راوول يقول : اما انا فيجب ان اهتدى اليها ، بل ان الامر الامر اكثر من ذلك . كان يجب ان اكون قد اهتديت اليها . ربما لا ينقصنى غير نقطة واحدة فانا لم ادرس العناصر التى املكها بما فيه الكفاية . ونسى المنظر الدرامى الذى يطـــالع عينيه ، واسرع فاستعاد الى ذهنه كلمات الشيخ برناردان وكلمات الاستاذ فرينيزو . ماذا قال موثق العقود ؟ « لماذا أصر الملك لويس فيليب ، وهو هارب، على العودة الى قصر يونرفيل فجأة متحديا هكذا خطر الموت ؟ » كانت هذه العبارة هى الاخرى مفتاحا لحل اللغز ، فقد عاد الملك لسبب قهرى وقام باجراء شهده ايفاريست فوتيريل الخـــادم الامين ، ابو برناردان . وقد انقرضت عائلة الكونت يونرفيل ولكن آل فوتيريل ما زالوا على قيد الحياة ، ومن هنا اختطاف الشيخ وتصرفات البارون تبدو معقولة ولكن لماذا اعتدى « الآخر » على آل فيرانج ؟ .. هنا الغموض من جديد .

تنهد راوول طويلا وبدا كأنه يصحو . هل يفتش الجثة ؟ لــكن ما الفائدة ؟ لو ان المسكين كان يملك شيئا ذا اهمية فان العدو قد حصل عليه . بيد ان راوول كان يملك ورقتين رابحتين ، وعليــه الآن ان يلعب بهما ، والورقة الاولى هى البارون ، فبعد ان يمعن هذا الاخير التفكير والتروى فى حفرته ، وبعد ان يعلم ان الفونس فيرانج قتل فانه سوف يدرك ان من مصلحته ان يتكلم ، ومهما يكن فسوف يحصل راوول على خطاب انجلترا ، ثم يبقى عليه بعد ذلك ان يحمل الشيخ برناردان على الكلام .

هبط راوول السلم القصير واسترد نفسه لثانى مرة ، وأحس بأن الحياة تحمله من جديد ، كزورق يرفعه ماء البحر شيئا فشيئا . وقبل أن يغادر البيت القى نظرة خبير الى اللوحات التى رسمها جاك فيرانج ومهرها بتوقيعه وتمتم يقول :

ـ اقل من المتوسط .. مسكينة لوسيل ! لم يكن ابوك يتمتع باية موهبة فى الرسم .

وعندما هم بالخروج تمالك نفسه ومضى الى المطبخ ، واخذ بعض الخبز واللحم البارد :

ـ اذا اردت ان احملهما على الكلام فلابد من اغرائهما .

وابتسم لانه كانت فى الردهة مرآة كبيرة عكست صورته ، وأومأ براسه لنفسه مشجعا . لم تكن الساعة ساعة مزاح او مداعبة ، ولكنه كان قد راض نفسه منذ وقت طويل على التغلب على مشاعره امام الموت . وعاد الى طريق « الصخرة الكبيرة » وبحركة آلية اقتطع كسرة من الخبز واخذ يأكلها وهو مسرع . وكان منظرا مذهلا ان ترى هذا الموظف البسيط الذى يرتدى جاكتة فضفاضة من الجوخ وهو يأكل على ضوء القمر ويضم الى صدره طبقا من اللحم وبعض الخبز ويخاطب خياله المفرط الطول الذى يصاحبه فى سيره .

« مساء الخير يادون كيشوت . يسرنى أن التقى بك ، فانت لم تظهر الا فيما ندر ، منذ بعض الوقت . هل تسمح ان اغذيك قليلا فاننى لم ارك ابدا بمثل هذا الهزال .. ذلك انك لقيت منهم الكثير .. آه .. ليس غريبا أن تدافع عن اليتامى كل يوم ، فهذا يضرب ذات اليمين وذاك يضرب ذات الشمال . ولكن اعترف انك لن تكون انت نفسك الا اذا لفظ الجحيم ابالسته السوداء عليك . تعالوا ايها الابالسة لكى امزقكم اربا .. هذه الفطيرة لذيذة .. ذقها واستمتع بالحياة .. انهما فى انتظارى .. امض . كلا ، انت على عجل دائما .. تصور اننى ايضا مثلك .. حذار ، فقد تقع على ام راسك .. ها هو طريقك » ...

واندفع راوول فى الدرب الضيق ووقف امام الكوخ ... لم يكن يقطع الصمت غير دوى الامواج البعيد . ودخل ، وقال :

ـ مساء الخير ايها الصديقان . لقد أتيتكما ببعض الطعام .. وجبة صغيرة تسندكما شيئا ما .. فى مقدوركما ان تشكرانى على الاقل .. ماذا ؟ اغاضبان انتما ؟

وفى حركة خرقاء فتش فى جيوبه بحثا عن المصباح الكهربى دون ان يتخلى عن الطعام . واضاءه اخيرا وأزاح الستارة وافلتت من بين شفتيه سبة فقد كان الفخ مفتوحا وطرف السلم يبرز منه .. لقد هربا ... طارا ... ولكن من الذى خلصهما ؟ .. من « الآخر طبعا » فلابد انه كان يراقبه واسرع الى الكوخ بمجرد ان رآه يغادره .. والقى بالخبز والطعام على المائدة وعاد الى القبو وبعث ضوء المصباح داخله .

واخذته غصة على الفور ، فقد كانا موجودين .. كانا ملتصقين بالسلم وراس كل منهما ما تزال مرفوعة الى اعلى ، وكانا ملوثين بالدم وقد تجمدت عيناهما رعبا وذعرا .. أصيب كل منهما فى مقتل وفاضت روحه على الفور .

وراى راوول بعين الخيال رغما عنه تلك اللحظة الاخيرة .. السلم يقلب باب الفخ والبارون سرع قبل خادمه ولكن اليد المسلحة تظهر فجأة ، وتنطلق الرصاصتان تتبعهمـــا حشرجة الموت ثم الصمت المطبق .

لم تعد لراوول القدرة على التحرك .. لم يخطىء حين خطر له ان البارون ورجاله ما هم الا شركاء للوحش . لقد لعب البارون دوره الاخير وخسر . أما « الآخر » فبعد أن تخلص من الفونس فيرانج تابع عملية الموت فى القبو ولم يعد امامه الا ان يهبط لكى يأخذ خطاب انجلترا من جيب القتيل . والآن ؟

بعد استبعاد البارون يبقى الغريمان وجها لوجه .. راوول وشبح من المتعذر امساكه .. شبح موجود فى كل مكان وغير موجود .. يضرب تارة فى بطء بحذق غادر واخرى بوحشية وبسرعة الكوبرا ... واخترقت فكرة مخيفـــة ذهن راوول فجأة .. برناردان ... ما دام « الآخر » يعرف كل شىء ، وما دام يسبق غيره كما لو كان يقرا افكار خصمه فلعله يعرف الآن مكان الشيخ العجوز ! .. ولعله فى هذه اللحظة بالذات .. كلا .. لو حدث هذا فانه ليكون امرا فظيعا .. ولام نفسه لقضائه اليومين الاخيرين من غير عمل ، بجوار لوسيل الفاتنة .. ما كان يجب أن ..

وانتصب راوول واقفا ضاما قبضته وهو يغلى من الغضب . يجب ان يسرع بالعمل وأن ينقض على الآخر انقضاض الصاعقة وان يدبر وسيلة للدفاع قبل ان يفوت الاوان . واندفع خارج البيت ، ومن الهزيمة برز رجل المناسبات العظيمة الذى لا يمكن أن يوقفه شىء .

واسرع نحو قمة الشـــاطىء حيث ترك السيدكار . وادار المحرك وجلس على مقعد القيادة ، واندفع الموتوسيكل فى دفعة غاضبة . كلا . لا يمكن ان يكون الوقت قد فات فان « الآخر » لايملك وسائل خارقة . ولكن لعله يستخدم سيارة . . اذن . . ان المسألة الآن مسألة سرعة ، وهى مباراة كان راوول واثقا من كسبها .

راح الموتوسيكل ينطلق بأقصى سرعة وراوول يهتز فوقه بشدة . ولحسن الحظ كان ضوء القمر يملأ الطريق بنوره لان السيدكار لم يكن مزودا باية مصابيح ، وساقه راوول كيفما اتفق وهو يضغط على اسنانه وريح السباق تجمد العرق فوق جبينه . واندفع اكثر من مرة فوق العشب واوشك ان يقع ، ولكنه كان يعود الى الطريق فى اصرار ويندفع فى جوف الليل . وعندما رأى بيت فيكتوار الابيض من بعيد لم يكن قد التقى بأحد ولم يسبقه اى احد . كان وحده تماما ، وكان واثقا من انه وصل قبل « الآخر » .

وضغط على الفرامل بشدة بحيث انزلق الموتوسيكل ودار به دورة كاملة ولكنه لم يعبأ بذلك ومضى نحو باب الحديقة وهو يترنح . كان من الجنون أن يتملكه الخوف هكذا . هل كان يترك العنـــان للخوف لكى يستولى عليه هكذا فيما سبق ؟ ولكنه لم يكن خوفا ، وانما كان حرصا وحذرا . بل لعله افراط فى الحرص والحذر ، وهو قد تصرف حتى الآن تصرفا أهوج وبدون ترو حقا ، ولهذا عاهد نفسه وهو يدفع باب الحديقة ان يضاعف الحراسة بعد ذلك . وطرق باب البيت ثلاث مرات وهو ينتظر أن تفتح فيكتوار النافذة لان نومها خفيف ، وتلقى اليه بالمفتاح .

وصاح فى صوت خافت : فيكتوار .. فيكتوار .. افتحى لى .

وضاعف القلق خوفه وجف حلقه .. فيكتوار .

وتأهب لكى يحطم الباب وهز الاكرة فى غضب ولكنها دارت فى يده بسهولة وانفتح الباب .. لم يكن موصدا بالمفتاح .

ـ عجبا !

واضاء مصباحه واسرع يرتقى الســـلم فى غير حذر . كانت فيكتوار ممددة فوق فراشها موثقة اليدين ومكممة وفوق عينيهـــا عصابة . ولم يفكر راوول فى ان يضيع الوقت فى تخليصها وانما اندفع الى الغرفة المجاورة . كان برونو هو الآخر موثق اليـــدين والقدمين وفى فمه منديل .

ـ يا للشيطان !

وافلتت قدمه احدى الدرجات وكاد يقع لو لم يتشبث بالدرابزون ،

وكبا على ركبته ونهض وهو يعرج . واندفع الى غرفة برناردان .. كان المزلاج قد رفع من مكانه فدفع الباب بركلة من قدمه .. كانت الغرفة خالية .. اختفى العجوز .

احس بالاعياء وتهالك فوق الفراش واخذ راسه بين يديه . لم يكن هناك شك الآن فى أن الآخر قد عرف السر ، فهو يملك الخطاب وبرناردان .. ولكن ما هذا السر الذى مات بسببه كل هؤلاء الضحايا .. وعصف الالم براوول ونزف قلبه دما واحس بحاجته الى ان يلوذ بجوار فيكتوار ، ومضى فقطع قيودها وازال الكمامة عن فمها ودفن جبينه فى صدرها .

ـ فيكتوار .. عزيزتى فيكتوار ...

وبقى جامد الحركة مدة طويلة كما لو انه اراد ان يستمد من صدرها قوة جديدة ، ولزمت فيكتوار الصمت ولم تفكر فى الشكوى وذراعها حول عنق ذلك الذى ربته واطعمته وملأ حياتها صخبا ومآس . ورفع راسه أخيرا وقال :

ـ ماذا حدث ؟

ـ ولكننى لا ادرى . كنت فى المطبخ ، وسمعت حركة خلفى ، وحسبت انه برونو فلم التفت ، واحسست بشىء يوضع حول راسى فلم ار شيئا .. اننى اصبحت امراة هشة بعد أن بلغت هذه السن ، وتملكنى الخوف وفقدت رشدى على الفور . وعندما عدت الى الوعى وجدت نفسى هنا موثقة اليدين والقدمين كما وجدتنى .

ـ متى حدث هذا ؟

ـ حسنا . قبيل الغداء . كنت أعد عجة لان برونو يحبها مثلك .. وكان فى الحديقة يجمع لى بعض البصل .. ولكن ماذا حدث له .

ـ انه فى الغرفة المجاورة موثق هو الآخر .. ولا ريب انه يجد الوقت طويلا . انتظرينى هنا يا عزيزتى فيكتوار .. سآتيك به .

ومضى راوول فقطع قيود برونو التعس ، ونزع المنديل عن فمه .

ـ آه . أهذا انت أيها الزعيم ؟ .. ولكن العجوز .. ماذا حدث له ؟ ..

ـ اختطفوه .

ـ هذه غلطتى انا .. كان يجب ان احترس ، ولكن كان كل شىء هادئا . ثم اننى كنت أعرف انك قريب .. كنت فى الحديقة وتلقيت ضربة على راسى .

ـ الم يتكلم برناردان ؟

ـ هو ؟ .. انه اشد عنادا من البغلة .. ولا حتى صباح الخير أو

مساء الخير . .

ـ سوف يتكلم الآن . سوف يعمل خاطفه على ذلك ما دام لم يقتله كما ...

توقف راوول . لا حاجة به لان يطلع برونو على مجرى الاحداث ، فهو قد عانى الكثير حتى الآن .

ـ اننى آسف يا زعيمى .. آه .. واننى لغاضب من نفسى .. غاضب جدا .

ـ لا عليك يا صفيرى .. ليس الذنب ذنبك ، اذا كنا قد وقعنا على شيطان حقيقى . بل انك محظوظ ، فقد كان فى مقدوره ان يقتلك انت ايضا ، واننى اتساءل لماذا لم يقتلك .

وضغط بشدة على ذراع برونو ثم قال : وهذا هو الامر الذى يخيفنى ويثير حيرتى . هناك منطق لا افهمه . ان نقطة الضعف عند الذين تغلبت عليهم حتى الآن هى انهم يفكرون مثلى ، ولكننى افكر اسرع منهم . اما هو فانه يحيرنى .

ـ وفيكتوار ؟

ـ اطمئن . انها بخير . اصابها من الخوف اكثر مما اصابها من الضرر . ان هذا الوحش يعرف كيف يمتنع عن الاذى عندما يريد . تعال لكى تراها .

ومضى به الى غرفة فيكتوار ، وكانت المراة العجوز قد استردت قواها ، وقالت تخاطب راوول :

ـ ارح قلبى وطمئنى يا حبيبى .. الن تكف ابدا ... الست غنيا بما فيه الكفاية ؟

اجاب راوول فى اكتئاب : ولكننى لا اسعى وراء المال ولا وراء المجد ولا وراء اى شىء . اننى اذود عن نفسى فحسب . سوف تبقين هنا يافيكتوار ، واعدك انه لن يقع لك شىء بعد اليوم . اما انت يا برونو فعد الى باريس . واذا احتجت اليك فسأبعث فى طلبك .

ـ حسنا ايها الزعيم ، ولكن لعلك لا تطردنى ، فاننى ما زلت جديرا بأن اخدمك . لو انه لم يضربنى من الخلف .

وراح يدعك راسه فى تفكير : عندما افكر اننى لم اسمعه وهو يقترب منى .

قالت فيكتوار : هل تريد فنجانا من القهوة ؟

ـ نعم . واشكرك يا عزيزتى فيكتوار فاننى فى مسيس الحاجة الى منعش .

ـ ٨ ـ

القديس جان يخلف يعقوب

بعد ساعة من ذلك ، وبعد ان اودع راوول السيدكار الجاراج عاد الى القصر ولكنه لم يدخل غرفته وانما مضى راسا الى غرفة هوبير فيرانج . كان المسدس مكانه ، فى درج الطاولة ، وبعد ان تحقق من الخزان وضع المسدس فى جيبه ثم طاف بالقصر فى جولة تفتيشية .

وهكذا وقع برناردان المسكين بين يدى مختطفه منذ نحو اثنتى عشرة ساعة ، ولم يجرؤ راوول ان يتصور التعذيب الذى لابد قد تعرض له من جديد .. يا للشيخ المسكين ! لن يراه احد بعد اليوم بلا ريب ، فسوف يخفيه « الآخر » بعد ان يحصل منه على المعلومات التى تنقصه ، وهى معلومات لم يكن هناك ادنى شك فى انها اصبحت فى حوزته الآن ولكن ، من المؤكد ان سر يونرفيل يتعلق بشىء موجود فى القصر ، وعلى ذلك فسوف يدور الفصل الاخير من المهزلة بين هذه الجدران .. نعم .. سوف يقع شىء رهيب .. ولكن ما هو بالذات ؟

كان راوول مرهقا ، ومع ذلك فقد مضى مرة اخرى الى المعرض ووقف لحظة يتأمل لوحتى يعقوب والقديس جان . ولكن الوميض الذى لمع فى ذهنه عندما اكتشف هاتين اللوحتين خبا ، وفحص الجدران مرة اخرى براحة يده زيادة فى التأكد ، ثم مضى الى المكتبة ودخن سيجارة وهو جالس فى مقعد سيد القصر وعاد يقول فى بطء مركزا كل اهتمامه : القديس جان يخلف يعقوب .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. وهناك دم بعد ذلك . لقد تكلم برناردان . ونام نوما مضطربا تسبب فى ايلام جسده كل الالم ، وكان يفتح عينيه من وقت لآخر ويتكلم صوت فى داخله فيقول : « يجب ان اجد .. لابد لى ان اجد .. » ولكن راسه كانت تتهاوى

فوق صدره من جديد .

وكانت لوسيل هى التى هزته فقال وهو يفتح عينيه :

ــ ايه .. ماذا ؟ .. اوه ، لوسيل .

وتمالك نفسه على الفور ونهض وقد اخجله ان تراه وهو فى هذه الحالة ، دون حول ولا قوة ، وتمتم : ولكن ، كم الساعة الآن ؟

ــ الثانية .

ــ احسنت بايقاظى . اردت ان استريح لحظة فحسب ، غير اننى غرقت فى النوم . اننى عدت فى وقت متأخر ، ووقعت احداث كثيرة .

ــ وهى احداث لا تريد ان تطلعنى عليها .

ــ اوه ، ليس هناك ما اطلعك عليه بعد ، فاننى ما زلت اتخبط واجمع بعض المعلومات . سامضى الى دورة المياه بعد اذنك ، وسالحق بك فى غرفة الطعام .

واسرع بمغادرة الفتاة ، بعد ذلك بدقائق وضع راسه تحت صنبور المياه وهو يشعر بلذة كبيرة . كان يود لو أن يقف تحت الدش بيد ان القصر كان يفتقر الى الكثير من الكماليات . ولكنه لم يحفل كثيرا بذلك وقال وهو يحلق لحيته : للضرورة احكام .. المهم أن ابدو فى صورة حسنة . وبخبرة الممثل أعاد الى وجهه ومضة الشباب ونضارته .

ومع ذلك فقد كان متعبا حقا . غير انه كان قد اعتاد منذ وقت طويل الا يصغى الى مطالبات جسده ، فنفض ثيابه بالفرشاة فى عناية كبيرة ولبس ياقة منشاة وربطة عنق اكسبته هيئة الموظف البسيط . واذ عادت شخصية كتارا من جديد ازداد احساسه بطعم المغامرة . ولم ينس طبعا ان الخطر يزداد من دقيقة لاخرى ، ولكنه كان يرفض مواجهته بوجه شاحب ، ولم يكن يشعر بمدى قوته الا عندما يكون مرحا . ودفعه التحدى الى أن يأخذ زهرة قرنفل من الباقة التي فوق الموقد فثبتها فى عروة جاكتته ثم نظر الى المرآة مرة اخيرة وقال مازحا :

ــ ولكن ماذا فعلت حتى الآن ايها الاحمق .. هيا ايها الابله ، امض وغازلها وقل لها ان عينيها اضرمتا فى قلبك نيرانا لا يمكن لاى شيء فى الدنيا ان يطفئها . تحذلق واطربها وحاول ان تنسيها ان الموت سبق وطرق الباب ، واذا استطعت فاطرب الموت ايضا .

وهبط الى غرفة الطعام ، وكانت ابولين تعد طعام الافطار ، وكانت تبدو غاضبة ، وقالت :

ــ تبا لهذه الطفلة ... منذ ان رحل جدها وقد اصبحت مستحيلة .

سألها راوول : ماذا فعلت ؟

ــ انها تسرق .. سرقت امس صندوقا من البسكويت ايضا ... مع أننا لا نمنع عنها اى شيء عادة . هذا تصرف مرذول ولكننى سوف أعاقبها .

قالت لوسيل : رويدك .. اغفرى لها هذه النزوة . ان الطفلة المسكينة تعيسة ولها الحق فى كثير من التسامح ، اليس كذلك يا مسيو كتارا ؟

ــ اعتقد هذا . يمكنك ان تتغاضى عن هذا الامر يا مدام ابولين ، ولكن اذا اعادت الكرة فلابد من العقاب طبعا .

وانهت لوسيل الموضوع قائلة : انتهى الامر .

وعندما انصرفت أبولين تنهدت وقالت : كل الامور تسير بطريقة عكسية . ولحسن الحظ انك موجود والا فلست أدرى ماذا يكون من امرى . ان ابحاثنا للعثور على برناردان ضاعت سدى ، والجميع يعتقدون الآن ان مكروها قد وقع له . هل تظن ان هناك علاقة بين اختفائه وبين ما حدث .

كذب راوول فقال : لا ادرى . وكل ما استطيع قوله هو اننا نقترب من النهاية .. ولكن اية نهاية .. لا ادرى . هناك احداث تجرى ، ويجب ان نكون على اتم الاستعداد .

وداعب رأس بولوكس ، وكان راقدا بجوار لوسيل ثم قال : احتفظى به بجوارك ، ولا تحسبى اننى اخرف .. وارى الآن ان اعمل قليلا فى المكتبة فلا ادعى لاراحة الذهن الا مثل هذا العمل الممل .

ــ ما دام الامر كذلك فساساعدك .

لم يجرؤ راوول على رفض مساعدتها . وهل كان يمكنه ان يقول للفتاة : تجنبينى .. الا ترين ان هذه المشاعر الحميمة شديدة الخطر بالنسبة لك ولى على السواء ؟ .. فبمجرد قدومى تتذرعين بكل الحجج لمرافقتى فى كل مكان . لو انك كنت اقل سذاجة لعرفت معنى ذلك .. ثم اننى اكثر منك اثما لاننى اترك الامور تجرى .. ولكن عذرى انك جميلة واننى وحيد .. اننى اجد نفسى وحيدا جدا عندما تتخلى عن المغامرة .

وذهبا الى غرفة المكتبة وراحا ينسقان الكتب . وكانت تثرثر بين عناوين تكتبهما بخطها الجميـل .. قالت :

ـ كيف فعلت لكى تحصل على تصريح من جريدتك .. اننى كنت اعتقد ان الصحفى يجب ان يعمل فى مكتبه ليل نهار .

ـ كيف فعلت ؟ .. آه .

كان راوول يفكر فى يعقوب والقديس جان فاسرع يقول كيفما اتفق : ذلك اننى اشتغل بالقطعة .. فانا صحفى مستقل .

ـ بالقطعة ؟ ما معنى هذا ؟

ـ حسنا .. اننى اقترح موضوعا على الادارة وينقدوننى اجرى على كل مقال .

ـ ولكن هذا امر مثير .. وددت لو ان اكون صحفية .. ايدفعون ثمنا لاى مقال ؟

ـ طبعا .. اذا كان جديرا باثارة اهتمام القراء .

ـ وعندما يرسل مقالا او خطابا .. هل يدفعون له ؟

ـ من ؟

ـ ارسين لوبين .

ـ آه . ولكن .. الا تفكرين الا فى هذا الارسين لوبين ؟ .. اننى اغار منه .

اصطبغ وجهها ، وانحنت فوق السجل لكى تكتب فى تركيز : ارشيف نورماندى ، ولكنها لم تلبث ان رفعت راسها وقالت :

ـ لماذا لا تكتب له ؟ .. اننى قرات انه يحب فك الالغاز .. ويوجد هنا لغز طبعا ، اليس كذلك ؟

نظر راوول اليها .. شقراء ، وهشة ، وفاتنة .. وهز راسه وقال : ربما اكتب له فى الواقع .

ـ وهل تعرف اين يقيم ؟

ـ اظن ذلك .

تمتمت لوسيل فى اسى : اوه ، انه لن يزعج نفسه من اجلى فما انا بشىء يذكر .

ـ هل لك ان تسكتى ؟ .. صدقينى اننا سوف نستطيع معا ان نجلو سريونرفيل .. آه ، حذار .. ارشيبالد قبل ارشيف .

ومضت الساعات . وفجاة تذكر راوول انه نسى هوبير فيرانج المسكين تماما واضطرم وجهه بدوره كطفل اذنب وقال :

ـ معذرة يا لوسيل .. وعمك ؟ .. اننى لم اسالك عن اخباره .

ـ لقد طمأننا الطبيب .. كسر بسيط .. يجب ان اذهب لزيارته بعد الفراغ من الغداء ..

واصطحبها اشيل . وكانت حالة المصاب طيبة . كانت ساقه موضوعة فى الجبس وقد اسعده ان يرى ابنة أخيه واسعده اكثر ان يعرف انها فى رعاية سكرتيره وأن تبويب الكتب وتنسيقها يتقدم بصورة مرضية . وقال يخاطب لوسيل :

ـ يجب ابلاغ عمك الفونس ، ولو بداعى الادب . اننى اعرف طبعا انه لا يهتم بنا ابدا ، ولكنه سيشعر بالاستياء اذا نحن لم نطلعه بما حدث لى .

وتذكر راوول ان صاحب كرمة القديس جان التعس كان يعيش وحده . ولا ريب ان الجريمة لن تكتشف قبل بضعة ايام . ومعنى هذا انه لا زالت امامه مهلة وان الاحداث التى يخشاها سوف تقع حتما قبل ذلك . وتبادلوا حديثا وديا مدة طويلة ثم افترقوا فى وقت متاخر من الاصيل ، وكل منهم راض عن الآخر .

وقالت لوسيل والسيارة تدخل فناء القصر : سوف تعمل الآن وحدك ، اذ يجب أن اجمع باقة من الزهور ، ولك أن تطمئن .سوف يرافقنى بولوكس فى البستان .

ـ باقة ؟ .. ولمن ؟

ـ لماما .

دار هذا الحديث فى الفناء ، وادهشت هـذه الـكلمة راوول لغرابتها ، ولكن منذ ان راح يفكر ويفكر فى الكلمات العجيبة التى يكمن فيها حل اللغز وقد شرد ذهنه ، وعاد يقول : لماما ؟

ـ نعم ، فان غدا عيدها .. فقد كانت تدعى جان .

قال فى لهجة مهذبة : آه .. كانت تدعى جان !

وفجاة امسك بمعصم الفتاة وقال : ماذا ؟ .. اكانت امك تدعى جان ؟ اذن فغدا عيد القديس جان ؟

ـ طبعا .

وترك لوسيل مكانها واسرع الى المطبخ . وكانت ابولين تقشر بعض البطاطس ، وسالها : الديك تقويم ؟

نسى شخصيته التى يتقمصها ، وبرز من خلال كتارا شخص مجهول متهور ملأ الغرفة بوجوده ، وراح يضرب الارض بقدميه . وجففت ابولين يديها فى طرف مرولتها وتمتمت تقول فى اضطراب : ها هو ... ها هو .

– كم نحن اليوم ؟

– الرابع والعشرين من يونية .. اظن ذلك . لم اعد ادرى كيف نعيش .

وراح اصبع راوول يجرى على عامود الشهور .. ٢٤ يونية .. القديس يعقوب .. واطبق عينيه ، وانتظر حتى انتظمت ضربات قلبه .. ٢٤ يونيه .. عيد القديس يعقوب .. ٢٥ يونيه ، عيد القديس جان .. ٢٥ يونية يخلف ٢٤ .. القديس جان يخلف يعقوب .. وعانق أبولين ، فأجفلت وصاحت تقول :

– ما هذا ؟ .. لا ريب انك جننت .

صاح : الا تفهمين ؟ القديس جان يخلف يعقوب .. وفى اية لحظة، هيه ؟ .. الا تعرفين ؟ .. هل يجب ان اشرح لك كل شيء ؟ فى اية ساعة ننتقل من يوم الى آخر .. لا حاجة بك الى شهادة علمية لمعرفة ذلك .. فى منتصف الليل طبعا .. فى منتصف ليل ٢٤ يونية يفوز دارتنيان بالمجد والثروة ؟ .. هل تسمعين ؟ لله درك يا دارتنيان !

تمتمت الخادمة : ولكنك جننت حتما .

هتف يقول : طبعا جننت . جننت . جننت تماما .. نعم ، جننت . كنت انتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل . كدت اموت ضجرا يا عزيزتى ابولين .. ان قصركم لا يدعو الى الطرب او المرح . ولكن لحسن الحظ ان القديس يعقوب موجود .. ماذا ؟ .. تقولين ما معنى هذا .. دعينى استرد انفاسى اولا .. ان امركم لغريب . فما ان تبدا القصة حتى تريدون معرفة النهاية .. اهو دارتنيان الذى يثير اهتمامك ؟ .. حسنا تصورى انه يثير اهتمامى انا ايضا . ماذا يصنع فى الرابع والعشرين من يونية ؟ .. ليلة الانقلاب الشمسى بالذات ؟

واستعاد وقاره واعاد التقويم لابولين وهو يقول : لا تراعى ... كنت امزح .. لقد اقمت رهانا .. وهذا كل شيء .. نعم ، رهان ، واظننى سأكسبه .

وعاد فتقمص شخصية امين المكتبة من جديد ، وبدات شكوك ابولين تتلاشى ، وقالت :

– ليس من الخير ان تلهو هكذا يا مسيو كتارا .. لان السيد لو عرف هذا فسوف يفصلك .

وعدها راوول قائلا : لن افعل ذلك مرة اخرى .

واسرع فانضم الى لوسيل وراح يساعدها فى جمع اجمل الزهور

وهو يبذل كل جهده لكى يتغلب على انفعاله .. اخيرا .. اول وميض حقيقى فى جوف الظلمات .. انه يمسك بآخر الخيط الآن ... اول عنصر من عناصر السر كان تاريخا ، وطبعا ، ولهذا السبب بالذات اخذت الاحداث تتتابع بطريقة سريعة ومأساوية منذ بضعة ايام ، شيء على جانب كبير من الاهمية سوف يقع ، وسيكشف العدو عن نفسه اخيرا . مرت شعلة الحماس الاولى واستجمع راوول كل قواه وتغلب على انفعاله ، وعبا كل طاقاته لمواجهة المجهول . كف عن الكلام وراح ينتقل فى بطء من مكان لآخر . وعندما جمعا ما يكفى من الزهور عادا الى القصر فى صمت . ومضت لوسيل مع زميلها الى الصالون ، وتوقفت امام صورة كبيرة موضوعة فوق منضدة صغيرة وقالت : ماما .

راى راوول امراة عادية لا يميزها عن غيرها شيء ، ترتدى قبعة عريضة مشجرة وذراعها فوق مقعد عاجى وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة وتقف امام خلفية عبارة عن لوحة كبيرة من القماش تمثل ابكة جميلة ، وسألته لوسيل : اليست جميلة ؟

– جدا .

ولكنه سرعان ما نسى ام لوسيل .. كان هناك سؤال يلح عليه .. اين سيقع الحدث ؟ .. اعلى الشرفة ؟ .. ام فى المعرض ؟ .. وماذا سيكون ؟ .. ان عبارة دارتنيان يفوز بالمجد والثروة لا يمكن الا ان يكون لها معنى واحدا .. لا ريب انه يتعلق بشيء ثمين .. ثمين جدا ، مخبوء فى مكان ما .. سرت الرعشة فى كيان راوول ومر امام مخيلته كل ماضيه ... المجد والثروة .. كيف لم تحرك هاتان الكلمتان حتى الاعماق .. ها هو قدره يعود مرة اخرى لكى يقوم باكتشاف عظيم .. ها هو يفى بوعده مرة اخرى ، وهو موعد تاريخى طبعا ما دام الملك قد قضى الليل فى بونرفيل وعاد اليها رغم الاخطار التى كان يتعرض لها وابتعد عنها اخيرا كرها .

وترك لوسيل تنسق باقتها ومضى الى المعرض . ومشى فى بطء وحاول ان ينظر الى ما فيه بعين جديدة . ولكن لا اللوحات ولا السجادة ولا الاسلحة .. لم يوح اليه اى شيء من كل هذا باية فكرة هامة .. القديس جان يخلف القديس يعقوب .. مجرد مصادفة .. فهاتان اللوحتان لا تعنيان شيئا – والصدفة وحدها هى التى جمعت بينهما دون شك .. ودارتنيان هو الآخر مصادفة او لعلها كلها ادلة كاذبة وضعت بالذات للتضليل والتمويه . واتخذت افكاره عندئذ وجهة اخرى .. اذا كان ولابد ان يقع فى نفس اللحظة التى

ينتهى فيها يوم ٢٤ يونية لكى يبدا يوم ٢٥ يونية فذلك يعنى ان هناك مخبأ معدا بطريقة اوتوماتيكية لكى ينفتح فى منتصف الليل . ولكن هل يعنى هذا أن ذلك المخبأ ينفتح فى نفس الساعة وفى نفس التاريخ من كل سنة .. انه ليكون مخبأ غريب اذن .. كلا . ليس الامر كذلك . ومع ذلك فانه لم يستطع ان يستبعد فكرة المخبأ ، وراح يتشبث ويمشى فى كل ناحية من المعرض . لقد اكتشف فى حياته الحافلة بالمغامرات مفتاح العديد من الالغاز الاخرى ، وقد ظلت مستغلقة عليه مدة طويلة رغم ان حلها كان من ابسط الامور لانه لم يكن يملك كل عناصرها . ولم ييأس وظل مثـــابرا حتى اكتشفها . كان فيما سبق يتصور العناصر التى تنقصه ، ولو انه لم يعان ما عاناه فى الليلة الماضية ، ولو ان التعب لم يسلبه كل قواه لوقف فى وسط قاعة المعـــــرض لبذل جهدا خارقا ولأرغم الحقيقة على ان تنبثق لانه الساحر الذى يفعل المستحيل . واحس بأنه على حافة الاكتشـــاف ولـــكن التعب والارهاق والافتقـــار الى الراحة ، كل ذلك ساعد الحقيقة على ان تتوارى عنه .. ولم يكن هناك اية فائدة فى ارغامها .

اخرج راوول ساعته واجفل . كانت ساعة العشاء قد ازفت ولم يكن هناك سبيل للنوم ، بل على العكس من ذلك كان لابد له من ان يظل ساهرا وان ينتظر منتصف الليل بمزيد من الاهتمام ، وان يكون متأهبا لكل شىء . كان يلجأ فى مثل هذه الحالات الى اسهل الطرق ، فيتناول وجبة كاملة ولكن دون ما افراط . ولحسن الحظ كانت مائدة القصر حافلة بأطيب انواع الطعام . وعندما سمع الجرس انضم الى لوسيل فى غرفة الطعام . وكان قد استعاد مرحه بجهد اخير من ارادته . ولكي يبدد قلق الفتاة لجأ الى كل مواهبه كراوية. كان يعرف حق المعرفة كيف يحكى اغرب النوادر واطرفها واكثرها اثارة للاهتمام . وكان يكفيه ان يلجأ الى ذاكرته العجيبة لكى يغذى اشد الاحاديث حدة وغرابة . وكانت لوسيل تنظـــر اليه بعينين متسقتين وكانت تسأله احيانا .

ـ هل حدث لك انت كل هذا ؟

ويرد راوول : كلا . ليس لى انا بالذات وانما لصديق عزيز على جدا .. هل لك فى قليل من هذا السمك .. انه لذيذ .. لاجل خاطرى .. واسمحى لى ان اصب لك كأسا اخرى من هذا النبيذ المعتق .

ـ ارو لى قصة اخرى .

ـ ولكن هل تحسبينني شهر زاد يا بنيتى .. حسنا . ساكشف لك اسرار قضية عجيبة اثارت اهتمام الراى العام .. هل سمعت عن مدام ايمبر ؟ .. اعلمى اذن ..

وراحت الساعة الكبيرة تدق الثوانى فى صوت رتيب مسموع ، وبدات خيوط الليل تتسلل من خلال النوافذ المطلة على البستان . واضاءت ابولين الثريا ، وكانت لوسيل لا تزال مبهورة بما سمعت وراحت تنظر الى ذلك الرجل الذى يزعم انه صحفى وقد دفنت ذقنها بين راحتيها ، ناسية الطعام .. كان يبدو لها كأنه شخص آخر لان المغامرات التى يسردها تجسد كلها نفس الميزة المفرطة التى لا يمكن ان يكون صاحبها صحفى ، ولا يمكن ابدا ان تقع لشخص عادى .. كانت على يقين من ان كل تلك المغامرات انما وقعت له هو ولم تقع لصديق عزيز جدا عليه .

واختتم راوول حديثه بأن قال : سأتناول الآن فنجانا من القهوة ، وارجو ان تكون قوية جدا يا ابولين .

قالت لوسيل : لماذا تخفى عنى هذه الحقيقة ما دام ذلك الصديق العزيز الذى تتحدث عنه لا وجود له .

بدا الارتباك على الصحفى المزعوم وقال : أؤكد لك يا لوسيل .. ولكن ليكن .. لقد غيرت بعض النقاط قليلا ، ففى مهنتنا نضطر احيانا الى المبالغة لان القراء يحبون الاثارة .

وجاءت ابولين بصينية ووضعت الفناجين . وقال : قليل من القهوة لا بأس به .. كلا .. هذا امر مؤسف .

انتظرت لوسيل حتى انصرفت الخادمة ثم سـالته فجأة : من انت ؟

ـ انا ؟ .. ولكن هذا السؤال يا لوسيل ؟ .. كأنك لا تعرفين .. انا لا أشبه زملائى طبعا ، فقد شاء القدر ان اشترك شخصيا فى احداث غريبة كثيرة ، ولكن ليس فيها ما يثير دهشتك .

مالت رأس لوسيل قليلا ، وومضت عيناها .. ؟ كان يجب ان يخف النبيذ بالماء طبعا .

ـ من انت ؟

تغير صوتها فجأة ، وبدا اكثر رزانة ووقارا ، وشابته مسحة من القلق . ونهض راوول وانحنى فوقها وقال :

ـ تعالى .. ستكونين افضل فى المقعد المستطيل .

وعاونها على الوقوف ورافقها حتى الصالون المجاور ، يتبعهما بولوكس . وساعدها على الجلوس ، وتمتمت تقول :

ــ راسى تدور بى .

ــ لا تراعى ، سوف تكونين على ما يرام .

وتكومت لوسيل حول نفسها ، وتداعت يدها اليمنى الى جانبها كما لو فقدت الحياة :

ــ حسنا .. حسنا .

واحس راوول بالقلق عليها ، واراد ان يعود لكى ياخذ ابريق القهوة ، ولكن الارض راحت تحيد تحت قدميه فى رفق .. وسطع النور فى ذهنه فجاة .. المخدر .. انه خدرنا .. النبيذ .. واغلق الباب ، وبلغ غرفة الطعام وهو يترنح وملأ فنجان القهوة : ابولين .

وخيل له انه يصرخ ولكن لم تصدر منه غير همسة خافتة . وشرب القهوة جرعة واحدة ، من غير سكر . وتنبه ضميره . واعتمد على الجـــدار ، ومضى الى المطبخ وهو لا يزال يترنح . كانت ابولين نائمة ، وكذلك اشيل وفاليرى ، وقد تدلت رءوسهم فوق المائدة .. وجرى كل شيء تماما كما جرى فى تلك الليلة التى تم فيها اختطاف برناردان .

وتمتم راوول : آه ! .. يا للوغد ! .. كان يجب ان .. ولكن ماكان فى مقدورى ان اشتبه فى النبيذ .

وبدات افكاره تختلط ، وبذل جهدا خارقا لكى يعـود الى غرفة الطعام . كانت الساعة تشير الى التاسعة .

ــ بعد ثلاث ساعات .. بعد ثلاث ساعات .

وراح يتشبث بهذه الكلمات . كان يعرف انه لابد ان يقع شيء ما بعد ثلاث ساعات ، ولكنه لم يكن يعرف طبيعة هذا الشيء .

ومد ذراعه نحو الابريق ، ولكنه لم يصل اليه . وتعلقت اصـــابعه بالمفرش الذى انزلق فى بطء . وتحطم طبق فوق الارض . وايقظه الصوت . لو استطاع ان يمسك بالابريق وان يرش وجهـــه بالماء البارد . ووقع على احدى ركبتيه ، وتحسست اصابعه ثم توقف عن الحركة .

ــ لا يجب ان انام .. لا يجب ان انام .

كان الصوت الذى يدوى فى اعماقه قويا عنيفا ، وحاول ان يرد :

ــ لن انام طبعا .

وتحركت شفتاه ، وانهار . واحس بانه مستلق على ظهره .

ــ ٩ ــ

ليلة الانقلاب الشمسى

راح راوول يناضل نضال المستميت .. نضـــال السجين بين جدران اربعة .. كان يئن من وقت لآخر وينشب اظافره فى الارض . وفجاة تحركت ساقاه كما لو انه كان يجرى ، وراح ينطق بكلمات مبهمة لا معنى لها .. وفى مكان ما من اعماق شعوره كان يهتز وميض من الصحو ، ثم كف عن الحركة ، واخذ ينادى بصوت رتيب غير معروف : لوسيل .. لوسيل .. وشيئا فشيئا احس بان هناك من يتكلم .. ويهمس من بعيد .. « حان الوقت » يجب ان تفتح عينيك .. وعندها سوف تنجو عد من واحد الى ثلاثة ثم ارفع جفنيك .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. » .

وامتثل لكى يعرف من الذى يتكلم .. واحاطه من كل جانب صمت ثقيل مطبق .. شيء واحد كان يحتك بوجنتيه ويدغدغه ، وبحركة مترددة قام بها اكثر من مرة رفع يده ولمس قماشا لم يعرف ما هو .. ولكنه راح يتحسسه . كان اشبه بغطاء وفوقه مائدة . وكانت مائدة فعلا لانه لم يلبث ان راى قوائمها الضخمة . وكان راقدا على الارض .. ولـكن ماذا يفعل فـوق الارض .. هل هو مريض ؟ .. ام مصاب ؟ .. كلا . انه لا يشعر باى الم .. بل انه كان يود لو ان يتثاءب كالنائم الذى نحل جسده رقاد طويل .

وراحت الساعة تدق ، وجعل يعد دقائقها بحركة آلية . ولكن لم يلبث ان اختلط عليه الامر .. اهى احدى عشرة دقة ام اثنتى عشرة .. واذا كان الوقت منتصف الليل ، فان هناك شيئا لابد من انجازه .. وسرعان ما فاض به القلق .. هل سيبقى هكذا ؟ .. لا فائدة منه وهو طريح الارض فى حين ..

حول ركبتيه .. كان اثقل من الجثة ، ومع ذلك فقد افلح فى ان يرقد على صدره وان يثنى ركبته تحته وان يعتمد على احـد

مرفقيه . وتفصد جبينه بالعرق . وعندما أصبح على أربع استرد انفاسه ، وعادت الى ذهنه عبـــارة فاليرى « ان جدى يمشى على السطوح على اربع » . وتخيل فجأة الشيخ العجوز وهو فى حالة توازن فوق الالواح الاردوازية بصورة مضحكة جدا بحيث راح يضحك حتى اوشك ان يختنق .. الشيخ .. آه .. آه .. كما فى السيرك . اى ! .. اننى لم اعد اطيق .. وبكى من الفرح . وفى نفس الوقت ، وفى اعمق اعماقه كان يعرف ان هذه الضحكة الجنونية انما هى من تاثير المخدر وان اللحظة ماساوية وانه يجب ان ينهض مهما كلفه الامر وان يمشى ويتصرف .. وبعد ذلك ، وعندئذ غشا عينيه نوع من الضباب .. بعد ذلك سوف يرى شيئا بلا ريب .. شريطة ان يسرع .

وعادت الساعة تدق من جديد فى رنين خطير دوى صداه فى ارجاء الغرفة ، وراح يعد الدقات فى تركيز مؤلم . كانت كل دقة تصدر دويا شديدا فى راسه .. اثنتا عشرة دقة .. لم يخطىء هذه المرة .. وبمعجزة الارادة الفى نفسه واقفا معتمدا على المائدة .. وكان ابريق القهوة يكاد يكون فى متناول يده . ولم يضع الوقت فى البحث عن فنجان ، بل شرب الابريق فى شراهة . واحس بأنه اصبح اشد ثباتا على قدميه .. لو يستطيع ان يفتح النافذة وان يستنشق قليلا من الهواء النقى .

ومضى الى احدى النوافذ وهو يمشى كالسكران ، ووضع جبينه البارد على زجاجها الذى بدا له مثلجا . وقد طاب له ذلك لانه حس بان النار التى تضطرم فيه قد هدات . وفى الخارج ، اضاء ضوء القمر الهادىء دنيا مجهولة من الاشباح الغريبة المضيئة والاشكال .. كلا لم تكن أشكالا عجيبة وانما مجرد اشكال مشوهة لمداخن ودوارات هوائية بدت كما لو كانت رسومات طفل فوق بلاط فناء الشرف .. وكان هناك شىء يتحرك .

حسب راوول فى بادىء الامر انه لا يزال يحلم ، فان ذلك المنظر الطبيعى والهندسى والعجيب فى نفس الوقت كان اشبه بمنظر من المناظر التى يراها المرء فى الكوابيس .. ومع ذلك فقد كان هنـــاك شىء يتحرك حقا .. اهو حيوان ! .. واستطال الظل .. كان رجلا دون شك ، وكان يمشى فى ظل السطح ويتبع الخط الفاصل بين اللونين الاسود والازرق .. كان يتقدم كالبهلوان . أين كان ؟ .. اين كان ؟ .. فوق ، فى الشرفة .. ام فى الفناء ؟ .. كان يخطو

خطوات واسعة بطيئة كما لو كان يعد خطواته ثم توقف وجمد فى مكان بضع ثوان لا يتحرك .

« جدى يمشى فوق السطوح » . عرف راوول بغريزته انه يرى الشيخ برناردان . كان ذلك امرا جنونيا ومستحيلا لا يصـــدقه العقل ، اذ كيف يمكن ان يكون هذا الرجل هنا فى هذه اللحظة .. فى القصر ، فى حين انه سجين « الآخر » وانحنى الخيال عنـــدئذ ولمع سلاح فى يده . آه .. كان المشهد يدور فى الفنـــــاء .. وكان هناك رجل .. برناردان او الشيطان يتاهب للحفر ، عنـــد اسفل احدى الهوائيات .. أو بوجه اصح فى آخر ظـــل احـــدى الهوائيات ... فى ظل الهوائية التى تمثل الفارس بالذات ... وازاح راوول جبينه الى ناحية اخرى بحثا عن موضع آخر اكثر برودة . كان بحاجة الى كل حواسه . وساعدته رطوبة الزجاج فى ان يجمع شتات افكاره لانه بدا يتجـــــه نحو متاهات الفـــروض والنظريات .

لم يخطىء عندما افترض وجود مخبا .. وهذا المخبا وهو المكان الذى يشير اليه حد سيف الفارس فى اللحظة التى يخلف فيهـــا القديس جان القديس يعقوب .. اى فى منتصف ليل ٢٤ وبداية يوم ٢٥ ، فى اللحظة التى يقع فيها ضوء القمر على نقطة معينة فى الرسم المعد للأسطح على ارض فناء الشرف .. ولكن ماذا يكون الحال لو ان الطقس كان مكفهرا او لو امطرت السماء .. غير انه كان مضطرا لقبول شهادة عينيه . والشىء الذى كان يراه فى تلك اللحظة هو رجل يحاول نزع احدى بلاطات الفناء .

فتح راوول النافذة فى هدوء كبير ، وعلى الفور سمع صوت احتكاك المعدن بالحجر . ونبهه الفضول والانفعال نهائيا ، لم يطعه جسده كما كان يريد بعد ، ولكن ذهنه كان يفكر سريعا ، ولا يكف عن القاء الاســــئلة ... اهو برناردان الذى دس المخــــدر فى الزجاجات ؟ .. ولكن لماذا ؟ .. واذا كان قد خلص نفسه بالقوة أو بالحيلة فلماذا لم يعد ويلوذ بالقصر على الفور .. ولكن لعله اختبا فى القصر .. اين ؟ .. هل هناك ممر سرى يمكن استخدامه فى الدخول والخروج خفية عن الانظار ؟

وثب راوول من النافذة فى حركة خرقاء . كان الرجل يعمل هناك .. وكان ظل الاسطح يتقهقر بشكل غير ملحوظ كلما ارتفع القمر فى كبد السماء . ولم يلبث ان بدا الرجل فى النور . كان هو برناردان

حقا . وكان منحنيا فوق البلاطة وقد فرغ من انتزاعها من مكانها وظهر شعره الاشيب الذى راح يبرق فوق راسه كزبد خفيف . وامسك بالبلاطة ورفعها ثم وضع يده على جنبه وردد حوله . وكان راوول ملتصقا بالحائط فلم يصدر اية حركة . وجثا الشيخ ودس يده فى الحفر .. ما الذى يمكن ان يكون مخبوءا فيها .. صندوق صغير ، كلا ، فهى حفرة صغيرة مسطحة لا يمكن ان تضم صندوقا .. حقيبة صغيرة اذن .. كلا .. لعل فيها مفتاح .

ولكن لم يكن بها لا مفتاح ولا اى شىء آخر لان برناردان اخرج يده وراح ينظر اليها لحظة وهو غير مصدق . وفتش الحفرة مرة اخرى وقد بلغ به الانفعال كل مبلغ واستولى عليه اليأس . واخيرا رفع راسه ونظر الى السماء كانه يشهدها على الكارثة ، وانعكس ضوء القمر على وجهه وحدقتيه المحمومتين وفمه المفتوح على صرخة لا تريد ان تخرج . وفى دفعة واحدة وقع برناردان بجوار الحفرة ولم يتحرك بعد .

ود راوول لو ان يجرى ولكنه لم يستطع ان يتقدم الا كالمريض فهو لم يكن قد استعاد كل قواه بعد . وكانت ساقاه ضعيفتين مكدودتين . وجثا بدوره امام الحفرة واضاء المصباح الذى لا يفارقه. راى الارض سوداء رطبة ودودة تتلوى فوقها . كان الشيخ العجوز معتوه ، فلم يكن تحت البلاطة اى شىء .

سلط راوول ضوء مصباحه على وجه الرجل ، وما كاد يفعل حتى صعق ، فقد راح الرجل المسكين ضحية ازمة قلبية . كانت امارات الدهشة واليأس مرتسمة على وجهه . وفحص راوول معصميه وساقيه بحثا عن آثار قيود ولكن كانت كل الظواهر تدل على ان برناردان لم يكن مقيدا على الاطلاق . ولكن من اين اتى اذن ؟ وفجاة ادرك راوول الحقيقة .. لقد دبر « الآخر » امره وترك اسيره يهرب ثم تبعه وهو على يقين من انه سيقوده الى المخبأ راسا . وعلى ذلك فان « الآخر » لا يمكن ان يكون بعيدا . وجثا راوول مكانهوحاول ان يخترق الظلمات التى تتجمع عند الجدران ، كان الظل يتضاءل شيئا فشيئا ولن يلبث القمر ان يمر فوق القصر ويملأ بنوره الفناء كله ، فأين يختبىء العدو ؟ لا ريب انه راى ما حدث وتحقق ان برناردان قد خاب سعيه ولم يجد شيئا . ولا ريب انه يدبر الآن خدعة جديدة للاستيلاء على الشىء الذى كان يرجو الحصول عليه .

حملت هذه الفكرة راوول الى آفاق جديدة . وراح ذهنه يعمل الآن بكل سرعة ، فقد ضاعف المخدر من قوة ذهنه وان كان لا يزال يستعيد جسده . لم يكن هناك اى شىء . خبا بعضهم شيئا ما تحت بلاطة فى منتصف ليل ٢٤ يونية .. فى ليلة كان قمرها بدرا ، وفى ذلك الوقت وضع تلك العبارة : القديس جان يخلف القديس يعقوب ودارتنيان يفوز بالثروة والمجد بحد السيف .. كان المفروض ان تكون تلك العبارة نوعا من الشفرة للاهتداء فيما بعد الى مكان الشىء المخبوء . ولكن ممن اخذ برناردان تلك العبارة السحرية ؟ .. من ابيه طبعا .. من ذلك الايفاريست الذى كان لابد موجودا فى الوقت الذى تم فيه اختيار المخبأ ، لان الامر يرجع طبعا الى وقت بعيد .. الى الكونت يونرفيل ، آخر افراد الاسرة .. الى ذلك الوقت الذى لجأ فيه الملك لويس فيليب الى القصر .. من الذى رافق الملك الى اخفاء الشىء فى مكان معين ، أى تحت بلاطة الفناء ، فان الملك راى فى آخر لحظة أن من التهور ان يأخذ الشىء معه فى المنفى فعاد الى القصر وعهد به الى الكونت يونرفيل ، وكان يعرف امانته واخلاصه لقضيته . ووضع الكونت بمساعدة ايفاريست ذلك الشىء فى مكان امين . ولكن لا ريب ان ذلك الشىء ثمين جدا بحيث يغامر الملك ويؤجل سفره ويعود الى القصر متحديا كل الاخطار .

وكان راوول لا يزال جاثيا على ركبتيه ، وانتابه احساس بانه تحول الى تمثال حجرى . ولكنه كان مستغرقا جدا فى التفكير بحيث لم يخطر له ان يتحرك ، لانه راى عيبا فى تحليله .. حفرة .. خطأ عظيم .. لقد هرب الملك ليلة ٢ مارس وانتظر الكونت اربعة اشهر لكى يدفن الشىء ، فلماذا هذا الانتظار ؟ .. يمكن تفسيره عند الضرورة بأن الكونت كان يرجو أن يعود لويس فيليب سريعا فيرد له الامانة . ولكن مع مرور الوقت تلاشى الامل فبحث عن مخبأ امين. ولكن كيف يعتمد على نظرية غير قانونية تستند الى ضوء القمر للاستدلال على بلاطة معينة بين غيرها من البلاط . لم يكن الكونت رجلا جاهلا ، ولابد انه كان يعلم انه لابد من حسابات معقدة بعد ذلك اذا ما اريد تحديد الموضوع الحقيقى الذى يقع عليه خيال الفارس فى ليلة ٢٤ يونية سنة ١٨٤٨ . ولكن ماذا يكون الحال لو أن عاصفة تهب وتتسبب فى وقوع دوارة الهواء ؟ .. كلا . كان من المستحيل اخفاء شىء ثمين كهذا بمثل هذه السذاجة .

وقال راوول يحدث نفسه : فلنمض فى التفكير .. لنفرض اننى

انا الكونت يونرفيل واننى تسلمت وديعة يتمسك بها الملك تمسكه بحياته واننى ساخفيها كما لو كانت حقيبة عادية بها مبلغ من المال ، تحت بلاطة معرضة لكل تقلبات الجو .. آه .. سوف اتظاهر بذلك ولا شيء أكثر . ساجعل وكيلى المخلص شاهدا وساخلق أثرا كاذبا كيفما يكون ثم استرد الشيء خفية عن ايفاريست واضعه فى مكان آخر بعيدا عن متناول الجميع والمدهش ان هـــذا الاحتيـــاط كان لـــه أثره فان ايفـــاريست ذكر لابنه العبـــارة التى لا فائدة منهـــا ، واحتفظ هذا الاخير بهـــا بكل ورع وتقـــوى واقـــام من نفسه حارسا على شيء لم يعد موجودا فى مكانه .. شيء سيحاول مجرم شرير الحصول عليه فيما بعد . وقد مات المسكين فى سبيل لا شيء .. نعم .. ولكن الكونت ، وقد كان يفكر فى كل شيء ، وله الحق فى افتراض ذلك على الاقل ، اراد أن يطمئن مليكه وان يكشف له عن الاجراءات التى اتخذها .. وهذا ما لم يكن يفوتنى ، انا لوبين ، أن افعله .. طبعا .. لقد اصبح كل شيء واضحا .. لقد رد عليه الملك .. الخطاب .. الخطاب المخبوء فى التوراة .. طابع الملكة فيكتوريا .. وعندما مات الكونت ورث ايفاريست ذلك الخطاب واخفاه فى توراته بكل حرص وعناية ، ووقع الخطاب الثمين فى ايدى برناردان بعد موت أبيه .. ولكن هذا الخطاب .. رد الملك .. علام يحتوى ؟ .. الشكر طبعا .. ولكن ربما يحتوى ايضا ..

تسارعت نبضات راوول وراح الدم يغلى فى عروقه .. فقد ادى به تعايله الى زقاق مسدود . كلا . ان رد الملك لا يمكن ان يحتوى على مفتاح السر بوضوح ؟ .. كان هذا بديهيا ، تماما كما هو الحال فى مذكرات الكونت يونرفيل . والدليل على ذلك ان البارون اختطف برناردان وان المذكرات والخطاب كانا تحت يديه وانه فشل . ان السر مصان تماما ، ولهذا فشل برناردان هو الآخر .

وعاد راوول يقول : فشل برناردان .. ولكن حـــذار .. وريث الملك الآن هو انا .

آه . لو يستطيع ان يسترد طاقته ونشاطه وان يفكر بروية كما يفعل دائما . ولـــكن المخـــدر يشل قواه وصداع شديد بدا يشدد الضغط حول راسه . ومع ذلك فلابد له من التركيز ومن متابعة تحليلاته .. البارون ؟ .. كيف علم البارون بالسر ؟ .. هذا سؤال لا رد له فى الوقت الحالى . ولكن هناك سؤالا آخر من المهم ان يجد له ردا .. كيف تمكن الشيخ العجوز من خداع يقظة حارسه ؟

.. تذكر راوول انه سبق والقى على نفسه هذا السؤال وانه وجد له ردا .. ان الآخر هو الذى مكنه من الفرار بحيلة ما .. ولاشك انه هو ايضا الذى تركه يأخذ الخطاب .. وفى هذه الحـــالة فان الخطاب هنا .. فى جيب برناردان .. نعم . لابد ان يكون الخطاب معه .. فان المنطق يؤكد ذلك ، ويكفيه ان يفتشه .. ها هو ... هذه الورقة المطوية .. اضاء راوول مصباحه .. نعم ، لقد ربح .. فهذا هو الخطاب فى الواقع .

وقف وهو يغالب آلامه ، وانتابه دوار جعله يترنح .. والقى حوله نظرة شاردة . كان الظل يتراجع باستمرار . وبقاؤه اكثر من ذلك فى هذا الفناء الذى يسطع بالنور تهور كبير . ولكن ساقيه خذلتاه ولم يستطع ان يتحـــرك ، وراح يتنفس فى بطء وهو على وشك الاغماء ، وجمع قواه فى محاولة اخيرة وسلط شعاع مصباحه على الخطاب . وعرف الطابع الازرق الذى يتنافس هواة جمع الطوابع فى سبيل الحصول عليه . واخرج من المظروف ورقة فتحها وراى التاريخ : اول يونية سنة ١٨٤٨ .

وعرف انه أصاب فى تخمينه .

عزيزى يونرفيل

فى المصائب التى تتوالى على اجـــد عزائى ورجائى فى امانتك واخلاصك ، فكيف افقد شجاعتى وقد تركت خلفى رفقاء سلاح بمثل هذا الوفاء . ولا اظننى بحاجة لان اقول لك اننى اوافقك على كل الاجراءات التى اتخذتها ، فهى اجراءات صحيحة ومضمونة ، فان المجنون باشرافه على المعرض يحرس قدرا عظيما ، وهانت ترى اننى فهمت واننى ما زلت استمد من ذكائك القوة لكى ابتسم .

ان امتنانى لك عظيم ومودتى لك منذ وقت طويل كما تعرف . وليتولاك الله برعايته وليحفظ يونرفيل الى الابد .

لويس فيليب

حاشية : لن انسى الخدمات التى اسداها وكيلك لقضيتى .

طوى لوبين الخطاب ووضعه فى جيبه : « المجنون باشرافه على المعرض يحرس قدرا عظيما .. » هذه العبارة هى الشفرة التى يكمن فيها مفتاح السر طبعا .. لقد شرح الكونت لمولاه الاجراءات التى اتخذها لكى يودع الامانة مكانا امينا ، وعلى ذلك فان اشارة الملك كانت واضحة ودقيقة وداعية لطـــرب ذلك الذى كان يعرف السر

ولكنها تظل مستغلقة لاى شخص آخر .. ولـــكن المجنون .. اين المجنون .

زمجر راوول : المجنون هو انا .

وخذلته ساقاه ، وهوى فوق جثة العجوز برناردان ولم يفقد وعيه تماما . وانما تاه ذهنه المرهق فى متاهات غامضة ، ومن وقت لآخر كانت تمر بذهنه عبارة غامضة :انه وضع كمية كبيرة من المخدر .. فان مثل هذا التعب ليس طبيعيا . لا تتحرك ... خذ نفسا طويلا .. سوف تعود اليك قواك . وخيل له فجأة ان جثة العجوز تتحرك تحته . وانتزع الرعب منه انينا خافتا .. ما الذى يجرى ؟ .. من الذى يدفعه جانبا ؟

« الآخر » .. « الآخر » .. انه هنا .. يمكنه ان يتصرف فى فريسته . كانت يداه الخفيفتان تجريان وتجريان .. ولكنهما كانتا لا تبحثان عن عنقه .. كانتا لا تحاولان خنقه .. وانما جاءتا للسرقة .. لسرقة الخطاب .. آه . لو أن يفتح عينيه .. مجرد لحظة خاطفة لكى يرى العدو فحسب .

جهد آخر .. جهد اخير .. كان راوول مستلقيا على ظهره ، والسماء فوقه تنبض بالهجوم ، وفى مكان ما قدم خفيفة تبعد .. وتلاشى الضعف ، وبدات عضلاته تطيعه ، وتدحرج حول نفسه ، وراى وعيناه على مستوى الارض شخصا يمضى نحو القصر .. شخصا بدا له ماردا .. الوحش يهم بدخول القصر الهـــاجع حيث يمكنه ان يفرغ فى هدوء من مهمته .. مهمة الموت .

لوسيل .. هنا ، حيث فشلت ارادة راوول نجح الحب ، فقد وقف وضغط على قبضتيه . لم يضع وقته فى التفكير وفى محاولة الجرى لانه لن يستطيع التقدم اكثر من عشر خطوات ، ولكن لعله يستطيع ان يمشى . ولكن « الآخر » ســـيكون قد دخل القصر ويختفى . بقى المسدس .. المسدس الضخم الذى اخذه من درج سيد القصر .. لماذا لم يستول عليه « الآخر » فى نفس الوقت وهو يأخذ الخطاب ؟ .. ايستهين بخصمه الى هذا الحد ؟ .. سوف يرى .

اخرج راوول المسدس ورفع ذراعه . بدت قبضة المسدس كبيرة ولكنه ثنى كوعه الايسر امام وجهـه وضغط ماسورة المســدس على صدره . وصوبه نحو الشبح الذى يوشك ان يغيب فى جوف الليل وانطلقت الرصاصة وكان لها دوى شديد ، وارتد راوول الى الخلف

خطوتين ، وهناك ، بجوار الباب ، ترنح الرجل ، وتقدم خطوة الى الامام ثم وقـع على ركبتيه ، ولـكنه عاد ووقف واختفى داخـل القصر .

راح راوول يمشى فى بطء . كانت راسه لا تزال مملوءة بصخب المسدس . وكانت الارض تبدو رخوة وغير مستقرة . ولم يكن متأكدا من انه سيصل الى القصر ولكن فرحة النصر راحت تجـــرى بين ضلوعه لاول مرة منذ وقت طويل وشددت عزمه وبددت تردده . وبلغ المكان الذى وقع فيه الرجل على ركبتيه ، ووقع شعاع مصباحه على قطرات من الدم ... وظهرت البقع من جديد بعد ذلك مشيرة الى المكان الذى سار فيه الوحش . ولم يعد أمامه الا ان يتبع الاثر القانى . وارتقى راوول البسطة واغلق الباب بالمزلاج وادار المفتاح ووضعه فى جيبه لكى يقطع على الرجل خط الرجعة . كانت هناك بركة صغيرة من الدم فى وسط الردهة ، وغيرها فى الطريق الى المطبخ . وبلغ راوول بابا منخفضا ومحدودبا .. مدخل القبـو ، ووقف يصغى . وسمع نفسا يلهث فى جوف الظلام . وأضاء مصباحه واكتشف عددا من الدرجات ببقعة من الدم .. واستند الى الحائط وبدا يهبط .

دار السلم حول نفسه . وحاول راوول ان يضع قدميه على الجزء العريض من الدرجات حتى لا تفلت منه درجة ويقع . وندم لانه اهمل الاقبية عنــــدما قام بتفتيش القصر ، فـان فى مقــدور الرجل ان ينصب له كمينا رغم اصـــابته . ولعله يكتم انفاسه فى هـذه اللحظـــة ويقف متأهبــا للهجوم . وهبط راوول بضـع درجات أخرى . ورأى امامه مدخل طرقة . وفجأة وفى آخر الطرقة سمع الحشرجة ، وكانت متقطعة تدعو للرثاء . ووضع راوول قدميه فى الطرقة المظلمة ، وكان قد اعاد المسدس الى جيبه لانه كان بحاجة الى يديه .. الواحدة لكى يمسك المصباح والاخرى لـكى يتشبث بالجدار لانه كان لا يزال يحس بأن ساقيه مرتخيتان . واستمرت المطاردة .. المحتضر يسبق المريض بقليل ، وانتهت الطرقة الى قاعة رحبة فى احد جانبيها صف من البراميل . وكان الرجل المحتضر يتشبث بالبراميل ويحاول التقدم . وبدت هيئته فى غموض فى آخر شعاع المصباح . كان يحاول استخدام قواه الاخيرة فى الهرب . واحدثت انفاسه المتعبة فى القبو ضجة رهيبة .

وصاح راوول : سلم نفسك .

ولكن الرجل كان قد اختفى وساد الصمت فجأة . وتعثر راوول فى عقبة غير ظاهرة وترنح . وسلط ضوء مصباحه بالارض ورأى بعض قطع الحطب وقد تدحرجت من مكانها ، وسار فى حذر حتى بلغ البراميل ، وفحص المكان قبل ان يخاطر بالتقدم الى ابعد من ذلك . ورأى بجوار الحائط صناديق قديمة ومعدات وادوات مختلفة . وسمع انينا طويلا عند آخر برميل . وقام راوول بالخطوات الاخيرة وقد وضحت معالم القبو امامه وتأهب للمعركة الاخيرة .

كان الرجل قد انهار تحت عجلة قديمة لعربة كانت موضوعة فى وضع مستقيم بطول الحائط كدفة السفينة . ولم تصدر منه اية حركة ولكنه كان لا يزال يتنفس . ومن تنفسه الصافر ادرك راوول انه أصيب فى رئته . وانحنى فوقه وامسكه من كتفه واداره على ظهره .

برونو !

— ١٠ —

حارس الكنز

اهتز المصباح فى يده ووقف كالمصعوق فترة كانت قصيرة ولكنها بدت له كأنها دهرا . كان ذلك امرا مستحيلا ، غريبا ، لا يمكن ان يتقبله المنطق .. برونو فى آخر هذا السرداب .. برونو مصاب اصابة قاتلة .. ولكن اية غلطة رهيبة تلك التى اوجدته فى طريقه .. وجثا راوول على ركبتيه وصاح :

— برونو .. اى صغيرى برونو .. انت لن تموت .. لن تفعل بى هذا .

تحركت شفتا الشاب ، فانحنى راوول فوقه وسمعه يقول :

— معذرة ايها الزعيم .

— ولكن عن اى شىء تعتذر ؟ .. انت لست مذنبا .. لا يمكن ان تكون مذنبا ، فانا الذى خطر له ان يسرق القصر .. انا الذى دبرت كل شىء .. لم تكن تعلم اكثر منى ، بل كنت تعلم اقل منى بكثير .. اذن ؟ .. لقد امرتك ان تعود الى باريس بعد اختطاف العجوز ، فلماذا عصيتنى ؟ .. وماذا تفعل هنا ؟ .. لماذا اخذت الخطاب ؟ .. من الذى اطلعك ؟

امسك راوول عن الكلام فجأة ، فقد انبثقت الحقيقة فى ذهنه كالنار .. وكانت نارا انتشرت فى كل مكان ملقية على القضية نيرانا ملتهبة تختلط بها ظلال كبيرة متحركة . واراد برونو ان ينهض :

— لا تتحرك . اننى اعرف الآن .. اعرف .. برناردان هو الذى اطلعك طبعا .. صه . ما أغبانى . انك عالجته اياما وشفيته . وانتهى به الامر الى ان اعترف لك وافضى اليك بكل شىء وضمك الى صفه وقلبك ضـــدى ، خاصة وانك تدين بالملكية فى قرارة نفسك . ومع ذلك فقد كان يجب ان اكون على حذر منك ، ووافقته

.. فرار لويس فيليب وعودته خفية والوديعة المقدسة . كل هذا ادار راسك . آه . كم كنت اود ان اراكما معا .. الثائر الملكى القديم والارستقراطى المفلس .. افضى اليك بكل شىء ، اليس كذلك ؟ « لن انسى الخدمات التى اسداها وكياك لقضيتى » .. اشارة الى اخلاص آل فوتيريل للملكية ، ووسام لهم وتعويذة .. وكنت انت تصغى .. أوه ، كنت تصغى بكل اهتمام لانك كنت تعلم أن العجوز سيفضى اليك بسره فى النهاية .. وهكذا اطلعك على طبيعة السر .. تكلم .. هذه المرة يجب ان تتكلم .

اطبق برونو عينيه بالموافقة ، وانبثق من ركن فمه خيط من الزبد . وثقلت أنفاسه وبدت غريبة . وقال راوول :

ــ اتوسل اليك . انتهى الامر بالنسبة لك . ولكننى ما زلت استطيع ان امضى حتى النهاية .. ان الامر يتعلق بسر يتجاوزنا جميعا .. تكلم .. لعله سر يهم فرنسا .. ومثل هذا السر لا يمكن ان يضيع .. تكلم باسم الملك يا برونو .

واوفى اذنه من شفتى المحتضر : ماذا ؟ .. الدم .. الدم مرة اخرى .. ولكن اى دم ؟ .. اتوسل اليك يا برونو .. جهد آخر ، واغفر لك كل شىء .

طوح برونو براسه الى الامام كما لو كان يطلق نفسه الاخير ، وكونت شفتاه كلمة خمنها راوول اكثر مما سمعها . وكان الانفعال من الشدة والقوة بحيث نهض وراح يمشى جيئة وذهابا . كرجل يحاول ان يتغلب على الم عظيم . وقال :

ــ تقول الماسة الدامية .. هل تعنى ماسة سانسى ؟ .. ولكن هل تعرف ما هى هذه السانسى يا برونو ؟ .. انها ماسة الماسات .. ماسة الاحلام .. كانت ملكا لشارل الجسور .. وجاك الاول ، ملك انجلترا .. ومازاران .. ولويس الرابع عشر ،ولويس الخامس عشر .. تلك الماسة التى تدور حولها الاساطير .. واية اساطير ! الم تجلب النحس على كل الذين وقعت فى حوزتهم ، وتعرضوا جميعا لابشع المحن والكوارث بحيث أصبحت تعــــرف باسم المـاسة الدامية .

وبلغ به الانفعال الى حد انه لزم الصمت ، ولكن ذهنه استمر يعمل .. لويس السادس عشر وموته فوق المقصلة .. ثم اختفاء الجوهرة الثمينة بعد ذلك ، ذلك الاختفاء الغامض .. كان يفخر

بانه يعرف عن ظهر قلب تاريخ الاحجار الكريمة المشهورة ، بيد ان ذاكرته خانته هذه المرة ، فكل ما كان يعرفه عن سانسى ، الماسة الدامية ، انها ظهرت بعد ذلك بين يدى وزير اسبانى يدعى جالسيران .. جالسيران .. طبعا .. كل شىء يتضح الآن .. فالبارون حفيد او ابن حفيد لذلك الوزير الاسبانى دون شك .. وبعد موته اشترى شارل العاشر الجوهرة واصبحت ملكا لخزينة فرنسا من جديد ، وهذا هو السبب فى ان لويس فيليب اراد ان يضع الجـــوهرة المشهورة فى مكان امين قبل مغادرته لبلاده ، وهذا هو السبب فى ان الكونت يونرفيل اتخذ كل تلك الاحتياطات الغريبة ، وفى حرص آل فوتيريل البالغ على ما يعتقدون انه المخبأ . ولا ريب ان سلالة الوزير الاسبانى قد ظلت على صلة بالملوك الفرنسيين ، ولا ريب انهم اطلعوا على بعض التفــاصيل ، وهى تفــاصيل كافية لكى تثير فضول وطمع البارون بعد ثلاثة اجيال متعاقبة .

لقد اتضح كل شىء الآن تماما .. كانت الماسة بالنسبة للعجوز برناردان رمز الملكية ، وطالما بقيت فى يونرفيل فسوف تكون للملك كل الفرص .. سوف تنتهى الجمهورية ، ولكن الملكية ستعود حتما من جديد . ولهذا راح يحرص على الكنز كتنين الاساطير ، فــاذا ما اتى غاضب واصبح سيدا للقصر ضرب ضربته .. كان هذا هو التفسير الوحيد المعقول .. اختفى المالكان اللذان سبقا جاك فيرانج بطريقة مأسوية ، وكذلك قضى بالموت على جاك فيرانج وزوجته .. جاك فيرانج لانه اراد ادخال اصلاحات وترميمات كبيرة بالقصر واوشك أن يقوم بعمل مدنس .. صفوة القول ، كل من يعيش فى القصر يجب أن يموت .. لوسيل .. هوبير .. المركيــة والســـلم .. والفونس نفسه ، بصفته الوارث الشرعى يجب أن يختفى .

وكان برونو قد اطبق عينيه ، وراح راوول ينظر اليه من غير ان يراه . أعياه كل ما اكتشفه وراح يسب ويلعن الخادم العجوز الذى اجرم اكثر من مرة ، ومع ذلك فلم يسعه الا ان يشعر من نحوه بشعور معقد يشوبه الاحترام والخوف .. فقد كان من بين جميع خصومه اكثرهم نبلا فى جنونه . وتمتم يقول :

ــ اننى لارفع قبعتى تحية له ولاخلاصه رغم كل ما فعل .

وانتزعه من تأملاته انين صادر من برونو فجثا بجواره وجفف بمنديله العرق اللازج الذى التصق بوجه المحتضر وقال :

— لا تحاول ان تتكلم . لا داعى لان تشرح لى ، فكل شىء واضح الآن . اعتقدت بتحريرك برناردان واشتراكك معه فى تمثيل هذه المهزلة .. فيكتوار المسكينة مكممة وانت موثق القياد .. بأنه سيعود الى القصر لا لشىء الا لاسترداد الماسة ، وانه سيكون من اليسير عليك بعد ذلك ان تسرقها منه ... يا لك من فتى مسكين ! .. انه عاد فعلا الى القصر لكى ينجز مهمة الموت اولا .. كان غاضبا ويائسا ، فقد اثرنا ، انا والبارون ، حنقه فراح يدافع عن نفسه .. واجه الجميع كالخنزير البرى الهائج الذى تكالبت عليه كلاب الصيد . ولا ريب انه اختفى فى بيته فحسب ، وكانت حفيدته تأتيه بالطعام . كان يراقبنا ، انا ولوسيل ، وسمع حديثنا . وعرف اننى ذاهب الى بيت الفونسى فيرانج ، ووصل الى كرمة القديس جان ووجد فريسته موثقة القياد فى مقعد على استعداد للموت فقتله عمدا بالمسدس الذى اعرته انت اياه .. لانك اعرته مسدسا طبعا ، اليس كذلك ؟

تقلص وجه برونو لفرط الالم ، وكان المصباح الملقى على الارض يرسل نوره الى السقف ويبين فى الظلام هيئة راوول المنحنى وجسد برونو المبهم . وكان صمت القبـو ورطوبته اشبه بصمت ورطوبة القبور . وكان برونو يعلم تمام العلم انه هالك وكان يصغى بـكل قواه الى همس ذلك الذى خانه ، فانه بعد ان اعجب به كل الاعجاب احس ان الزعيم اذا كان يتكلم فذلك لانه غير حاقد عليه وانه يستمر فى معاملته كشريك وصـديق حميم ، وان هذا الصـوت سيرافقه حتى عتبة الموت ، واستطاب هذا الامر لانه بدا له اشبه بالغفران .

واستطرد راوول يقول : وبعد ان قتل الفونس فيرانج تبعنا الى « الصخرة الكبيرة » ، ولا ريب انه شكر السماء التى سلمته اعداءه الواحد بعد الآخر ، وقتل البارون وخادمه واستعاد خطاب لويس فيليب الثمين . واعترف اننى لو كنت مكانه فربما كنت اقدم على ما اقدم عليه . ولما كان القديس جان يخلف القديس يعقوب فلابد من اخراج الماسة من جوف الارض لانها لم تعد فى امان حيث هى ولابد من اخفائها فى مكان آخر ، وسوف يطلع فاليرى على السر فيما بعد . وذات يوم ، عندما يعتلى الملك العرش ستعيد اليه الماسة وستكون عندئذ جان دارك جديدة ، يا للعجوز المسكين ! .. ويدس

المخدر فى النبيذ عندئذ او يحمل فاليرى على ان تدسه فيه ، وفى منتصف الليل يتبع خط ظل السطح كما راته فاليرى يفعل قبل ذلك ويتوقف عند البلاطة التى يشير دارتنيان اليها ، ولكنه ينتزعها هذه المرة . وانت على علم بما يدور طبعا ، وتختبىء فى مكان تواعد فيه معك ولا تشك يا مسكين انه ما كان ليتردد فى قتلك بكل برود كما قتل الآخرين . ويجد العجوز المخبأ فارغا ، فماذا يحدث فى راسه المملوءة بالاوهام .. انه خادم غير كفء ، لم يعـرف رغم كل جهده ، ان يصون الوديعة المقدسة ، ويعصف به الانفعال وينهار جثة هامدة . والبقية يا برونو .. اوه يا برونو .. ان البقية مؤسفة .. لو انك وثقت بى .

اختلج جسد برونو لفرط الاضطراب وفتح عينيه يقاوم الاختناق . واحتجبت الرؤية عن عينيه . واخذ راوول يده وقال :

— انا هنا يا برونو .

ولكنه ادرك ان المحتضر يريد ان يقول شيئا آخر فرفع راسه وسمعه يقول :

— ايها الزعيم .. البوليس .. انه اخطرهم .

وانبثق الدم من فمه ولوث ذقنه ، وتوتر جسده فى تشنج اخير . وارقده راوول على الارض فى رفق واغمض عينيه وقال :

— يا للفتى المسكين .. لم يكن على مستوى المسئولية .. حتى انا ساجد مشقة كبيرة .

والتقط المصباح والقى نظرة الى ساعته . الثالثة .. فى اقل من ساعتين سيكون البوليس هنا . ان العجوز برناردان لم يقل كلمته الاخيرة بعد .. ما زال يناضل .. لقد عرف حقيقة خصمه وابلغ عنه .. ولا ريب ان جانيمار ليس بعيدا الآن .

— هيا يا لوبين .. هذه هى اللحظـــة التى تثبت فيهـا انك الاقوى .

وفتش جيوب برونو بسرعة واستعاد الخطاب واعاد قراءته من جديد ثم دسه فى جيبه وتخطى الجثة التى امامه بعد ان القى اليها نظرة اخيرة .. الماسة طبعا .. لقد اثبتت شهرتها كماسة مجلبة للنحس .

كانت لوسيل لا تزال نائمة فى تجويف مقعدها . وبعد ان اوصد الباب الرئيسى للطابق الارضى صعد الى الطابق الاول ومضى الى

المعرض . وفى حذر شديد رفع ركن احدى الستائر واختبأ دقيقة فى فتحة النافذة . كانت جثة برناردان لا تزال ممددة فى وسط الفناء ، ولم يكن هناك احد . ومع ذلك فان راوول لم يلبث ان راى عن بعد ، خارج الباب الحديدى ، اشباحا مشبوهة تتحرك . بل انه راى نورا ينبعث من مصباح كهربى سرعان ما انطفأ ، ثم ظلا يعبر الشارع . كان جانيمار يبث رجاله فى الاماكن المخصصة للهجوم الاخير الذى سيقع فى الساعة المحتومة ، بمجرد ان تظهر الشمس فى الافــق ، ولا ريب انه احاط القصر برجال الشرطـة والمخبرين بحيث يقيمون صفا لا يمكن اختراقه . واذ راى راوول المعركة وشيكة الوقوع اخذه الحماس والطرب .

زمجر يقول : اظننت انك تستطيع القبض على بسـهولة ؟ .. يا لك من غر احمق .. هذا ما سوف نراه ، ولكن الماسة اولا .. ما زال امامى ساعة ونصف بالتمام والكمال لكى اكتشف مكانها .. بل اننى سوف اكتشفه فى اقل من ساعة بكثير .. ولكننى وددت ان أعرف من اين ابدا .

وترك النافذة واسدل الستار واضاء الثريا التى تتوسط السقف ثم وقف فى وسط الغرفة الواسعة ويداه عند خاصرتيه ، وسرعان مانسى برناردان وبرونو والبوليس . لم يعد غير نظرة واحدة ثاقبة ، وفكرة تجمعت حول نفسها ونشرت طاقة اكثر من المعتاد . وفى بطء كرر العبارة التى كتبها الملك « ان المجنون باشرافه على المعرض يحرس قدرا عظيما » .. اشارة بسيطة طبعا ولا تتضمن اية شفرة ، ولكنها اشارة على كل حال . لقد قال الملك فى كلمات ظاهرة شيئا خفيا على جانب كبير من الاهمية ... لا ايفاريست ولا برناردان ولا حتى البارون استطاعوا ان يفهموا معناها .

قال راوول : المعرض .. انا اقف فيه الآن .. ولكن ما الذى يوجد فيه .. لا شىء غير السجادة .. وماذا ارى فيها عند مستوى قدمى .. فرانسوا الاول وتريبوليه : مضحكه المجنون .

اقترب من السجادة ورفعها وتحسس الحائط الذى يعلوه الغبار فى المكان الموازى للموضع الذى يقف فيه تريبوليه مجنون الملك عند امتـداد السجادة ، ولـكنه لم ير اية خشونة ولا اى اثر لمخبأ محفور فى الحائط . ومع ذلك فليس هناك اى شك . كان المضحك المجنون يشير بالتأكيد الى المكان الذى خبئت فيه الماسة،

فهو يقف حريص عليها . وجس راوول بطرف اصبعه القمــاش الخشن ثم ارتد لـكى يشمل المنظر المرسوم على السجادة بنظـرة واحدة .. الا تشير يد تريبوليه الى نقطة معينة ؟ .. كلا . انهــا تربت على عنق كلب بحركة طبيعية تماما تبعد كل فكرة مستترة لا يمكن ان يتعلق الامر بتريبوليه .. ولكن ربما كان فى القاعة مجنون آخر .

بدا راوول ينظر فى اهتمام اكثر عن ذى قبل الى اللوحات المعلقة على جانبى السجادة ولكن لا .. هذه الرءوس الصارمة وهذه الثياب الخشنة تنتمى الى قضاة ونبلاء واساقفة متأملين لا احد فيها يشبه مجنونا .. ان الرسم ما زال يتهرب منه .

وفى النوافذ كان ضوء القمر يزداد شحوبا .. كان يتراجع امام خيوط النهار . ولا ريب ان جانيمار يتمشى الآن امام القصر وساعته فى يده .

صاح راوول : اللعنة ! .. يجب ان اجد .

وعاد امام السجادة ورفعها من جديد وراح يهزها . وشــدها اليه ، يحدوه الامل فى ان يقع شىء . وسمع صوتا خفيفا جعله يجفل ، والتفت خلفه فراى على عتبة الباب جسد لوسيل النحيل. ونسى مشكلته عندئذ واسرع اليها قائلا :

ــ لوسيل .. بماذا تشعرين الآن ؟

مدت يديها الطويلتين على وجهها وقالت : لماذا نمت كل هــذه المدة ؟

ــ خدرنا جميعا . ساشرح لك فيما بعد . ولكن اعلمى ان الخطر قد زال تماما .

واحاط كتفى لوسيل بذراعه وجذبها الى وسط الغرفة وهــو يقول : تعالى . اننى ابحث عن مجنون ، وليس أمامى غير بضع دقائق الآن لكى اعثر عليه . ولكنك معى الآن يا لوسيل ، وهذا يغير كل شىء . اريد ان احقق معجزة من اجلك .

وغمره انفعال عظيم ، وشدد الضغط على كتفى رفيقته وعاد يقول : مجنون .. لننظر جيدا .. مجنون .. يجب ان نجده . كلا . لا تلقى اية اسئلة على وجه الخصوص . انت معى وهذا يكفى . آه ، فهمت ... انت ترينه هذه المرة .

وكانت لوسيل قد بسطت يدها نحو تريبوليه ولكنه قال : كلا .

كلا . ليس تريبوليه .. وانما الآخر .. انظرى الى الملك .. ليس الى وجهه ولكن تابعى خط الكتف والساعد حتى تصلى الى يده .. ماذا ستمسك ؟ .. هيا يا لوسيل .. قليل من الملاحظة .. ماذا ستمسك فوق رقعة الشطرنج .. كلا . الا تخمنين .. الفيل (١) طبعا .. وسوف تلاحظين انه لا يوجد غير فيل واحد فوق الرقعة لان خصم الملك خسر فيليه .. هذه المرة وصلنا الى بغيتنا .

واخلى لوسيل واسرع فرفع السجادة واشراب على طرفى قدميه ومد يده ودق بها على الحائط تحت مكان الفيل على رقعة الشطرنج، ولكن الجدار رد صوتا أصما بدد فرحته ، وعاد الى لوسيل ، ولم تكن قد تركت مكانها وقال :

— ومع ذلك فانا على يقين من اننا نقترب من الغاية .

تمتمت لوسيل : اننى اسمع ضجة فى الخارج .

— ليس هذا بشىء .. انه البوليس .

— البولبس ؟

— اجل . وهذا امر ساشرحه لك ايضا . ولكن لنوجه اهتمامنا الآن الى المجنون الذى يحرس قدرا عظيما .

وراح يمشى جيئة وذهابا وهو يضرب الارض بقدمه من وقت لآخر . ورات لوسيل ذلك الرجل الذى اعتقدت طوال هذه المدة انه ريشار ديمون يتبدل .. رات الوجه الذى ينطق بالجهد والانفعال الكبيرين تتلاشى من خلاله شخصية الصحفى الهادئة ويتبدل ويبدو كانه ينبض بحياة غريبة لا عهد لها به . وعاد اليها ووقف لكى ينظر اليها ، وانساب شـعاع باهت من الشمس الوليدة من فرجة الستارة ورسم هالة غريبة حول راس الفتاة التى وقفت لا تتحرك فوق الارض ذات المربعات البيضاء والسوداء ، وبدت كالملكة فى لعبة الشطرنج .. ولكن نعم .. لعبة الشطرنج .. ورفع يده الى عينيه كما لو بهره نور ساطع .

وصاحت تقول وهى شبه مذعورة .. انت ارسين لوبين !

— اسكتى بالله ... نعم ، انا ارسين لوبين .. ولكن ما الاهمية ؟ .. هل ترين هذه القاعة ؟ انها كرقعة شطرنج .

(١) كلمة Fov لها معان كثيرة منها مجنون واذا اضيفت اليها كلمة ملك بحيث تصبح Le Fov du Roi فانها تعنى عندئذ مضحك الملك . اما اذا اضيف اليها اداة التعريف Le Fov فهى تعنى عندئذ الفيل فى لغة الشطرنج . ولهذا لزم التنويه.

وتناهى الى سمعيهما ، من ناحية البستان صخب مفـاجىء فقال : خمس دقائق لتحطيم الباب .. لدى متسع من الوقت .. انها رقعة شطرنج .. كلا .. توجد بها خانات كثيرة . ولكننى اضطرم ، والفضل لك انت . ماذا يمكن أن يقوم مقام رقعة الشطرنج فى هذه القاعة ؟

ودار حول نفسه وفرقع باصبعه وقال : المنصة بالطبع .. منصة الموسيقيين .

وامسك لوسيل من معصمها وجذبها نحو المنصة المرتفعة وصعد الدرجات الثلاث وقال :

— انظرى جيدا .. ثمانى خانات من ناحية وثمان من الناحية الاخرى . اربع وستون خانة . الحساب مضبوط . قرات فى احد الكتب ان اصحاب القصور الكبيرة كانوا يلعبون الشطرنج فيما سبق بقطع حية .. حسنا . نحن واقفان فى هذه اللحظة فوق رقعة شطرنج الكونت بونرفيل . هل بدات تفهميننى ؟ .. هيـا يا لوسيل . ابذلى جهدا آخر . لا تنظرى الى هكذا ؟ .. ما هذا الحزن الذى فى عينيك ؟ .. اهو البوليس الذى يثير خوفك ؟ هل تعتقدين حقا انهم سيلقون القبض على ؟

وفى هذه اللحظة دوت ضربات عنيفة على الباب هزت ارجاء البيت ، فهز كتفيه واستطرد :

— كنت اريد قليلا من الصمت والسكون والتامل . ولكن من عادة جانيمار ان يفسد كل شىء . انه رجل فظ فيما بيننا يا لوسيل . بسببه اوشك ان افقد تاثيرى عليك . ولكن لا باس . لنر الآن يا اوسيل .. هل تعرفين لعبة الشطرنج ؟

— كلا .

ودق الارض بقدمه وقال : انت لا تعرفين طبعا الشىء المخبوء هنا .. سأقول لك .. ماسة شهيرة اسطورية ، لا تساوى ثروة وانما مائة ثروة .. كنز الملك لويس فيليب .. كنز فرنسـا ، وبفضلى انا ...

واخرج مطـواة من جيبه وفتحها وانحنى وادخل نصلها بين الخانتين البيضاء والسوداء ، ثم قال :

— تثبيت عمره أكثر من ستين عاما .. ولكنه عمل غير متقن لا يصدر الا من الهواة ... ان الكونت لم يكن يجيد البناء .

وانفتح الباب الحديدى للقصر فى هذه اللحظة فى صوت مدو ووطئت أقدام كثيرة ارض الفناء . وقال راوول فى هدوء .

ـ اوه .. اوه .. لكنهم ما زالوا بعيدا .. ان الابواب والمصاريع رأت الكثير . لا تنزعجى يا لوسيل .. هذه هى اللحظة التى كنت انتظرها .. المجنون يحرس قدرا عظيما .. انظرى .

ودار بنصل مطواته حول البلاطة ، ثم وضع ثقله على احدى حوافها . وتأرجحت البلاطة بضع سنتيمترات وتمكن من انتزاعها اخيرا مكتشفا تحتها حفرة ملساء دس يده فيها واخرجها وفيها علبة فضية ثقيلة . وعقدت لوسيل ذراعيها فوق صدرها مشدوهة، وارتسم التوسل فى عينيهـا . واعتـــدل راوول وتمتم : ماسة سانسى .

وكان فى صوته رعشة خفيفة . وفتح العلبة وسرعان ما لمعت ماسة الاحلام فى راحته ... كانت ماسة كبيرة تنبعث منها آلاف من النيران .

ـ ماسة سانسى .

وفى الصمت الذى أعقب ذلك سمعا صوت معول يصطدم بباب القصر .. وقال راوول فى رفق : هل تبكين ؟

همست لوسيل : اننى ابكى لانك اتيت خصيصا لكى تسرق هذه الماسة ...

وضحك ضحكة عريضة سعيدة وقال : أسرق ماسة سانسى .. انا ؟ .. ما هذا القول ؟ ..

ـ اذن لماذا ؟

ـ ولكن لكى أسلمها لمن له الحق يا فتاتى العزيزة ... انت رائعة؟
وضمها اليه فى حركة كلها رفق وحنان وقال : لوسيل ، لا تصدقى كل ما يقال عنى .. ان لى كل آثام الشباب طبعا .. مثل الجميع .. ولكن ماسة سانسى شىء آخر ، فهى ليست ملكا لاحد ولا يحق لاى انسان أن يلمسها . انظرى اليها للمرة الاخيرة .

واخذ الماسة بين الابهام والسبابة ورفعها نحو النور . وتوهجت الماسة كالجمرة . وقال : خمسة قرون من التاريخ ... احزان كثيرة ، وعنف وتعسف ومصائب .. سأروى لك ذات يوم يا لوسيل قصة ماسة سانسى .

التصقت به وسألته : سوف تأتى اذن ؟

ـ سآتى طبعا .. وكيف يرقى اليك الشك ؟ .. افلا يجب ان نفرغ من تبويب كل الكتب الموجودة فى المكتبة . ان ليونس كتارا لم يفرغ من عمله بعد .. ولكن يجب ان أمضى فى الوقت الحالى لكى ابحث عن مكان مأمون .. أرأيت الى هؤلاء الهمجيين ... انهم سيحطمون البيت .

واعاد الماسة الى العلبة واحكم اغلاقها ودسها فى جيبه .

ـ لوسيل ... اننى اعدك بشرفى .. سوف تعود السانسى الى فرنسا غدا .. الى اللقاء الآن يا لوسيل .. سوف نلتقى قريبا .. اعدك بذلك ، فأنت جوهرتى .

ولثم يدى الفتاة بشفتيه ثم رافقها حتى غرفة المكتبة واجلسها فى مقعد وهو يقول : تظاهرى بالنوم .. عندما يستجوبك جانيمار فأنت لا تعرفين شيئا ، ولم ترى احدا .. انك ستستيقظين من نوم عميق .. نامى ، فاننى اريد ذلك .

اطبقت عينيها ، وعندما فتحتهما بعد ذلك ببضع ثوان كان قد اختفى . وسمعت اقداما ثقيلة ترج السلم رجا فى حين راح بولوكس ينبح فى الصالون فى قوة .

وسمع راوول الضجة وهو على عتبة القبو فقال : وى ! لو اننى تأخرت خمس دقائق .. الى الحرية الآن .. بما ان برونو كان يحاول الفرار عن طريق القبو فلابد أن به ممرا ارشده برناردان اليه .. الممر الذى عادا منه الى القصر .. الذى استخدمه لويس فيليب .

وهبط الدرجات مسرعا واجتاز السرداب ووقف امام جثة برونو .. العجلة ، طبعا .. العجلة المثبتة فى الحائط . وامسك باطارها وحاول أن يديرها . واحس بمقاومة خفيفة فضاعف ضغطه . ودوى صوت سلاسل فى تخانة الجدار ثم وجد جزء من الجدار نفسه يتحرك وظهرت فتحة اندفع منها تيار بارد من الهواء . وتردد راوول قليلا وارهف اذنيه . بدا كأنه صـــوت التفتيش الاصم يقترب فانحنى وحمل الميت فوق ظهره وهو يقول :

ـ هلم بنا يا صفيرى .. سوف يكون لك قبر يليق بك ، ولن يعرف احد ابدا انك خنت صديقك القديم .

الخاتمة

اقبل الخادم مذعورا وهو يحمل صينية عليها البطاقة . وقال فالنجلاى ، رئيس الوزراء السابق وعضو مجلس النواب :

ـ حسنا . ما الخبر ؟

ـ واخذ البطاقة وقرأها وهز حاجبيه . وساله الخادم : هل ادعه يدخل ؟

ـ طبعا .

وبعد لحظة كان ارسين لوبين يجتاز عتبة مكتب عضو مجلس النواب . ونهض هذا الاخير وحيا زائره فى رفق وقال : تفضل بالجلوس .

قال لوبين : سيدى الرئيس .. سوف اوجز فى حديثى .

واخرج من جيبه علبة فتحها ، وما كاد يفعل حتى ارتد فالنجلاى الى الخلف كما لو كان قد تلقى ضربة على وجهه . وتأمل الماسة الكبيرة بعينين متسعتين لفرط الدهشة وقال : ما هذا ؟

ـ ماسة سانسى .

تمالك فالنجلاى روعه وقال : ماسة سانسى ؟ .. اتعنى تلك التى كانت ملكا للتاج والتى ...

ـ هى بالذات .

ـ ولماذا تأتينى انا بها ؟

ـ اننى اقدمها لك .

عاد فالنجلاى الى مكتبة وجلس ثم قال : اين وجدتها ؟

ـ لا اهمية لهذا . انها الآن ملك فرنسا ، وانا اعتمد عليك يا سيدى الرئيس لكى تقوم بالاجراءات اللازمة .

تأمل فالنجلاى هذا الرجل العجيب الذى اتاه من العدم واعطاه كنزا ، وقال بين الجد والهزل :

ـ اننى اقدر الهدية ، ولكننى اتساءل اذا كان يجب ان اقبلها . لا يمكن ان تنسى سمعة هذه الماسة ، فانت تعرف انها تجلب النحس، ولهذا ترى حجم المسئولية التى تلقيها على عاتقى .

ـ لم اكن اعتقد انك تؤمن بالخرافات يا سيدى الرئيس . ولكن ماذا ؟ .. هل تخشى ان يقع زلزال يدمر فرنسا او ان يجرفها فيضان ؟

وساد صمت . وقال فالنجلاى اخيرا : حسنا . اننى اقبل المخاطرة .. ولكن ماذا استطيع من اجلك مقابل هذا يا مسيو ..

ـ راوول دابنياك .. ارجو معذرتك يا سيدى الرئيس فقد استخدمت بطاقة قديمة . ان ارسين لوبين قد مات .

ـ لو اننى كنت فى شك من ذلك فقد تاكدت منه صباح اليوم .

وبسط فالنجلاى يده فوضع لوبين فيها العلبة وقال : اتمنى ان يضع المفتش جانيمار نهاية لتحرياته وان تصدر اليه الاوامر بالكف عن ذلك وان يزود بتعليمات جديدة ، فالمفروض اننى بحاجة الى السلام والنسيان ..

وانحنى واردف كمن يبوح بسر : اننى بحاجة الى ان اكون سعيدا .

قال فالنجلاى : سوف احرص على ذلك .

ونهض الرجلان . وتبادل كل منهما النظر لحظة وجيزة ثم تنهد عضو مجلس النواب وقال : وا أسفاه ! .. لو شئت يا مسيو دابنياك لاستطعت ان تقدم لنا اجل الخدمات .

وخفض عينيه وراح يحلم لحظة ثم قال : آه . ولكن لا داعى للأسف . اننى اشكرك باسم فرنسا .. سيعرف اولو الامر ما فعلت .

وتملكه الانفعال رغم تشككه كبرلمانى قديم شهد الكثير من المعارك السياسية والفضائح وعدم الوفاء بالوعود ، وقال مرة اخرى :

ـ شكرا ... اسمح لى ان اصافحك .

***

اوقف لوبين سيارة اجرى وخاطب السائق قائلا : الى محطة سان لازار .

كان مرحا .. كان عائدا الى يونرفيل .. واخذ اهبته لكى يعود ويتقمص شخصية ليونس كتارا من جديد ، وعاهد نفسه ان يعطى عمله اكبر مدة .. اكبر مدة ممكنة ، وقال :

ـ لوسيل .. اننى فى العشرين من عمرى اليوم من اجلك .

ولم يسمع بائع الجرائد وهو يلوح بجريدة فى يده فى راسها هذا العنوان الضخم :

مقتل الارشيدوق فرانسوا فرديناند ... جريمة سراجيفو .

« تمت »

٣٠ قرشاً



هذه الرواية

وقع اختيار ارسين لوبين على قصر يونرفيل لسرقة مايضم من لوحات ثمينة ومجوهرات نفيسة ، وتسلل اليه ليلا ولكنه ماكاد يضع قدمه على أول درجة حتى انطلق جرس الانذار .

ورغم رنين الجرس المتواصل لم يتحرك أحد ، وتحقق لوبين ان صاحب القصر وخدمه مستغرقون فى سبات عميق بتأثير مخدر ،فهل سبقه أحد الهواة ؟ ...

وفجأة يلمح ثلاثة رجال يبتعدون وهم يحملون رجلا مغمى عليه .

ويستقل المجهولون قاربا يبتعد بهم بمحاذاة الشاطىء ويختفون . ومن باطن الارض يسمع لوبين صيحات استغاثة وتأوهات ويتأكد أنه واقف فوق محجر وأن الرجال الثلاثة يضربون الرجل لحمله على الكلام .

فهل يخفى القصر شيئا أثمن من اللوحات الفنية والمجوهرات التى يزخر بها ؟ .. كنز اسطورى يحمل الاشقياء الثلاثة على تعذيب الناس وقتلهم فى سبيل الحصول عليه ، لانه ستقع جرائم كثيرة قبل أن يكتشف اللص الشهير سر يونرفيل .